

روضة الورد فى أولية هذا الإمام الفرد

أقول وعلى الله أعتد ومن بحر كرمه أستمد:

هذه ترجمة نذكر فيها أصله ومحتده، وأوليته ومولده.

قال الشيخ الإمام الرحال أبو عبد الله محمد بن جابر الوادى آشى،

الملقب بشمس الدين، رحمه الله ورضى عنه:

هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي. هكذا ذكر نسبه الشيخ أبو القاسم الملاحى. وعمرون ثبت عنده بنون بعد الواو^(١).

ووقع فى معجم أصحاب الصدفى، للإمام الشهير القاضى أبى عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى، المعروف بابن الأبار: «عمرو»، دون نون^(٢).

قلت: ونحوه لابن خاتمة فى الكتاب المسمى بـ «مزىة ألمرية، على غيرها من البلاد الأندلسية».

وقال الشيخ أبو القاسم بن الملجوم:

اجتاز علينا القاضى عياض عند انصرافه من سبتة قاصدا إلى الحضرة، زائرا لأبى بداره عشية يوم الاثنين الثامن لرجب، سنة ثلاث وأربعين وخمس

(١) وكذلك ثبت لدى ابن الخطيب فى الإحاطة ج ٤، ص ٢٢٢.

(٢) ابن الأبار: المعجم فى أصحاب الصدفى، ص ٢٩٤.

مئة، وفي هذه العشية استجزته، وسأله عن نسبه؛ فقال لي: إنما أحفظ: عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض. وأحفظ أيضاً بعد ذلك: محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض. ولا أعرف أن محمداً هذا هو أبو عياض أو بينهما أحد». انتهى كلام ابن الملجوم.

وقوله «اجتاز علينا» يعنى بمدينة فاس وقوله «قاصداً إلى الحضرة» يعنى مراکش.

وأفادني الشيخ العارف المتبتل، الرباني البركة، سيدي حسين الزرويلي أبقى الله بركاته، وأدام وجوده والنفع به:

أن القاضي عياضاً، رضى الله عنه، لما دخل الحضرة الفاسية، حاطها الله، نزل بدار ابن الغرديس التغلبي بزقة حجامة، حسبما أشار إليه ابن الأحمر، ولم تزل هذه الدار إلى الآن بيد أولاد ابن الغرديس.

وقال نجل عياض الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن عياض، قاضي دانية، على ما قال ابن خلكان؛ وقاضي غرناطة، على ما قال ابن قنفذ وغيره. ولعله تولى القضاء فيهما معاً رحمه الله، المتوفى سنة خمس وسبعين وخمس مئة:

«كان أبي يقول: لا أدري: هل محمد والد عياض، أو بينهما رجل؟ فهو جده». انتهى.

وهو مثل ما حكى ابن الملجوم عن عياض كما سبق قريباً.

ورأيت في تاريخ الشمس ابن خلكان، المسمى بـ«وفيات الأعيان» في تعداد آباء القاضي عياض، خلاف ما سبق؛ ولا أدري: هل ذلك تحريف من

الناسخ أو وهم من المؤلف؟ ونصه: «عياض بن موسى بن عياض بن موسى ابن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي». انتهى.

فأنت تراه قد أسقط «عمرون» فيما بين عياض وموسى^(١)، وأسقط أيضاً «عبد الله» فيما بين «محمد» و«موسى».

وقد وافقه على إسقاط «عبد الله» الشيخ العلامة ابن خاتمة في «مزية المرية»، فإنه قال في باب العين ما نصه: «ومن الغرباء: عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي». انتهى.

على أن ابن خلكان وغيره من المشاركة ربما يقع لهم الغلط في تاريخ أهل المغرب، لبعد الديار، ولغير ذلك، مما لا يخفى على ممارس علم التاريخ؛ كما أن كثيراً من المغاربة لا يحررون تاريخ المشاركة، لما ذكرناه؛ ولذا قال شيخ الإسلام ابن حجر في تأليفه المسمى بـ«إنباء الغمر بأنباء العمر» حين عرف بشيخه ولي الدين بن خلدون الحضرمي المغربي قاضي القضاة المالكية، بالديار المصرية، وهو صاحب التاريخ الكبير المشهور، الموسوم بـ«ديوان العبر»، وكتاب المبتدأ والخبر، في تاريخ العرب والعجم والبربر، ومن عاصريهم من ذوى السلطان الأكبر ما نصه:

«وصنف التاريخ الكبير في سبع مجلدات ضخمة، ظهرت فيه فضائله، وأبان فيه عن براعته، ولم يكن مطلعاً على الأخبار على جليتها، ولا سيما أخبار المشرق، وهذا بين لمن نظر في كلامه». انتهى.

وأيّن هذا الكلام وقول الشيخ شمس الدين البغدادى في الشيخ ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون المذكور، رحم الله الجميع:

(١) لم يسقط ابن خلكان ٤١٣/٣ ط. دار صادر: «عمرون» كما هنا، وإنما وضع بدلها «عمرو».

قاضي القضاة ابن خلدون أتى عجبا تاريخه مخبر عن سائر الدول
قالوا ولي فقلنا من كرامته وكشفه جاء يُنبينا عن الأول
وليس بدعا ولا في الله ممتنعا أن يجمع العالم الكلى في رجل
وبالجملة فما ذكرنا أولا في تعداد آباء القضي عياض، رحمه الله، هو
الذي عليه المعول، وعليه اعتمد ولده، وابن الملجوم، وابن بشكوال^(١)، وابن
جابر، وابن الخطيب في «الإحاطة»^(٢)، وغير واحد؛ وكفى بهؤلاء حجة.
وناهيك بولده وابن الملجوم، الذي أخذ ذلك من لفظه، حسبما سبق آنفاً؛
وهو الصواب الذي لا يُعدل عنه، والله تعالى أعلم.

والْيَحْصِي، بضم الصاد وكسرهما، وزاد بعضهم فتحها، ونحوه لابن
خلكان^(٣)؛ واقتصر بعضهم على الكسر قائلاً: وهو الصواب، بناء على أنها،
أعنى القبيلة، يحصب، بكسر الصاد، كتغلب. ولا أشك أن النسب إليه إن
كان بكسر الصاد: يحصب، بالكسر كتغلب؛ وأما ضم الصاد في النسب فهو
مبنى على أن «يحصب» بضم الصاد في الحى. قال ابن سيده في محكمه:
ويحصب: قبيلة، وإنما هي يحصب، يعنى بضم الصاد، نقلت من قولك:
حصبه بالحصى يحصبه؛ قال ابن جابر: وليس بالقوى.

ويحصب: من حمير، وهو يحصب بن مدرك، حسبما هو مذكور في
كتب الأنساب.

قال القاضي أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي الفضل عياض:

(١) لم يرد لدى ابن بشكوال في الصلة سوى: «عياض بن موسى بن عياض اليحصبي».

(٢) الإحاطة ج ٤، ص ٢٢٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٨٥.

«استقر أجدادنا في القديم بجهة بسطة، من بلاد الأندلس، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان، فلا أدري أكان قبل استقرارهم بالأندلس أم بعده؟ ولذلك يقول عبد الله بن حكيم:

وكانت لهم بالقيروان مآثر عليها لمَحْض الحق أوضح برهان
قال:

وكان «عمرون» والد جد أبي، رحمة الله على جميعهم، رجلاً خيراً صالحاً، من أهل القرآن، حج إحدى عشرة حجة، وغزا مع ابن أبي عامر غزوات كثيرة، وانتقل من مدينة فاس إلى مدينة سبتة، بعد دخول بني عبيد المغرب، وكان سبب ذلك أنه كان له لأبيه نباهة بمدينة فاس، فأخذ ابن أبي عامر رهناً من أعيان مدينة فاس، فأخذ فيهم أخوى «عمرون»: عيسى والقاسم، فخرج عمرون إلى مدينة سبتة، ليقرب من أخبارهما بمدينة قرطبة، فاستحسن سكنى مدينة سبتة، وكان موسراً، فاشترى بها أرضاً وهي المعروفة بالمنارة، فبنى في بعضها مسجداً، وفي بعضها داراً، حبسها على المسجد، وهو حتى الآن منسوب إليه، وحبس باقى الأرض للدفن، ولم يزل منقطعا في ذلك المسجد إلى أن مات، رحمه الله، سنة سبع وتسعين وثلاث مئة. وولد له قبل وفاته بيسير ابنه عياض، ثم ولد لعياض ابنه موسى، ثم ولد لموسى ابنه عياض، أبي، رحمهم الله أجمعين؛ وذلك، فيما رأيته بخطه، في النصف من شعبان عام ستّة وسبعين وأربع مئة بسبتة». انتهى.

والسبتى: نسبة إلى سبتة، مدينة بساحل بحر الزقاق، مشهورة، واختلف في سبب تسميتها بذلك، فقليل لانقطاعها في البحر، من قولك: سَبَّتُ النعل: إذا قطعته، وقيل لأنَّ مختطها هو سبت بن حام بن نوح، وإلى

هذا الأخير ينظر قول لسان الدين الوزير الشهير، العلامة أبو عبد الله بن الخطيب السلماني الغرناطي، رحمه الله، من قصيدة:

حييت يا مختط سبت بن نوح بكل مُزن يغتدى أو يروح
مغنى أبى الفضل عياض الذى أضحت برياه رياض تفوح
وفيه يقول الأديب أبو الحكم مالك بن المرحل، من قصيدة طويلة بديعة
جدا، مطلعها:

سلام على سبتة المغرب أخية مكة أو يثرب
وفى مدحها يقول أيضاً رحمه الله:

اخطر على سبتة وانظر إلى جمالها تصبو إلى حسنه
كأنها عود غناء وقد ألقى فى البحر على بطنه
وقال الحجارى فى المسهب:

«أول من سكن بر العدو وبر الأندلس من ولد نوح بعد الطوفان، سبت وأندلس ابنا يافث بن نوح فنزل سبت فى آخر المعمور من بر العدو، وبنى له منزلا فى موضع سبتة فدعيت باسمه، وتنازلت منه قبائل البربر، واتسعت فى بر العدو إلى أن بلغت إلى فلسطين، وكان ملكهم يسمى جالوت، وكان مجوسيا، وهزمه طالوت، وقتله داود، فانضمت البربر عن فلسطين، وعن الديار المصرية، واقتصرت من برقة إلى آخر المعمور؛ وسكن أخوه أندلس مقابلا له فى انتهاء المعمور فعرفت باسمه». انتهى.

وأكثر بلاد العدو فى الإقليم الثالث، وفيه حضرته مراكش، وما قارب منها الأندلس كسبتة، وما قرب منها فى الإقليم الرابع.

قال ابن سعيد:

«ولا نطالب في هذا البر بما صنعناه في الأندلس، فأهل الأندلس إما عرب أو متعربون، قد توارثوا قوام اللسان وحافظوا عليه، وأهل بر العدو أما بربر أو متبربرون». انتهى.

وفى وصفها يقول لسان الدين بن الخطيب فى مقامة وصف البلدان:

«قلت: فمدينة سبتة؟ قال: تلك عروس المجلى، وثنية الصباح الأجلى؛ تبرجت تبرج العقيلة، ونظرت وجهها من البحر فى المرأة الصقيلة، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة؛ وإذا قامت بيض أسوارها، وكان جبل بليونش شمامة أزهارها، والمنازة منارة أنوارها؛ فكيف لا ترغب النفوس فى جوارها، وتهيم الخواطر بين أنجاده وأغوارها؛ إلى الميناء الفلكية، والمراقى الملكية. والركية الزكية، غير المنزورة ولا البكية، ذات الوقود الجزل، المعد للأزل، والقصور المقصورة على الجد والهزل؛ والوجوه الزهر السحن، المضمون بها عن المحن؛ دار الناشبه، والحامية المضرمة للحرب المناشبه؛ والأسطول المرهوب، المحذور الألهوب، والسلاح المكتوب المحسوب، والأثر المعروف المنسوب؛ كرسى الأمراء والأشراف، والوسيطه، لخامس أقاليم البسيطه، فلا حظ لها فى الانحراف؛ بصرة علوم اللسان، وصنعاء الحلل الحسان، وثمرة امتثال قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ [النحل]، الأمانة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل العصير والحريز والكتان، وكفاها السكنى بليونش فى فصول الأزمان، ووجود المساكن النبیهة بأرخص الأثمان؛ والمدفن المرحوم غير المرحوم، وخزانة كتب العلوم، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم؛ إلا أنها فاعرة الأفواه

للجنوب، للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب، وناهيك بحسنة تعد من الذنوب؛ فأحوال أهلها رقيقه، وتكلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقه، واقتصادهم لا تلبس منه طريقه، وأنساب نفقاتهم فى تقدير الأرزاق عريقه؛ فهم يمصون البلالة مص المحاجم، ويجعلون الخبز فى الولاثم بعدد الجماجم، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم، بالبشير المهاجم، وراعى الجديب بالمطر الساجم؛ فلا يفضلون على مدينتهم مدينة، الشك عندى فى مكة والمدينة». انتهى.

قلت: ولعله عرض بقوله: «الشك عندى فى مكة والمدينة»، بقول مالك بن المرحل: «أخية مكة أو يثرب». والله اعلم.

وكان لسان الدين بن الخطيب كثيرا ما ينزل فى وجهاته المغربية، عند الشريف الشهير، سيدى أبى العباس أحمد بن سيدى محمد، ابن سيدى أحمد، ابن سيدى طاهر، ابن سيدى رفيع، ابن سيدى على المدعو بالمكين، ابن سيدى أحمد، ابن سيدى على، ابن سيدى أبى الطاهر، ابن سيدى الحسين، ابن سيدى موهوب، ابن سيدى أحمد، ابن سيدى محمد، ابن سيدى طاهر، ابن سيدى الحسين، ابن مولانا على، المدعو بالهادى، ابن مولانا محمد، المدعو بالجواد، ابن مولانا على الرضا، ابن مولانا موسى، المدعو بالكاظم، ابن مولانا جعفر الصادق، ابن مولانا محمد الباقر بن زين العابدين ابن مولانا على، ابن مولانا الحسين الشهيد، ابن مولانا أمير المؤمنين، مولانا على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ونفعنا ببركته هؤلاء السادات، الذين سردنا أسمائهم تبركاً بها.

قال صاحب كتاب «الكواكب الوقادة»، فى ذكر من دفن فى سبتة من العلماء والصلحاء القادة»:

«كان هذا السيد الشريف يوسع ابن الخطيب إكراما، وكان من عادة الشريف المذكور أن يخرج إلى بساتينه فى المصيف بقرية بليونش، كمينة العبا، وجنة الحافة، ويخرج فى القبة السامية المطلة على البحر بجنة الحافة، ويجعل الطريق تحته، فإذا رأى جماعة سائرين من أى صنف كانوا، من التجار أو الغرباء أو البلديين، يوجه رجاله إليهم، ويقدم لهم الطعام، ويرتاح إلى ذلك، ويسر به ويؤنس كلاً بما يناسبه، من ذكر عيون أخبار بلده، وخاصة قطره، وما يجر إلى ذلك ويرجع إليه، من بديع الحكايات، ولطيف النوادر؛ ثم يأمر بإدارته على تلك البساتين، ورؤية ما بها من المصانع^(١)، ثم يبعث وراء آخرين، وينزل كل واحد منزلته، ويغيب عمن يخجله حضوره؛ ويغضى عن مداعبة إن وقعت، ويتجاهل الهفوة إن بدرت. وكان يخرج الوزير ابن الخطيب - عند نزوله عنده - إلى هذه القرية البليونية.

ومن بديع نظم ابن الخطيب فيها:

بليونش أسنى الأماكن رفعة	وأجل أرض الله طراً شأننا
هى جنة الدنيا التى من حلها	نال الرضا والروح والريحانا
قالوا القروء بها فقلت فضيلة	حيوانها قد قارب الإنساننا

(١) المصنع: شبه الحوض يجمع فيه المطر ونحوه. جمعه مصانع. والمصانع: المباني من القصور والحصون والقرى والآبار وغيرها من الأمكنة العظيمة.

وفيهما يقول القاضى عياض:

بليونش جنة ولكن طريقها يقطع النياطا
كجنة الخلد لا يراها إلا الذى جاوز الصراطا
ونقلت من خط ابن حيان - بعد كلام فى سبتة - ما نصه:

«ومتنزهاتها أعظمها بليونش، تحتوى على مياه عيون، وأودية،
ومتنزهاات، وأبنية عظيمة؛ وفيها من جميع الأشجار والثمار».

وفيهما يقول أبو الحجاج المنصفى:

بليونش شكلها بديع أفرغ فى قالب الجمال
فيها الذى ما رآته عيني يوماً ولم يخطر ببالى
طريقها كالصدود لكن تعقبه لذة الوصال
قال ابن رشيد: وأنشدنى القاضى أبو عبد الله محمد بن أبى عبد
الرحمن الكملى قاضى أزمُور فيها:

بليونش كلها عذاب فالمشى فى سبلها عقاب
يكنفها شامخ منيف كأنه فوقها عقاب

وهذا الشامخ يعرف بجبل موسى . وإليه أشار المنصفى فى خمسة:

وطود موسى لها تاج على الراس

وبهذا الجبل متعبد مبارك، وبساحله مغطس المرجان، ومن عجائب هذا
المتعبد أن من دخله ممن ليس له أهلاً فإنه يجد فى عنقه صفعاً إلى أسفل
الجبل؛ وهو مسيرة ثلاثة أميال، وهو من سبتة على تسعة أميال، وبهذا الجبل

منشأ القروء، وهو مستشرف على بعض الأندلس. وبسبته مدرسة بناها أبو الحسن الشاربي، ووقف بها كتباً عظيمة.

وبموضع يقال له التوتة يوجد كثير من الياقوت الأحمر دقيق. ومن عجائبها أن البلأرج لا تعشش فيها، وقلما تخطر عليها. ويقال إنها بناها سبت بن سام بن نوح، وأنه دعا لها باليمن والبركة، ورووا في ذلك حديثاً عن مالك عن نافع عن ابن عمر. قال عياض: وأبرأ أنا من عهدته، وقد خرج في الغنية، ولذلك قال بعض الشعراء:

فكل جبار إذا ما طغى وكان في طغيانه يسرفُ
أرسله الله إلى سبتةٍ فكل جبار بها يقصفُ
أنشدهما أبو عبد الله محمد بن حمادة البرنسي، خال أبي لأمه، في كتابه المسمى بـ«المقتبس»، في أخبار المغرب والأندلس.

ومن نظم المنصفي في بليونش من قصيدة:

انظر إلى نضرة زهر الربا كأنه وشى على كاعبِ
ومتع الطرف ببليونش ومائها المنبعث الساكبِ
تشاركت والحسن في وصفها تشارك العين مع الحاجبِ
وقد أرتنا اليوم من حسنهما ما لم يكن في زمن الحاجبِ
والحاجب: أحد ملوك سبتة؛ وله عمل ابن مرانة قصيدة في الكوائن والحوادث.

فعالة بالطبع في أهلها ما تفعل القهوة بالشاربِ
تذكر الشيخ زمان الصبا وتفسد التوبة للتائبِ

وله :

انظر إلى بهجة بليونش وحسن ذاك المنظر اللامع
تحكى الثريا عندما أسرجت بليلة الختمة فى الجامع
ولما قفل السلطان الأشهر أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر من
المغرب، حين رجوعه إلى بلده مع قاضى حضرته غرناطة، أبى الحسن على
ابن الحسن، المعروف بالنباهى شيخنا، ووزيره أبى عبد الله بن الخطيب، صنع
له ضيافة ملوكية بالمنية، من قرية بليونش المشار إليها، حيث القصر هناك،
وعنصر الماء المختص بها. ومن هناك ركب البحر ليلا، وذلك فى جمادى
الأخرى من عام ثلاثة وستين وسبع مئة. وفى الحادى والعشرين من الشهر
المذكور دخل دار ملكه حمراء غرناطة، وأكل من فضل هذه الضيافة معظم
من كان بالقرية، من قوى وضعيف، ورفيع ووضيع.

وكان شيخنا القاضى أبو الحسن المذكور يثنى عليه، ويعظمه تعظيما يليق
بمثله، ويقول فى أثناء حديثه: فعل أبو العباس الشريف صاحب سبته كذا،
وصنع كذا. ولم تزل حالته هذه، رحمة الله عليه، إلى أن أسن وأقعد، فلزم
منزله ثلاث سنين، من غير أن ينقص ذلك من منصبه شيئا، ولا من انتفاع
الناس به؛ وكان أبيض اللون، حسن الهيئة والملبس، يخضب بالحناء؛ وتوفى
فى زمانته وقد نيف على الثمانين، عام ستة وسبعين وسبع مئة، وله الآن
قراة بمدينة فاس بقيد الحياة».

انتهى كلام صاحب الكواكب الوقادة باختصار، وبعضه بالمعنى.

ومن نظم هذا الشريف، مما أمر به أن ينقش بالقبة المذكورة آنفاً فى
معنى الاستعاذة:

وثقت بالله ربى وحسبى الله حسبى
والله كافٍ وواقٍ ودافع كل خطب
ولست أخشى إذا ما وثقت بالله ربى
بلغت فيها مرادى مُهنأ مع صحبى
والخمس تفقأ عيناً لكل حاسد ندب

وكان السلطان المرحوم أبو عنان فارس، ابن سلطان أبى الحسن المرىنى
يجل هذا الشريف، ويعترف له بالفضل، ويعطيه العطاء الجزل، وكان
يستدعيه كل سنة إلى حضرته فاس، لحضور المولد السعيد، الذى سنه ببلاد
المغرب الشيخ أبو العباس العزفى، وتلك السنة إلى الآن بحسن نيته، واعتنائه
بالجناب العلى، نفعه الله بذلك، ويخلع عليه الخلع الملوكية، ويعد له ديناراً
مسكوكا يصنع بمدينة مراكش، زنته مئة دينار ذهباً، يدفع له ذلك مع جائزته،
إلى غير ذلك مما كان يتحفه به، رحمه الله، ويصحبه فى وجهته تلك من
الضعفاء والتجار ما لا يحصى كثرة، ويتولى هو الإنفاق على الجميع من
ماله، ويرفع عنهم اللوازم المخزنية، فكان التجار لأجل ذلك يرصدون وقت
سفره وقفوله. وقدمه السلطان أبو عنان المذكور ناظراً على بلده سبتة، وأمر
صاحب قصبته ألا يقطع أمراً إلا بمشورته، فكان العمال يخافونه ويشاورونه،
فإذا رأى من أحدهم خروجاً عن العادة، أو حيفاً على الرعية، كتب إلى
السلطان فى شأنه، فيعزله من فوره، ويعوضه بغيره. وكان يقول للسلطان:
لعلك تحسبنى خديماً، لست كذلك، وإنما نحن معشر أهل البيت شفعاء فى
الدنيا، وشفعاء فى الآخرة. فكان أهل سبتة فى أيامه فى عيش هنى، ونعمة
شاملة، بقى على هذه الحالة المرضية مدة عشرين سنة. وله بسبتة آثار تحكى

الآثار العزفية، كالرياض الأعظم، الذى أمام باب الميناء الأسفل الذى تأنق فى بنيانه وأبدع صنعته، وجلب إليه الماء بالدواليب حتى أوصله إلى القبة ذات الأعمدة؛ وكالرياض الذى بالصفارين، حيث كان قعوده مع خواص الناس وعامتهم.

قال صاحب الكواكب الوقادة:

«سمعت أحد كتّابه الخاص به، الملازم له ليلاً ونهاراً، مع مرور الأيام والسنين، يقول: ما أمرنى قط سيدى ومولاي الشريف بكتب شىء مخالف للشرع، بل فى رفع المظالم، وإنهاء الشفاعات، وتوجيه الأمانات، وما فى معنى ذلك، مما ندب إليه الشرع، وحض عليه، ووعد بالشواب على فعله. وطالما سمعت الكاتب المذكور يقسم على ذلك، فنفعه الله به». انتهى.

قلت: تذكرت بهذا الفعل الجميل ما كتب به على دواة أمير المؤمنين أبى عنان، رحمه الله، وهو:

أنا دواة فــــــــــــــــــــارس أبى عنان المعتــــمــــد
حلفت من يكتب بى بالواحد الفرد الصمد
أن لا يمد مــــدــــة فى قطع رزق لأحد

وقد رأيت فى هذا الأيام دواة فى غاية ما يكون من الإتقان والصنعة والتذهيب، وفيها مكتوب البيتان الأخيران، وهى عند بعض أصحابنا الكتاب بالخرصة الفاسية - حاطها الله - وأظنها هى الدواة التى كانت لأبى عنان، والله اعلم.

رجع إلى ذكر الشريف

وكان الشريف المذكور يصنع أنواع المطاعم الرفيعة، ويتبسط في ألوانها، ويطعمها الغنى والفقير، والقوى والضعيف، ممن يحضر مجلسه أو يأتي إليه، وبالجملة فهو قطب الجود الذى عليه المدار، وإمام الأدب الذى لا يجاريه الرضى ولا مهيار؛ ومن نظمه، وقد سائر قاضى الجماعة بحضرة غرناطة، أبا البركات البليقى الشهير بابن الحاج السلمى، من ولد العباس بن مرداس رضى الله عنه، زمن الشيبه فى بعض أسفاره ببر الأندلس، فلما انتهى إلى قرية بزيانة وأدركهما النصب، واشتد عليهما حر الهجير، نزلا وأكلا من باكر التين الذى هنالك، وشربا من ذلك الماء العذب، واستلقى أبو البركات على ظهره تحت شجرة مستظلا بظلها، ثم التفت إلى الشريف وقال:

ماذا تقول، فدتك النفس فى حالى يفنى زمانى فى حل وترحال
وأرتج عليه؛ فقال لأبى العباس: أجز؛ فقال بديها:

كذا النفوس اللواتى العز يصحبها لا ترضى بمقام دون آمال
دعها تجوب الفيافى والقفار إلى أن تبلغ السؤل أو تفنى بتجوال
وكان عطاء هذا السيد الشريف المرسوم له من بيت المال، ثلاثين ديناراً من الذهب العين فى رأس كل شهر، وهو خاتمة الشرفاء العظام بمدينة سبتة. ولهؤلاء الشرفاء بمدينة سبتة نحو الثلاثين قبراً، فى روضتهم المنسوبة إليهم، بالجانب الشرقى من رابطة الفصال. وهؤلاء الشرفاء من ذرية أبى الطاهر الذى خرج من جزيرة صقلية، وكانت لهم بسبتة وجاهة وسياده، وجلالة ومجاده؛ لمكان بيتهم الشريف، ونسبهم العالى المنيف؛ ما منهم واحد إلا غداه العلم

بلبانه، والأدب ببيانه. وولى منهم قضاء بلدهم سبعة رجالان، لم يطلع مثلهما الملوآن؛ تقى وعلمًا، وأناة وحلما؛ أولهما القاضى أبو الشرف رفيع، والثانى ابنه القاضى أبو الحسن على. وكم نشأ عن هذا الأصل الطاهر من جهبذ تحرير، وعالم ماهر؛ وسخى جواد، له إلى الإعطاء ارتياح وإلى الكرم استناد؛ وناهيك بخاتمهم أبى العباس المذكور.

وكان فائد مضرب الميناء لهذا الشريف الحسينى، دون أن يشركه غيره؛ وكان له بمضرب أويات يوم يضرب فيه، ويومان لبيت المال، وكانت عادة عامل المضارب، الناظر فى فوائدها وما تحتاج إليه من نفقة وآلة، أن يأمر رجاله وأعوانه، حين يقعد النواتية الكيس، بالوقوف إليه، والدفاع عنه، بعد أن يحضر الشهود، خفراً وضبطاً لما يحصل من فائد المضرب المالى فى يوميه؛ فإذا كان يوم السيد الشريف يأمر رجاله وخادمه وأعلاجه الإسلاميين، بإباحة المضرب للمساكين، وتفريق الحوت على من لا يصل إليه، ممن يحضر متنزها، إما لحفظ مروءة، وإما لغير ذلك. ولا يزال الناظر من قبله، وهو القائد فارح أحد أعلاجه، واقفاً على حصانه، وقد أحاطت به رجاله، إلى أن يرضى كل من يحضر، وما فضل عن ذلك فهو له. وأما السيد الشريف فلا يحضر، إذ همته أرفع من ذلك، وقدره أعظم، ومكانته بسبته مكانته، بحيث يأتى إليه فى الموضع الذى أعده لجلوسه برياضه الذى بالصفارين صبيحة كل يوم صاحب القصبة، كائناً من كان، مسلماً عليه، ثم ينصرف، ثم يأتى الوالى على قبض الجباية مسلماً، ثم ينصرف بعد تقبيل قدمه، ثم يأتى صاحب الشرطة، وكذا جميع أمراء سبته، إلا القاضى، لمكان خطته، فيعامل كلا بما يستحق من إكرام وإهانة، وإغلاظ ومجاملة، فلا يتخلف أحد عن

غرضه، ولا يصدر إلا عن رأيه ونظره. وهذا كله مع النصيحة للمسلمين، وجلب المنفعة لهم بالقول والفعل، وإطعام الطعام الذى لا يقدر عليه الأمير فمن دونه، ورفع المظالم، ومنح الجاه، إلى غير ذلك، نفعه الله. فكان من حكمة الله عز وجل وبركة أهل البيت، وفضل الجود والكرم ومكارم الأخلاق، وإيصال المنفعة للعباد، أن يخرج فى اليوم الذى له بالمضرب من الحوت، أى نوع كان من الجارى، أضعاف ما يخرج فى اليومين، ويحصل له من الفائد أكثر مما يحصل لمتولى النظر فيهما، فيتصل بيده من فائد يومه خمس مئة الدينار وسبع المئة، وربما يزيد وينقص؛ وقد انتهى فى بعض الأحيان إلى ألفى دينار فى اليوم، حسبما يستنيه الله عز وجل؛ هذا بعد العادة التى عودها نفسه النفيسة، من الإيثار والبذل، للسرى والنذل. ولم تكن له همة، رحمه الله، فى احتكار المال وجمعه، بل يصرف ذلك كله فى إطعام الطعام، الخاص والعام، وفى تشييد البنيان، والإنفاق على الفعلة والصناع والخدام، وآثاره ومصانعه بداخل سبته وخارجها شهادة بذلك مدى الأيام؛ وكم فى أثناء هذا التصرف من مؤاسة فقير، وإعانة ضعيف، وإغاثة ملهوف، برفع لازم أو وظيف^(١)، حسبما هو معلوم معروف منقول.

وكان ملوك بنى مرين يعتنون به أتم اعتناء، ويبادرون إلى موافقة أغراضه، وقبول شفاعته، وما كان يتلقاه حين وروده على حضرتهم فاس إلا الملك بنفسه، إلى غير ذلك من مناقبه رضى الله عنه، ونفعنا به، وبسلفه الطاهر.

(١) المراد به الوظيفة، وهى الراتب الجارى من الأرزاق ونحوها.

قلت: وإنما ذكرت التعريف بهذا الشريف الفياض، تفاؤلاً بالابتداء به بعد عياض، لأننى اشتطت أنى أخرج من الشئ إلى ما يناسبه، فبدأت فى ذلك بهذا السيد الشريف، الذى عظمت مجادته، وكرمت مناسبه، وزكت مآثره، وعلت مناصبه؛ والأعمال بالنيات، والله يبلغنا فى الدارين غاية الأمنيات.

وبعد أن بلغت سبته ما ذكرناه من أحوالها، وبقيت مدة آمنة من شرور الدنيا وأهوالها، وأطلعت فى سمائها نجومها، كانت علومها للمردة رجوماً؛ كعياض المؤلف فيه هذا الكتاب، وهؤلاء الشرفاء الذين لا يمتري فى فضلهم ولا يرتاب؛ وبني العزفى المشاهير، الذين برزوا فى ميدان السبق على الخاصة والجماهير؛ وحازوا رياسة الدين والدنيا، وفازوا بالمكانة السامية والمرتبة العليا؛ وغيرهم ممن لا يحصى كثره، ممن كان لهم تقديم وأثره، عدا عليها الدهر بعدوانه، وسقط شرفها من إيوانه؛ واستولى عليها العدو الكافر، فى قضية يطول شرحها، وعظم على أهل الإيمان قرحها، وأعضل أطباء الملوك إلى الآن جرحها، ولم يزل بنفوس المؤمنين شجوها وبرحها.

أخبرنى الفقيه الطيب العدل الفرضى، سيدى أبو القاسم بن محمد الوزير الغسانى رحمه الله: أنه لما دخل سبته، حين وجهه أمير المؤمنين، مولانا المنصور، رحمه الله، إليها، فى شأن فداء الكفار المأخوذى بالغزوة الشهيرة، ذهب إلى المدرسة التى كان بناها أحد ملوك بنى مرين رحمهم الله، وأظنه أبا عنان، وهى من أجل المدارس وأعظمها، فرأى فى محرابها ناقوساً وصلياً، قال: فسأنى ذلك، فرفعت بصرى فإذا كتابة بخط رائق، فى تلك النقوش فوق ذلك الناقوس، فيها قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ

وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ... ﴿١٩﴾ [آل عمران]. وكان ذلك الكتب قديماً فيها من جملة ما كتب المسلمون بها حين بنائها، على ما جرت به عادة الملوك من كتب الآيات القرآنية فى النقوش بالزليج والمرمر. قال لى رحمه الله: فتعجبت من ذلك الإنفاق، وسلانى ذلك بعض التسلى، وإلى الله ترجع الأمور.

وكان أخذ سبته، أعادها الله، سنة ثمان وعشرة وثمانمائة. بعد ما استولى العدو الكافر على معظم بلاد الأندلس، مثل قرطبة، ومرسية، وطليطلة، وبلنسية، وغيرها، مما يطول تعداده.

وقد قال بعض الشعراء حين أخذت طليطلة، وكانت من أول ما أخذ من القواعد العظام، يخاطب أهل الأندلس:

يأهل أندلس شدوا رحالكم فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منشوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات فى سفت
ولله در الإمام العلامة خاتمة أدباء الأندلس، أبى الطيب صالح بن شريف الرندى رحمه الله إذ قال يندب بلاد الأندلس، ويبعث العزائم ويحركها من أهل الإسلام لنصرة الدين، وإنقاذ البلاد من يد الكافرين، ولسان الحال ينشده «لقد أسمعت لو ناديت حياً».

لكل شىء إذا تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شان

يمزق الدهر حتما كل سابعة
وينتضى كل سيف للفناء ولو
أين الملوك ذوو التيجان من يمن
وأين ما شاده شداد فى إرم
وأين ما حازه قارون من ذهبٍ
أتى على الكل أمر لا مرد له
وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلِكٍ
دار الزمان على دارا وقاتله
كأنما الصعب لم يسهل له سبب
فجائع الدهر أنواع متنوعة
وللحوادث سلوان يهونها
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له
أصابها العين فى الإسلام فارتزئت
فاسأل بلنسية ما شأن مرسيةٍ
وأين قرطبة دار العلوم فكم
وأين حمص وما تحويه من نُزهٍ
قواعد كن أركان البلاد فما
تبكى الحنيفة البيضاء من أسفٍ

إذا نبت مشرفيات وخرسان
كان ابن ذى يزن والغمد غمدان
وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما ساسه فى الفرس ساسان
وأين عاد وشداد وقحطان
حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
كما حكى عن خيال الطيف وسان
وأم كسرى فما آواه إيوان
وللزمان مسرات وأحزان
وما لما حل بالإسلام سلوان
هوى له أُّحدٍ وانهدّ ثهلان
حتى خلت منه أقطار وبلدان
وأين شاطبة أم أين جيان
من عالم قد سما فيها له شأن
ونهرها العذب فياض وملآن
عسى البقاء إذا لم تبق أركان
كما بكى لفراق الإلف هيمان

على ديار من الإسلام خالية
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة
يا غافلا وله فى الدهر موعظة
وماشياً مرحا يلهيه موطنه
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
يا أيها الملك البيضاء رأيته
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
وحاملين سيوف الهند مرهفة
وراعين وراء البحر فى دعة
أعندكم نبأ من أهل أندلس
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم
ألا نفوس آيات لها همم
يا من لذلة قوم بعد عزهم
بالأمس كانوا ملوكاً فى منازلهم
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم

قد أسلمت ولها بالكفر عمران
فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المنابر ترثى وهى عيدان
إن كنت فى سنةٍ فالدهر يقظان
أبعدَ حمص تغر المرء أوطان
وما لها مع طول الدهر نسيان
أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
كأنها فى مجال السبق عقبان
كأنها فى ظلام النقع نيران
لهم بأوطانهم عزٌ وسلطان
فقد سرى بحديث القوم ركبان
أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
وأنتم يا عباد الله إخوان
أما على الخير أنصارٌ وأعوان
أحال حالهم كفر وطغيان
واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
عليهم من ثياب الذل ألوان
لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رَبُّ أُمٍ وَطِفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا كَمَا تَفَرَّقَ أَرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ
وطفلةٍ ما رَأَتْهَا الشمسُ إذْ برزت كأنها هي ياقوت ومرجانُ
يقودها العلج للمكروه مكرهه والعين باكية والقلب حيرانُ
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمانُ
انتهى .

وكان الشيخ الإمام العلامة الفقيه الوزير الكاتب أبو يحيى بن عاصم صاحب الشرح على تحفة أبيه، رحم الله الجميع، عندما رأى اختلال أمر الجزيرة - أعادها الله - وأخذ النصارى - دمرهم الله - لمعظمها، ولم يبق إذ ذاك بيد المسلمين إلا غرناطة، وما يقرب منها، مع وقوع فتن بين ملوك بنى نصر حينئذ، ثم أفضى الملك إلى بعضهم، بعد تمحيص وأمور يطول بيانها، ألف كتابا سماه: «جنة الرضى، فى التسليم لما قدر الله وقضى»، وهو كتاب عجيب جدا غريب، رأيت بعضه بتلمسان، ونقلت منه ما نصه:

«من استقرأ التواريخ المنصوصة، وأخبار الملوك المقصوصة، علم أن النصارى - دمرهم الله - لم يدركوا فى المسلمين ثارا، ولم يرحضوا عن أنفسهم عارا، ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارا، ولم يستولوا عليها بلادا جامعة وأمصارا، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، واجتهادهم فى وقوع الاقتراق، بين المسلمين والاختلاف؛ وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة؛ وتحريشهم بالكيد والخلافة بين حماتها فى الفتن المبيرة؛ ومهما كانت الكلمة مؤتلفة، والأهواء لا مفترقة ولا مختلفة، والعلماء بمعانة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة؛ فالحرب إذ ذاك سجال، والله فى إقامة الجهاد فى سبيله

رجال، وللممانعة فى غرض المدافعة ميدان رحب ومجال، وروية وارتيجال^(١).

ثم قال: وتناولت^(٢) الأيام ما بين مهادنة ومقاطعة، ومضاربة ومقارعة، ومُنازلة ومنازعه، وموافقة وممانعه، ومحاربة وموادعه؛ ولا أمل للطاغية إلا فى التمرس بالإسلام والمسلمين، وإعمال الحيلة على المؤمنين، وإضممار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين؛ وهو يظهر أنه ساع للوطن فى العاقبة الحسنى، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى؛ وأنه مهتم بمراعاة أمورهم، وناظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم؛ وهو يسر حسواً فى ارتغائه، ويعمل الحيلة فى التماس هُلك الوطن وابتغائه. فتباً لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال؛ وليت المغرور الذى يقبل هذا لو فكر فى نفسه، وعرض هذا المسموع على مدركات حسه، وراجع أوليات عقله وتجربيات حدسه، وقاس عدوه الذى لا ترجى مودته على أبناء جنسه؛ فأنا أناشده الله هل بات قط بمصالح النصارى وسلطانهم مهتماً، وأصبح من خَطْبِ طَرَقهم مغتماً؛ ونظر لهم نظر المفكر فى العاقبة الحسنه، أو قصد لهم قصد المدبر فى المعيشة المستحسنه؛ أو خطر على قلبه أن يحفظ فى سبيل القربة أربابهم وصلبانهم، أو عمر ضميره من تمكين عزهم بما ترضاه أحبارهم ورهبانهم؛ فإن لم يكن ممن يدين بدينهم الخبيث ولم يشرب قلبه حب التثليث؛ ويكون صادق اللهجة، منصفاً عند قيام الحجة؛ فسيعترف أن

(١) من قوله: «من استقرأ التواريخ المنصوصة» إلى هنا أورده بنصه المقرئ فى نفح الطيب ج ٤، ص ٥٠٨.

(٢) من هنا إلى قوله: «واسلك بنا سبيل المهتدين» أورده بنصه المقرئ فى نفح الطيب ج ٤، ص ٥١ - ٥٣.

ذلك لم يخطر له قط على خاطر ولا مرَّ له ببال، وأن عكس ذلك هو الذى كان به ذا اغتباط وبفعله ذا اهتبال، وإن نسب لذلك المعنى فهو عليه أثقل من الجبال، وأشد على قلبه من وقع النبال؛ هذا وعقده التوحيد، وصلاته التحميد؛ وملته الغراء، وشريعته البيضاء؛ ودينه الحنيف القويم، ونبيه الرؤوف الرحيم، وكتابه القرآن الحكيم، ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم؛ فكيف نعتقد هذه المزية الكبرى، والمنقبة الشهري؛ لمن عقده التثليث، ودينه المثلث؛ ومعبوده الصليب، وتسميته التصليب؛ وملته المنسوخة، وقضيته المنسوخة؛ وختانه التغطيس، وغافر ذنبه القسيس؛ وربّه عيسى المسيح، ونظره ليس البين ولا الصحيح، وإن ذلك الرب قد ضُرج بالدماء، وسقى الخل عوض الماء؛ وأن اليهود قد قتلته مصلوبا، وأدركته مطلوبا، وقهرته مغلوباً؛ وأنه جزع من الموت وخاف، إلى سوى ذلك مما يناسب هذه الأقاويل السخاف؛ فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة من الخير مثقال الذرة، أو يطمع منهم فى جلب المنفعة أو دفع المضرة؛ اللهم احفظ علينا العقل والدين، واسلك بنا سبيل المهتدين» انتهى.

ومنه أيضاً ما نصه:

«كانت خزانة^(١) هذه الدار النصرية، مشتملة على كل نفيسة من الياقوت، وبتيمة من الجوهر، وفريدة من الزمرد، وثمانية من الفيروزج، وعلى كل واق من الدروع، وحام من العُدة، وماض من الأسلحة، وفاخر من الآلة، ونادر من الأمتعة، فمن عقود فذة، وسلوك جمّة، وأقراط تُفضل

(١) من هنا إلى قوله: «وتقصر ديار الملوك المؤثلة النعمة عن بعضه فضلاً عن كله» أورده

المقرئ بنصه فى التفح ج٤، ص ٥٣ - ٥٥.

على قرطى مارية، نفاسة فائقة وحسنا رائقا، ومن سيوف شواذ فى الإبداع،
غرائب فى الإعجاب، منسوبات الصفائح فى الطبع، خالصة الحلى من التبر؛
ومن دروع مقدرة السرد، متلاحمة النسيج، واقية للبأس فى يوم الحرب،
مشهورة النسبة إلى داود نبى الله؛ ومن جواشن سابغة اللبسة، ذهبية الحلية،
هندية الضرب، دياجية الثوب؛ ومن بيضات عسجدية الطوق، جوهريّة
التنزيد، زبرجدية التقسيم، ياقوتية المركز؛ ومن مناطق لجينية الصوغ،
عريضة الشكل، مزججة الصفح؛ ومن درق لمطية، مصمتة المسام، لينة المجسة
معروفة المنعة، صافية الأديم؛ ومن قسيّ ناصعة الصبغة، هلالية الخلقة،
منعطفة الجوانب، زارية بالحواجب، إلى آلات فاخرة، من أتوار نحاسية،
ومناور بلورية، وطياfir دمشقية، وسبحات زجاجية، وصحاف صينية،
وأكواب عراقية، وأقداح طباشيريه، وسوى ذلك مما لا يحيط به الوصف،
ولا يستوفيه العد؛ وكل ذلك ألهمه شواظ الفتنة، والتقمه تيار الخلاف
والفرقة؛ فرزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله، وتقصر ديار الملوك
المؤثلة النعمة عن بعضه فضلا عن كله». انتهى.

وسنذكر من كلامه رحمه الله بعد هذا، زيادة على ما جلبناه الآن، والله
المستعان.

وكانت غرناطة منتهى الآمال، ووُسْطَى قلادة الأُمصار، ولم تزل
محاسنها مجلوة على منصة الدهور والأعصار. وقد استولى وصفها لسان
الدين الوزير أبو عبد الله بن الخطيب فى كتاب الإحاطة، ويرحم الله القائل:

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراق؟
ما هى إلاّ العروس تجلى والأرض من جملة الصداق

قال الفقيه الأديب أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن الحداد الشهير بالوادى آشى، نزيل تلمسان:

كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال، الفائقة الكمال، من الإحاطة، فى تاريخ غرناطة، المحبسة على المدرسة اليوسفية، من الحضرة العلية، بخط قاضى الجماعة، ومنفذ الأحكام الشرعية المطاعة، صدر البلغاء، وعلم العلماء، ووحيد الكبراء، وأصيل الحسباء، الوزير المعظم أبى يحيى بن عاصم، رحمه الله، ما نصه:

«الحمد لله، الاستدلال بالأثر على المؤثر مما سلمه الإعلام، وشهدت به العقول الراجحة والأحلام، وهو الحجة المعتمدة حين تتفاضل الأبواب، وتتقاصر الأفهام، وبه الاستمسك إن طرقت الشكوك، أو عرضت الأوهام. وحسبك بما يسلم فى هذا المقام المتعالى من الأدلة، وما يعتمد فى هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلة؛ فحقيق أن يتلقى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالقبول، ويستقبل المهتدى لاستنباطه لما فيه من التبادر إلى الأفهام والتسابق للعقول؛ وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلة سالك على سواء سبيل، ومنتمٍ من صحة النظر إلى أكرم قبيل، فلا خفاء أن كتاب «الإحاطة» للشيخ الرئيس ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الخطيب رحمه الله، من أثر هذه الدولة النصرية - أدامها الله - بكل اعتبار، ومآثرها التى هى عبرة لأولى الأبواب، وذكرى لأولى الأبصار.

أما الأول فلأن الأنباء التى أظهرت صحتها، وأوضحت حجتها، وشرّفت مقصدها، وكرّمت مصعدها، إنّما هى مناقب ملوكها الكرام، ومكارم خلفائها الأعلام، وأخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور

حملة السيوف والأقلام؛ وأفذاذ حفظة الدين والدنيا، والشرف والعليا،
والملك والإسلام؛ أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك، وينظم نظم الجمان
فى ذلك السلك، من حصانة قلعتها، وأصالة منعتها؛ وقديم اختطاطها،
وكريم جهادها ورباطها؛ وحسن ترتيبها ووضعها، وما اشتمل عليه من
مقاصد الأنس أهل ربعاها؛ وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل،
ومما يرجع إلى شرف الحضرة، ممن انتابها من أهل الفضل الواضح والمجد
الأثيل.

وأما ثانياً فإنَّ راسم آياتها المتلوه، ومبدع محاسنها المجلوه، وناقل
صورتها من الفعل إلى القوة، إنَّما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصرية
الكريمة، ونشأة من نشآت جودها الشامل النعمة، الهامل الديمة، فما ظهر
عليه من كمالات الأوصاف، على الإنصاف، فأخلاف هذه المكارم النصرية
أرضعته، وعنايتها الجميلة أسمته، فوق الكواكب ورفعته؛ وإليها ينسب
إحسانه إن انتسب، ومن كريم تشريفها اكتسب، من الفضل الظاهر ما
اكتسب. والحضرة هى منشؤه الذى عظم فيه قدره، بل أفضقه الذى أشرق فيه
بدره؛ والتشريفات السلطانية هى التى فتقت اللهى باللهى، وأحلت من مراقى
العز فوق السها؛ وأمكنت الأيدى من الذخائر والأعلاق، وطوقت المن
كالقلائد فى الأعناق؛ وقلدت الرياسة والأقلام أقلام، وثنت الوزارة والأعلام
أعلام؛ فبهرت أنواع المحاسن، وورد معين البلاغة غير المطروق ولا الآسن؛
وبرعت التواليف، فى الفنون المتعددة، واشتهرت التصانيف، ومنها هذا
التصنيف المشار إليه، لما له من الأذمة المتأكدة. وإذا ظهر هذا الاستدلال،
وأوضح البيان ما كتبه الإجمال، فلنفضح الآن بما قصد، ولنحقق من أنجم
السعادة ما رصد، وذلك أن لمولاي أمير المؤمنين، المجاهد فى سبيل رب

العالمين، الغالب بالله، المؤيد بنصره أبى عبد الله، محمد ابن الخلفاء النصريين - أيده الله ونصره، وسنى له الفتح المبين ويسره - مآثر لم يسبق إليها، ومكارم لم يجز أحد ممن وسم بالكرم عليها، لجلالة قدرها، وضخامة أمرها؛ من ذلك هذا القصد الذى آثر لها كالكتاب المذكور وسواه، مما هو واحد وفذ فى معناه؛ عقد فى جميعها التحسيس على أهل العلم والطلبة بحضرته العلية هنالك، ليشمل به الإمتاع، ويعم به الانتفاع؛ والله ينفع بهذا القصد الكريم، ويتولى المثوبة على هذا العقد الجسيم.

وهذه النسخة فى اثنى عشر سفرًا، متفقة الخط والعمل، اكتب هذا على ظهر الأول منها بتاريخ رجب الفرد، عام تسعة وعشرين وثمان مئة، عرف الله بركته بمنة، آمين». انتهى.

وقال الوزير أبو يحيى بن عاصم المذكور، قدس الله روحه الطيبة، وسقى مثواه غيث رحمته الصيبة، فى كتابه المسمى بـ «الروض الأريض، فى ترجمة شمس العصر، من ملوك بنى نصر»، فى اسم الغنى بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجى، بعد كلام ما نصه:

«كان قد جرى عليه التمهيص الذى أزعجه عن وطنه، إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بنى مرين، فأفادته الحنكة والتجربة هذه السيرة التى وقف شيوخوا على حقيقتها، وانتهجوا واضح طريقتهما، وبلغتنا منقولة باللسنة صدقهم، معبرًا عنها فى عرف التخاطب بالعادة، فلم يكن الوزير الكيس، والرئيس الجهبذ يجريان من الاستقامة على قانون، ولا يطردان من الصواب على أسلوب، إلا بالمحافظة على ما رسم من القواعد، والمطابقة لما ثبت من العوائد؛ وكان ذوو النبل من هذه الطبقة، وأولو الخدق من أرباب هذه المهن

السياسية، يتعجبون من صحة اختياره لما رسم، وجوده تمييزه لما قعد، ويرون
المفسدة بالخروج عنها ضربة لازب، وأن الاستمرار على مراسمها أكد واجب؛
فيتحرونها بالالتزام كما تتحرى السنن، ويتوخونها بالإقامة كما تتوخى
الفرائض، وسواء تبادر لهم معناها ففهموه، أو خفى عليهم وجه رسمها
فجهلوه، حدثنى شيخنا القاضى أبو العباس أحمد بن أبى القاسم الحسنى:

أنَّ الرئيس أبا عبد الله بن زمرك دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبى
عبد الله بن الخطيب يستأذنه فى جملة مسائل، مما يتوقف عادة على إذن
الوزير، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبى عبد الله. قال
الشريف: فأَمْضَاهَا كُلُّهَا لَهُ، ما عدا واحدة منها تضمنت نقص عادة مستمرة،
فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب: لا والله يا رئيس أبا عبد الله، لا آذن لك
فى هذا، لأنَّنا ما استقمنا فى هذه الديار إلَّا بحفظ العوائد.

ثم قال صاحب الروض:

فلما تأذَّن الله تعالى للدولة بالاضطراب، واستحكم الوهن بتمكن
الأسباب؛ عدل عن هذه القواعد الراسخة، واستخف بتلك القوانين الثابتة؛
فنشأ من المفاصد ما أعوز رفعه، وتعدد وتره وشفعه، واستحكم ضرره حتى
لم يمكن دفعه، وتعذر فيه الدواء الذى يُرْجى نفعه؛ وكان قد صحبه من الجد
ما سنَّى آماله، وأنجح - بإذن الله - أقواله وأعماله؛ فكان يُجْرَى الأمر على
رسم من السياسة واضح، ونظر من الآراء السديدة راجح؛ ثم يحفه من الجد
السياج لا يفارقه، إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله، وتمكن مقتضى الإرادة
السلطانية من فروعه وأصوله.

انتهى كلام ابن عاصم، وإنَّما أتيت به لغرابته.

وقال أبو عبيد البكرى رحمه الله :

«الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين».

قال ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب :

خص الله بلاد الأندلس من الرِّيع، وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وايضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدن والاعتماد، بما حرمه الكثير من الأقطار، مما سواها^(١).

ثم قال: وحديث الفتح، وما فتح الله على الإسلام من المنح، وأخبار ما أفاء الله من خير، على موسى بن نصير، وكتب من جهاد، لطارق بن زياد، مملول قصاص وأوراق، وحديث أفول وإشراق، وإرعاد وإبراق؛ وعظم امتشاش، وآلة معلقة في دكان قشاش. انتهى.

ولا خفاء بما كان للملوك المسلمين بالأندلس والعداوة على النصارى - دمرهم الله - من الاستطالة والغلبة، حتى وقع التخاذل والتدابير، فانعكس الأمر. وقد حكى غير واحد أن دُنْ جانجه بن دُنْ ألفنش، استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى، ولأذ به، ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى، ولقيه بصخرة عباد، من أحواز رُنْده، فسلم عليه، ويقال إنَّ أمير المسلمين لما فرغ من ذلك، طلب بلسان زناتة الماء، ليغسل يده به من قُبلة ألفنش، أو مصافحته.

(١) أورده المؤلف فى نفح الطيب ج ١ ص ١٢٦.

ابن الخطيب:

«والشيء يذكر بالشيء، فأثبت حكاية اتفقت لى بسبب ذلك، أَسْتَدْعَى بها الدعاء ممن يحسن عنده موقعها، وهى أَنَّ اليهودى الحكيم ابن زرزار، على عهد ملك النصارى، حفيد هذا ألفنش المذكور، وصل إلينا بغرناطة فى بعض حوائجه، ودخل إلى بدار سكتناى، مجاوراً لقصر السلطان بحمراء غرناطة، وعندى القاضى اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة، وبيده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبى عبد الرحمن بن السلطان الكبير المولى أبى الحسن، وكان محمد هذا قد فر إلى صاحب قشتالة، واستدعى من قبله إلى الملك، فسهل له ذلك، وشرط عليه ما شاء؛ وربما وصله خطابه بما لم يقنعه فى إطرائه، فقال لى: مولاي السلطان دُنْ بطرة يسلم عليك، ويقول لك: انظر مخاطبة هذا الشخص، وكان بالأمس كلباً من كلاب بابه، حتى ترى خسارة الكرامة فيه. فأخذت الكتاب من يده، وقرأته وقلت له: أبلغه عنى أن هذا الكلام ما جرَّك إليه إلَّا خُلُو بابك من الشيوخ، الذين يُعرِّفونك بالكلاب وبالأسود، وبمن تغسل الأيدي منهم إذا قبلوها، فتعلم من الكلب الذى تُغسل اليد منه، ومن لا، وأنَّ جد هذا الولد هو الذى قَبَّلَ جدُّك يده، واستدعى الماء لغسل يديه منه بمحضر النصارى والمسلمين؛ ونسبة الجد إلى الجد كنسبة الحفيد إلى الحفيد؛ وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه، وأنت معرض إلى اللجأ إليه، فيكافئك بأضعاف ما عاملته به. فقام ابن الحسن المستقصى يبكى، ويقبل يدى، ويصفنى بولى الله، وكذلك من حضرنى. وتوجه إلى المغرب رسولا، فقص على بنى مرين خبر ما شاهد منى وسمعه؛ وبالحضرة اليوم ممن تلقى منه ذلك كثير، جعل الله ذلك خالصاً لوجهه». انتهى.

ولما تقلص ظل الإسلام بالجزيرة، أعادها الله للإسلام، واسترد الكفار، دمرهم الله، أكثر أمصارها وقراها، على وجه العنوة والصلح والاستسلام، لم يزل العلماء والكتاب والوزراء يحركون حميات ذوى البصائر والأبصار، ويستنهضون عزماتهم من كل الأمصار.

فمن ذلك ما كتب به الكاتب الرئيس أبو عبد الله بن زمرك رحمه الله لما نزل المسلمون بآخر مرج غرناطة، متوجهين لفج خير:

«اعلموا أنا نذكر لكم ما لا يغيب عن أديانكم وأحسابكم؛ إنَّ هذا الجهاد وليمة دعا الله عباده إليها، وحضهم عليها؛ فالآيات فى المصاحف مسطورة، والأحاديث مشهورة، لبيع النفوس فيها من الرحمن، وبذل المهج رغبة فى حصول ثواب الملك الديان، ينزل الله فيها الملائكة المسمومين. وتفرح الحور العين، وتسح الرحمة من رب العالمين، ويباهى الله ملائكته بالمجاهدين؛ وقد تضافرت على ذلك النصوص، وكفى شرفا الفوز بمحبة الله فى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَّانَ مَرْصُوصًا﴾ [الصف]؛ فينبغى فيه الاستغفار من سالف الذنوب، وتطهير السرائر والقلوب، واجتماع الأيدى والكلمة فى مرضات علام الغيوب».

وأبلغ منه ما كتب به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب فى الحث على الجهاد، والترغيب فيه، وهو:

«أيها الناس، رحمكم الله، إخوانكم المسلمون قد دهم العدو - قصمه الله - ساحتهم، ورام الكفر - قبحه الله - استباحتهم؛ وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم، ومد الصليب ذراعيه إليهم؛ وأيديكم بعزة الله أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى؛ وهو دينكم فانصروه، وجواركم القريب فلا

تُخَفِّرُوهُ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه. الجهاد الجهاد، فقد تعين؛ الجار الجار، فقد قرر الشرع حقه وبين؛ الله الله في الإسلام، الله الله في أمة محمد عليه السلام؛ الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه؛ أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة، أعانكم الله عند الشدائد، جددوا عوائد الخير، يصل الله لكم جميل العوائد؛ صلوا رحم الكلمة، وآسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة؛ كتاب الله بين أيديكم، وألسنة الآيات تنادىكم، وسنة رسول الله ﷺ قائمة فيكم، والله يقول فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ..﴾ [الصف]. ومما صح عنه قوله: «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرما الله على النار». «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم». «ومن جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا». أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت؛ احفظوا وجوهكم مع الله يوم يسألكم عن عبادته، جاهدوا في الله بالألسن والأموال حق جهاده:

ماذا يكون جوابكم لنبيكم وطريق هذا العذر غير ممهد
 إن قال لم فرطتم في أمتي وتركتوهم للعدو المعتدى
 تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد
 اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحريم الضعيف والأولاد؛ اللهم انصرنا على أعدائك بأحبائك وأوليائك يا خير الناصرين، اللهم أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. صلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما». انتهى.

واستمر الأمر بالجزيرة على هذه الحالة مدة، والمسلمون لا يزدادون إلا ضعفاً والعدو تكالفاً وشدة؛ حتى استولى على الجزيرة بأسرها، وشرح ذلك يطول. وكان استيلاؤه على حمراء غرناطة، ودخول جيشه لها ثانی ربيع النبوی، من عام سبعة وثمان مئة. هكذا رأیته فی تألیف لبعض المتأخرین، ضَمَنَه القضية، وألفه بسببها؛ على أنى رأیت بخط الفقيه أبى عبد الله الوادى آشى ما يخالف ذلك، وهو أنه أورد رسالة لابن الخطيب يخاطب بها السلطان أبا سالم المرينى نص محل الحاجة منها:

«ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم، أو أعرضتم عن ذلك الوطن، استولت عليه يد عدوه». انتهى.

فكتب بطرته أبو عبد الله الوادى آشى المذكور ما نصه:

«كذلك وقع آخر الأمر. وكان الاستيلاء على غرناطة آخر ما بقى من بلاد الأندلس للإسلام فى محرم عام سبعة وتسعين وثمان مئة، فرحم الله ابن الخطيب، العاقل اللبيب، وغفر له برحمته». انتهى كلام الوادى آشى.

على أنه يظهر فى كلام بعضهم أن الصلح كان فى محرم، ودخول الجيش القصبة الحمراء كان فى ربيع فلا منافاة، والله أعلم.

ورأيت بخط الإمام الونشريشى سيدى عبد الواحد رحمه الله ما نصه:

«استولى العدو على جبل الفتح سنة ستّ وستين وثمان مئة، وعلى الحمة تاسع المحرم يوم الخميس عام سبعة وثمانين وثمان مئة؛ وفى عام خمسة وتسعين وثمان مئة استولى العدو على جميع بلاد الأندلس ما عدا غرناطة وبشرتها، وكان قبله فى عام اثنين وتسعين استولى على مالقة فى رمضان منه، وفى عام سبعة وتسعين استولى على غرناطة». انتهى.

ولما دخل النصارى إلى الحمراء خرج أميرها أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن علىّ النصرى، واشترط المسلمون على العدو الكافر شروطاً أظهر قبولها، وبسط لهم جناح العدل، حتى بلغت بزعمهم نفوسهم مأمولها؛ وكان من جملتها أن من شاء البقاء عنده أقام فى ظل الأمان مكرماً، ومن أراد الخروج إلى بر العدو أنزل بأى بلاد شاء منها، من غير أن يعطى كراء ولا مغرماً؛ وأظهر للمسلمين العناية والاحترام، حتى كان النصارى يحسدونهم فى ذلك، ويقولون لهم: أنتم عند ملكنا أعز وأكرم منا؛ ووضع عنهم المغارم، حيلة منه وكيدا، ليغرمهم بذلك، ويثبطهم على الجواز. فوقع الطمع لكثير من الناس، وظنوا أن ذلك البرق ليس بخلب، فاشترى كثير من المقيمين الرباع العظيمة، ممن أراد الذهاب للعدوة، بأرخص الأثمان، وأمر - لعنه الله - بانتقال سلطان غرناطة أبى عبد الله إلى قرية أندرش، من قرى البشارة، فارتحل أبو عبد الله بعياله وحشمه، وأقام بها ينتظر ما يؤمر به، ثم ظهر للطاغية أن يجيزه إلى العدو، فأمره بالجواز، وأعد له المراكب العظيمة، وركب معه كثير من المسلمين، ممن أراد الجواز، حتى نزلوا بمليلة من ريف المغرب، ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس - حرسها الله - وما زال أعقبه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السؤال، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز المذل، المانح المانع، لا إله إلا هو.

وكان خلع أبيه أبى الحسن يوم الأحد ثالث جمادى الأخرى من عام تسعين وثمان مئة، خلعه أخوه، ودخل أبو عبد الله المذكور، ابن أبى الحسن، ربض البيازين سادس عشر شوال عام واحد وتسعين، وافتك ملك أبيه من يد عمه، وتوفى رحمه الله بفاس عام أربعة وعشرين، وتسع مئة، ودفن بإزاء

المصلى، خارج باب الشريعة، وخلف ولدين، اسم أحدهما يوسف، والآخر محمد، وعقبه الآن بها كما ذكرناه، والله وارث الأرض ومن عليها، والله خير الوارثين.

وكان من قدر الله تعالى أنهم لما وصلوا مدينة فاس أصاب الناس بها شدة عظيمة، من الجوع والغلاء والطاعون، حتى فر كثير منها بسبب ذلك، ورجع بعض أهل الأندلس إلى بلادهم، فأخبروا بتلك الشدة، فتقاعس من أراد الجواز، وعزموا على الإقامة والدجن، ولم يُجزِ النصارى أحد بعد ذلك إلا بالكراء والمغرم وعشر المال، فلما رأى الطاغية أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام فى الوطن، أخذ فى نقض الشروط التى اشترط عليه المسلمون أول مرة، ولم يزل ينقضها فصلا فصلا، إلى أن نقض جميعها، وزالت حرمة المسلمين، وأدركهم الهوان والذلة، واستطال عليهم النصارى، وفُرضت عليهم المغارم الثقيلة، وقُطع عنهم الأذان فى الصوامع، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض والقرى، فخرجوا أذلة صاغرين، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر، وأكرههم عليه، وذلك سنة أربع وتسع مئة، فدخلوا فيه كرها، وصارت الأندلس كلها دار كفر، ولم يبق من يجهر بكلمة التوحيد والأذان، وجعلت فى المساجد والمآذن النواقيس والصلبان، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فإننا لله وإنا إليه راجعون، لا راد لما قضاه الله الملك الديان.

وقد رأيت لبعضهم رسالة ببعض شرح ذلك، ونصها:

«وتعرفنا من غير ما طريق، وعلى لسان غير فريق، أن قطر الأندلس - نظر الله إليه، وعاد بنوره عليه - طرق أهله خطب لم يجز فى سالف الدهر،

وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضى فى الظاهر الكفر، ولم يقبل منهم الأسر؛ وكان الابتداء فى ذلك من أهل غرناطة - جدد الله رسمها، وأعاد إلى بلاد المسلمين اسمها - وخصوصا أهل واسطتها، لقلّة الناس، وكونهم من الرعية الدهماء، مع عدم العصية، بسبب اختلاف الأجناس؛ علم النصارى - دمرهم الله - بأن من بقى بها من المسلمين إنما هم أسارى فى أيديهم، وعيال عليهم؛ وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل، وعتوا فيهم بالخروج والجلاء، فلم يبق من المسلمين طائل؛ ونقض اللعين طاغية النصارى عهوده، ونشر بمحض الغدر بنوده؛ من غير معذرة لفقها، ولا كذبة من معرض العذر ثمقها، إلاّ أعجازا من الكفر، وصدورا من الغيظ والمكر، وخالص الغدر، جمعها وفرقها؛ وكان الطاغية إذا ذاك بإشبيلية - جبرها الله، وجعل بها قبره، ووقى المسلمين والإسلام شره - وبعد أن كان قبل قد انسل إلى غرناطة انسلال القطا إلى الماء، وطلع إليها طلوع الرقيب على خلوات الأحباء؛ وأمر بإخلاء الأرباض، وأذن بالسفر فى البحر للأبعاض، ولم يحضر من الأجفان^(١) إلاّ القليل، وما كان قصده إلاّ التفريق والتهويل؛ على ما عهد من غدر النصارى وطغيانهم، وفعلهم الذميم مع المسلمين وثورانهم؛ والإعلان بمحتتهم؛ والحرص على ارتدادهم وفتنتهم؛ وأقام بعد انصرافه عنها، وخروجه منها، بإشبيلية مديدة، وعقاربه لأشباعه من النصارى بغرناطة تدب وتسرى، ونفسه الخبيث بالعباب تفرى؛ ثم انتقل عن الوسطة للبيازين، حيث الحمية، والنصرة الإيمانية، ومع السراجة والنحية، والعقل الرصين، والدين المتين؛ فجعل صعبها ذلولا، وأعاد للكفر

(١) الأجفان: بمعنى السفن.

كرها من كان بحضرتها، وتمتع أحزاب الشيطان - قصمهم الله - بنصرتها،
نسأل الله تعالى أن يجعل تمتعهم قليلا».

وزيادة الخبر:

«أن طاغية قشتالة وأرغون - قصمه الله - صدم غرناطة صدمه، وأكره
على الكفر من بقى بها من الأمة؛ بعد أن هيض جناحهم، وركدت رياحهم؛
وجعل بعدُ جنده الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال، والطاغية يزدهى
فى الكفر ويختال؛ ودين الإسلام تنثر بالأندلس نجومه، وتطمس معالمه
ورسومه؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه، لكان كل
مسلم يندبه ويبيكه؛ فقد عبث البلاء برسومه، وعفى على أقماره ونجومه؛
ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام، وتوعد بالنكال والمهالك العظام؛
ومن كان يعذب فى الله بأنواع العذاب، ويدخل به من الشدة فى باب ويخرج
من باب؛ لأنساكم مصرعه، وساءكم مفظعه؛ وسيوف النصارى إذ ذاك على
رءوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلولة، وأفواه الزاهلين محلولة؛ وهم
يقولون: ليس لأحد بالتنصر أن يمتل، ولا يلبث حينا ولا يُمهل؛ وهم
يكابدون تلك الأهوال، ويطلبون لطف الله فى كل حال». انتهى.

وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تلمسان، منهم القاضى
الشهير أبو عبد الله بن الأزرق، صاحب الشرح العجيب على مختصر خليل،
وكتاب السياسة الملخص من مقدمة تاريخ ابن خلدون، وفيه زيادات بديعات،
وكتاب روضة الإعلام، بمنزلة العربية من علوم الإسلام، وغير ذلك، وارتحل
من تلمسان إلى المشرق، وسئلُ بذكره. ومنهم بنو داود المذكورون فى فهرسة
الشيخ ابن غازى، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غرناطة؛ ولكن لما

رأوا استطالة العدو عليها، وأنه آخذها لا محالة، قوضوا رحالهم عنها، فنزلوا بتلمسان المحروسة، وأُخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقريب، رحمهم الله. ومنهم الفقيه الأديب، حائز قصب السبق فى كثرة النسخ والكتابة، أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادى آشى، وسنذكره إن شاء الله، رحم الله الجميع. وعمن خرج بفاس من العلماء، أبو العباس البقنى ثم رجع إلى غرناطة، وقضيته معروفة.

ولا بأس أن نورد كتاب السلطان أبى عبد الله محمد بن الأحمر المخلوع المذكور، الذى بعث به لصاحب فاس فى ذلك العهد، تمهيدا لعذره، وتوطئة لمقصده؛ وتطارحا على تلك الأبواب وتملقا، وتمسكا بذلك الجنب وتعلقا؛ وهو فى الغاية من الفصاحة والبلاغة، من إنشاء الفقيه الأديب، الشاعر الناظم، الناثر الكاتب، المجيد البارع البليغ، أبى عبد الله محمد بن عبد الله العربى العقيلى رحمه الله، وسماه بالروض العاطر الأنفاس، فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس؛ ونصه بعد الافتتاح:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم	رعى لما مثله يرعى من الذمم ^(١)
بك استجار ونعم الجار أنت لمن	جار الزمان عليه جور متقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا	وأفزع الخطب ما يأتى على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له	وهل مرد لحكم منه منحتم
وهى الليالى وراك الله صولتها	تصول حتى على الآساد فى الأجم
كنا ملوكا لنا فى أرضنا دول	نمنا بها تحت أفنان من النعم

(١) الأبيات لدى المقرئ فى النسخ ج ٤، ص ٥٢٩.

فأيقظتنا سهام للردى صُيبٌ
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا
يبكى عليه الذى قد كان يعرفه
كذلك الدهر لم يبرح كما زعموا
وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت
وأبسط لنا الخلق المرجو بأسطه
لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم
فما أطلقنا دفاعا للقضاء وما
ولا ركوبا بإزعاج لسابحة
والمرء ما لم يعنه الله أضيع من
وكل ما كان غير الله يحرسه
كن كالسموئل إذ سار الهمام له
فلم يبح أدرع الكندى وهو يرى
أو كالمعلّى مع الضليل الأروع إذ
وصار يشكره شكرا يكافئ ما
ولا تعاتب على أشياء قد قدرت

يرمى بأفجع حتف من بهن رمى
وأى ملك بظل الملك لم ينم
بأدمع مزجت أمواهها بدم
يشم بو الصغار الأنف ذا الشمم
فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم^(١)
أرادت انفسنا ما حل من نقم
فى زاخر بأكف الموج ملتطم
طفل تشكّى بفقد الأم فى اليتم
فإن محروسه لحم على وضم
فى جحفل كسواد الليل مرتكم
أن ابنه البر قد أشفى على الرجم
أجاره من أعاريب ومن عجم
أسدى إليه من الآلام والنعم
وخط مسطورها فى اللوح بالقلم

(١) هذا البيت من قول كعب بن زهير فى قصيدته: بانث سعاد:

لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت فى الأقاويل

وعد عما مضى إذ لا ارتجاع له
 إليه حنانيك يا بن الأكرمين على
 فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت
 رحماك يا راحما ينمى إلى رُحماً
 فكم مواقف صدق في الجهاد لنا
 والسيف يخضب بالمُحَمَّر من علق
 ولا ترى صدر غضب غير متقصف
 حتى دهينا بدهيا لا اقتدار بها
 فقال من لم يشاهدها فَرَبَّتَمَا
 هيهات لو زبنته الحرب كان بها
 تالله ما أضمرت غشا ضمائرنا
 لكن طلبنا من الأمر الذي طلبت
 فخاننا عنده الجد الخئون ومن
 فاسود ما اخضر من عيش دهرته عداً
 وشتت اليبين شملاً كان منتظماً
 فرب مبنى شديد قد أناخ به
 قمنا لديه أصيلاً نساؤه
 وما ظننا بأن نبقي إلى زمن

وعد أحرارنا في جملة الخدم
 ضيف ألم بفاس غير محتشم
 بنا إليها خطا الوخادة الرسم
 في النفس والأهل والأتباع والحشم
 والخيل عالكة الأشداق للجم
 ما ابيض من سَبَل واسود من لم
 ولا ترى متن لدن غير منحطم
 سوى على الصون للأطفال والحرم
 يخال جامحها يقتاد بالخطم
 أعياء من يد جالت على زلم
 ولا طوت صحة منها على سقم
 ولاتنا قبلنا في الأعصر الدهم
 تقعد به نكبات الدهر لم يقم
 بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخدم
 والبين أقطع للموصول من جلم
 ركب البلا فقرته أدمع الديم
 أعياء جواباً وما بالربع من أرم
 نرى به غرر الأحباب كالحمم

لكن رضا بالقضا الجارى وإن طويت
 لبيك يا من دعانا نحو حضرته
 وأعط الأمن الذى رُصَّت قواعده
 خليفة الله وافاك العبيد فكن
 وبين أسلافنا ما قد علمت به
 وأنت منهم كأصل مطلع غصنا
 وقد خطوت خطاهم فى مآثرهم
 وصيت مولى الورى الشيخ الإمام غدا
 سلالة الأمراء الجلة الكبرا
 بنو مرين ليوث فى عرين أبوا
 النازلين من البيضاء وسط حمى
 والجائسين بدُّهم الخيل كل ذررى
 يريك فارسهم إن هز عامله
 ليثا على أجدل عار من اجنحة
 فى اللام يدغم من عسالة ألفا
 أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم
 بأس تطير شرار منه محرقة
 هم بطائفة التثليث قد فتكوا
 منا الضلوع على برج من الألم
 دعاء إبراهيم الحجاج للحرم
 على أساس وفاء غير منهمد
 فى كل فضل وطول عند ظنهم
 من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم
 أو كالشراك الذى قد قُدَّ من آدم
 فلم يذموا إذن فيها ولم تدم
 فى الناس أشهر من نار على علم
 العلية الظهراء، القادة البهم
 رؤيا قرين لهم فى البأس والكرم
 أحمى من الأبلق السامى ومن إرم
 والداعسين بسمر الخط كل كمى
 فى مأزق بلظى الهيجاء مضطرم
 يسطو بأرقم لداغ بغير فم
 ولم نجد ألفا أصلا بمدغم
 من عصمة الله ما يربى على العصم
 لكل مدرع بالحزم محتزم
 كمثل ما يفتك السرحان بالغنم

وإن يلثمهم يوم الوغى رهج
 تضئ آراؤهم فى كل معضلة
 هذا ولو من حياء ذاب محتشم
 طابت مدائحهم إذ طابت أنفسهم
 لله درهم والسحب باخلة
 بحيث الأفق يرى من لون حمرة
 هناك تنهل أيديهم بصوب حيا
 وإن بيستى زياد طالما ذكرا
 أحلام عاد وأجساد مطهرة
 يرون حقا عليهم حفظ جارهم
 فروعه بالدواهى لا يراع ولا
 هم البحار سماحا غير أن بها
 وليس يسلم من حتف محاربهم
 كم فيهم من أمير أوحد ندس
 ولا كسبط أبى حسون من حسنت
 هذاكم ابن أبى زكرى الهمام فقل
 خليفة الله حقا فى خليقته
 مهما تتر قسمات منه نيرة
 أنسوك ما ذكروه عن ذوى اللثم
 إضاءة السراج فى داج من الظلم
 لذاب منهم حياء كل محتشم
 فاشتقت النسمات اسما من النسم
 بدرهن على الأنعام والنعم
 كالشيب يخضب بالحناء والكتم
 يحيى بالاجداث ما فيها من الرمم
 إذا ألت أحاديث بذكرهم
 من المعقة والآفات والإثم
 فلم يضر نازل فيهم ولم يضم
 يغنم منها بما يعرفون من الغمم
 ما قد أناف على الأطواد من همم
 حتى يكون إليهم ملقى السلم
 يقرطس الغرض المقصود بالفهم
 أمداحه حسن ما فيه من الشيم
 فى أصله المتقى من مجده العمم
 كنائب ناب فى حكم عن الحكم
 تنل بنان له ما جل من نعم

فوجهه بدجى وكفه بجدا
وفضله وله الفضل المبين جرى
وجوده المتوالى للبرية ما
إذا ابتغت نعماً منه العفاة له
وإن يعبس زمان فى وجوههم
وجه تبين سمات المكرمات به
وراحة لم تزل فى كل آونة
لله ما التزمته من نوافله
أنسى الخلاف فى حلم وفى شرف
فجاز معتمدا منهم ومعتضدا
وناصر الدين فى الإقبال فاق وفى
أفعال أعدائه معتلة أبدا
فويل أهل الفلا من حية ذكر
رامو عداوة من إن شاء غادرهم
فسوف يأكلهم من جيشه لجب
وإن الاعراب إذ ساروا لغابته
وهم كما قاله ماض: أرى قدمى
فقل إذن للمناوي النَّاوِ لَأَن أَذَى
أبهى من الزهر أو أندى من الدِّيم
كجرى الأمثال فى الأقطار والأمم
وجوده بينها طرا بمنهدم
لم يسمعوا كلمة منه سوى نعم
لم يبصروا غير وجه منه مبتسم
كما تبين سمات الصدق فى الكلم
فى نيلها راحة الشاكى من العدم
أيام لا فرض مفروض بملتزم
وفى سخاء وفى علم وفى فهم
وامتاز عن قائم منهم ومعتصم
محبة العلم أزرى بابنه الحكم
متى يرم جزمها بالحذف تنجزم
للمتلئب اللهم المجر ملتقم
مثل الأحاديث عن عاد وعن إرم
بكل قرم إلى لحيانهم قرم
لسائرون إلى لقم على لقم
بسعيه نحو حتفى قد أراق دمي
ياغر غرك ما أبصرت فى الحلم

له صوارم لو ناجتك ألسنها
 وإن روحك عن قرب سيقبضه
 فهو الذى ما له ند يشابهه
 يدبر الأمر تدبيرا يخلصه
 ويبصر الغيب لحظ الذهن منه إذا
 وينعم النظر المفضى بناظره
 ذو منطق لم تزل تجلو نتائجه
 ومسمع ليس يصغى للوشاة فلم
 فعقله لا توازيه العقول وهل
 إيه جميع الورى من بدو او حضر
 شدوا وجدوا ولا تعنوا ولا تهنوا
 هذا الأمير المرىنى السعيد له
 قد أقسمت أنه المنصور السنة
 فشيعوه ووالوه تروا عجا
 والحمد لله إذ أبقى خلافته
 حرز حريز وعز قائم وندى
 دامت ودام لها سعد يساعدها
 فالله - عز اسمه - قد زانها بحلى
 لبشرك بعمر منك منصرم
 قبض المسلم ما قد حاز من سلم
 من كل متصف بالدهى متسم
 مما عسى أن يرى فيه من الوهم
 تعمى عن أدراكه ألحاظ كل عم
 لصوب وجه صواب واضح اللقم
 عن مبطل بخصم المبطل الخصم
 ينفق لديه الذى عنهم إليه نى
 يوازن الطود ما قد طال من أكم
 نداء مرتبط بالنصح مرتسم
 قد لفها الليل بالسواقة الحطم
 سعد يؤيده فى كل مصطدم
 من نخبة الأوليا مبرورة القسم
 وتظفروا معه بالأجر والغنم
 كهفا لنا من يخيم فيه لم يرم
 غمر دراك بلا من ولا سأم
 فى كل مبتدئ منه ومختتم
 من غر أمداحه كالدر فى النظم

كالجمر يلمع فى مستوقد الضرم	الواهب الألف بعد الألف من ذهب
والقائل القول فيه حكمة الحكم	والفاعل الفعل لم يهمم به أحد
جودا وحاشاه أن يعزى إلى هرم	ذاكم هو الشيخ فاعجب إنه هرم
من حبله بوثق غير منقصم	وحسبنا أن أيدينا به اعتصمت
ولا مؤالفه يوما بمهتضم	فما مُحالفه يوما بمضطهد
ولا مصافيه فى ود بمتهم	ولا موافيه فى جهد بمطرح
ولا رجاء مرجيه بمنخرم	ولا محيا محيه بمنكسف
ولا تنكره جهرا بمكتم	وما تكرمہ سرا بمنكشف
وليس راضع جدواه بمنفطم	وليس لامح مرآه بمكتئب
محل ممتهن بل دست محترم	ولا مقبل يمناه الكريمة فى
ما ليس ينكر ما فيها من العظم	وما وسيلتنا العظمى إليه سوى
وسيلة ردها أدهى من الرضم	وإنما هى وما أدراك ما هى من
محمد خير خلق الله كلهم	نبينا المصطفى الهادى بخير هدى
إلى طريق الرشاد لأحب أمم	داعى الورى من أولى خيم وأهل قرى
أمن تذكر الجيران بذى سلم	عليه منا صلاة ما ذكرت
دخيل حرمة العلياء فى الحرم	وما تشفع فيها بالشفيع له

﴿... رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢٣﴾﴾
 [الأعراف] (١). ﴿... أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾
 [الأعراف]. ﴿... رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [المتحنة].
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد]. ﴿... نَعَمْ
 الْمَوْلَى وَنَعَمْ النَّصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال].

أما بعد حمد الله (٢) الذى لا يحمد على السراء والضراء سواء؛
 والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، الذى طلع طلوع الفجر بل البدر
 فلاح، يدعوا إلى سبيل كل فلاح، أولى قلوب غافلة، ونفوس سواء؛
 والرضا عن آله وأصحابه، وعترته الأكرمين وأحزابه، الذين تلقوا بالقبول ما
 أورده عليهم من أوامر ونواه، وعزروه ونصروه فى حالى قربه ونواه.

فيا مولانا، الذى أولانا من النعم ما أولانا؛ لا حط الله تعالى لكم من
 العزة رواقا، ولا أذى لدوحة دولتكم أغصانا ولا أوراقا؛ ولا زالت مخضرة
 العود، [مبتسمة] (٣) عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود، ممطرة
 بسحائب البركات المتداركات دون بروق ولا رعود:

هذا مقام العائد بمقامكم، المتعلق بأسباب ذمامكم، المترجى لعواطف
 قلوبكم، وعوارف إنعامكم، المقبل الأرض تحت أقدامكم، المتلجلج اللسان
 عند محاولة مفاتحة كلامكم؛ وماذا الذى يقول من وجهه خجل، وفؤاده
 وجل، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل، بيد أنى أقول لكم ما

(١) المقرئ: نفح الطيب ج ٤، ص ٥٣٥.

(٢) أورد المقرئ هذا النص بطوله فى نفح الطيب ج ٤، ص ٥٣٥.

(٣) ما بين الحاصرتين عن نفح الطيب.

أَقوله لربي، واجترأى عليه أكثر، واجترأى إليه أكبر: اللهم لا برئ فأعذر، ولا قوى فأنصر، لكنى مستقيل مستنيل مستعتب مستغفر؛ ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ...﴾ [يوسف]. هذا على طريق التنزل والاتصاف، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف؛ وأما على جهة التحقيق، فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق: «والله إنى لأعلم أنى إن أقررت بما يقوله الناس، والله يعلم أنى منه بريئة، ولأقولن ما لم يكن، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوننى، فأقول ما قاله أبو يوسف: صبر جميل، والله المستعان على ما تصفون».

على إنى لا أنكر عيوبى، فأنا معدن العيوب، ولا أجحد ذنوبى، فأنا جبل الذنوب؛ إلى الله أشكو عجرى وبجرى، وسقطاتى وغلطاتى. نعم، كل شىء ولا ما يقوله المتقول، المشنع المهول، الناطق بفم الشيطان المسؤل. ومن أمثالهم: «سُبْنَى وَاصْدُقْ». ولا تفتّر ولا تخلق؛ فمثلى كان يفعل أمثالها، ويحمل من الأوزار المضاعفة أحمالها، ويهلك نفسه ويحبط أعمالها؛ عيادًا بالله من خسران الدين، وإيثار الجاحدين والمعتدين، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين. وأيم الله لو علمت شعرة فى فودى تميل إلى تلك الجهة لقلعتها، بل لقطفت ما تحت عمامتى من هامتى وقطعتها؛ غير أن الرعاع فى كل وقت وأوان، للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان، كان أحق وأجهل من ابن ثروان، أو أعقل وأعلم من أشج بنى مروان؛ ورب متهم برى، ومسربل بسربال وهو منه عرى؛ وفى الأحاديث صحيح وسقيم، ومن التراكيب المنطقية منتج وعقيم، ولكن ثم ميزان عقل، تعتبر به أوزان النقل؛ وعلى الراجح الاعتماد، ثم إشاعة الإحماد، المتصل المتباد؛ وللمرجوح الاطراح،

ثم الذم الصراح، بعد النفص من الراح؛ وأكثر ما تسمعه الكذب، وطبع جمهور الخلق إلا من عصمة الله إليه منجذب؛ ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار، ورمينا بما لا يرمى به الكفار، فضلاً عن الفُجَّار؛ وجرى من الأمر المنقول عن لسان زيد وعمرو، ما لكم منه حفظ الجبار؛ وإذا عظم الإنكاء، فعلى تكأة التجلد الاتكاء؛ أكثر المكثرون، وجهد في تعثيرنا المتعثرون؛ ورمونا عن قوس واحدة، ونظمونا في سلك الملاحدة؛ أكُفراً أيضاً كُفراً! غفرًا اللهم غفرًا، أعد نظراً يا عبد قيس، فليس الأمر على ما خيل لك ليس، وهل زدنا على طلبنا حقنا، ممن رام محقه ومحقنا؟ فطاردنا في سبيله عداة كانوا لنا غائطين؛ فانفتق علينا فتق، لم يمكننا له رتق، وما كنا للغيب حافظين.

وبعد، فاسأل أهل الحل والعقد، والتميز والنقد؛ فعند جهيتهم تلقى الخبر يقينا، وقد رضينا بحكمهم يؤثمننا فيوبقنا، أو يبرئنا فيقينا. إيه يا من اشرب إلى ملامنا، وقدح حتى في إسلامنا؛ رويداً رويداً، فقد وجدت قوة وأيداً؛ ويحك، إنما طال لسانك علينا، وامتد بالسوء إلينا؛ لأن الزمن لنا مُصْغِرٌ، ولك مُكْبِرٌ، والأمر عليك مقبل، وعنا مدبر، كما قاله كاتب الحجاج المدبر.

وعلى الجملة، فهبنا صرنا إلى التسليم مقالك جدلاً، وذهبنا فأقرنا بالخطأ في كل وردٍ وصدر، فله در القائل:

إنَّ كنتَ أخطأتُ فما أخطأَ القدر

وكأنا بمعترف إذا وصل إلى هنا، وعدم إنصافه يعلمه الهنا؛ قد ازور متجانفاً، ثم افتر متهانفاً، وجعل يتمثل بقولهم:

«إذا عيروا قالوا مقادير قدرت»

وبقولهم: «المرء يعجز لا محالة»؛ فيعارض الحق بالباطل، والحالي بالعاقل، وينزع بقول القائل: «رُبَّ مسمع هائل، وليس تحته من طائل». وقد فرغنا أول أمس من جوابه، وتركنا الضغن يلصق حرارة الجوى به؛ وسنلم الآن بما يوسع تسكيتنا، ويقطعه تبيكتنا. فنقول له: ناشدناك الله تعالى، هل اتفق لك قطُّ وعَرَضٌ، خروج أمر ما على القصد منك فيه والغرض؛ مع اجتهدك أثناءه في إصدارك وإيرادك، في وقوعه على وفق اقتراحك ومرادك؟ أو جميع ما تزاوله بإدارتك، لا يقع إلا مطابقاً لإرادتك؟ أو كل ما تقصده وتنويه، تحرزه كما تشاء وتحويه؟ فلا بد أن يقر اضطراراً. بأن مطلوبه يشذ عنه مراراً، بل كثيراً ما يفلت صيده من أشراكه، ويطلبه فيعجز عن إدراكه؛ فنقول: ومسألتنا من هذا القبيل: أيها النبيه النبيل؛ ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ماشينا، مما يسايرنا في غرضنا منه ويماشينا، كقوله ﷺ: «كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس». وقوله أيضاً: «لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض على أن ينفعوك بشيء، لم يقض الله لك، لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقض الله عليك، لم يقدروا عليه». أو كما قال ﷺ: فأخلق به أن يلوذ بأكناف الإحجام، يزم على نفثة فيه كأنما أجم بإلجام؛ حينئذ نقول له، والحق قد أبان وجهه وجلاله، وقهره بحجته وعلاه: ليس لك من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله. وفي محاجة آدم موسى ما يقطع لسان الخصم، ويرحض عن أثوب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من درن الوصم؛ وكيفما كانت الحال، وإن أساء الرأى والانتحال، ووقعنا في أوجال وأوحوال؛ فثل عرشنا، وطويت فرشنا، ونكس لواؤنا، وملك مثوانا، فنحن مثل من سوانا؛ وفي الشر خيار، ويد اللطائف تكسر من صولة الأغيار؛ فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفاً، ولا عدمننا أدوات أدعية

تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفًا؛ وإلا فتلك بغداد دار السلام، ومتبوء الإسلام، المحفوف بفرسان السيوف والأقلام؛ مثابة الخلافة العباسية، ومقر العلماء والفضلاء أولى السير الأويسية، والعقول الإياسية؛ وقد نوزلت بالجيوش ونزلت، وزوولت بالزحوف وزلزلت، وتحيف جوانبها الحيف، ودخلها كفار التتار عنوة بالسيف، ولا تسل إذ ذاك عن كيف؛ أيام تجلت عروس المنية، كاشفة عن ساقها مُبديّة، وجرت الدماء فى الشوارع والطرق كالأنهار والأودية، وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم فى رقابهم والأردية؛ وللنجيع سيول، تخوضها الخيول؛ فتخضبها إلى أرساغها، وتهم ظماؤها بوردها، فتتكلم عن تجربها ومساغها؛ فطاح عاصمها ومستعصمها، وراح ولم يغد ظالمها ومتظلمها؛ وخربت مساجدها وديارها، واصطلم بالحسام أشرارها وخيارها؛ فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف، حسبما عرفت أو حسبما تعرف؛ فلا تكن متشككا متوقفا؛ فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قفا؛ فأين تلك الجحافل، والآراء المدارة فى المحافل؛ حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر، ولم تجد ولا قلامة ظفر؛ إذن فمن سلمت له نفسه التى هى رأس ماله، وعياله وأطفاله، واللذان هما من أعظم آماله؛ وكلُّ أو جلُّ أو أقلُّ رياشه، وأسباب معاشه، الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه؛ ثم وجد مع ذلك سبيلا إلى الخلاص، فى حال مياسرة ومساهلة، دون تصعب واعتياص، بعد ما ظن كل الظن أن لا محيد ولا مناص؛ فما أحقه حينئذ وأولاه، أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه؛ على ما أسداه إليه من رفده وخيره، ومعافاته مما ابتلى به كثير من غيره؛ ويرضى بكل إيراد وإصدار، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار، فالدهر غدار، والدنيا دار مشحونه بالأكدار؛ والقضاء لا يرد، ولا يصد؛ ولا

يغالب، ولا يطالب؛ والدائرات تدور، ولا بد من نقص وكمال للبدور؛
والعبد مطيع لا مطاع، وليس يطاع إلا بالمستطاع، وللخالق القدير جلت
قدرته في خليقته علم غيب، للأذهان عن مداه انقطاع؛ ومالى والتكلف لما لا
احتاج إليه من هذا القول، بين يدي ذى الجلالة والمجادة والفضل والطول:
فله من العقل الأرجح، ومن الخلق الأسجح، ما لا تلتايط معه تهمتي
بصفه، ولا تنفق عنده وشاية الواشى، لا عد من نفره، ولا فاز قدحه
بظفره؛ والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب، وتجر براحتها إلى المتاعب؛
وقديماً للأكياس من الناس خدعت، وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا
وقطعت، وفعلت بهم ما فعلت، بيسار الكواعب التى جبيت وجدعت، ولئن
رهصت وهصرت فقد نبهت وبصرت، ولئن قرعت ومعضت، لقد أرشدت
ووعظت؛ ويا ويلنا من تنكرها لنا بمره، ورمينا لنا فى غمرة أى غمره؛ أيام
قلبت لنا ظهر المجن، وغيم أفقها المصحى وأدجن، فسرعان ما عاينا حبالها
مُنْبَتَّةً، ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغته؛ فمن استعاذ من
شئ، فليستعذ مما صرنا إليه، من الحور بعد الكور، والانحطاط من النجد
إلى الغور:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فأف لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف
وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقاً، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقاً؛
ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجنب، والمنفتح حين سُدَّتْ الأبواب، ولم
نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا المُلْك من الأثواب؛ وإلى أمه
يلجأ الطفل لجأ اللهفان، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان. ووجه الله

تعالى يبقى، وكل من عليها فإنَّ، وإلى هنا ينتهى القائل ثم يقول: حسبي هذا وكفان؛ ولا ريب من اشتمال العلم الكريم، على ما تعارفته الملوك بينها فى الحديث والقديم، من الأخذ باليد عند زلة القدم، وقرع الأسنان وعض البنان من الندم، دينا به تدينى حتى مع اختلاف الأديان، وعادة اطردت فيهم على تعاقب الأزمان والأحيان.

ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة، خير فيها وأعطى من أمانه، المؤكد فيه خطه بأيمانه، ما يقنع النفوس ويكفيها. فلم نر، ونحن من سلالة الأحمر، مجاورة الصفرة، ولا سوغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهرانى الكفر؛ ما وجدنا على ذلك مندوحة ولو شاسعة، وأما المطالب المشاغب حمة شر لنا لاسعة؛ وادكرنا أى اذكاء، قول الله تعالى المنكر لذلك غاية الإنكار: ﴿... أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِعَةً...﴾ [النساء]؛ وقول الرسول عليه الصلاة والسلام، المبالغ فى ذلك بأبلغ الكلام: «أنا برئ من مؤمن مع كافر لا تتراى نارهما»؛ وقول الشاعر الحاث على حث المطيه، المتثاقلة عن السير فى طريق منحاتها البطيه:

وما أنا والتلدد نحو نجد وقد غضت تهامة بالرجال
ووصلت [أيضاً]^(١) إلينا، من الشرق كتب كريمة المقاصد لدينا؛
تستدعى الانحياز إلى تلك الجنبات، وتتضمن ما لا مزيد عليه من الرغبات؛
فلم نختر إلا دارنا، التى كانت دار آبائنا من قبلنا، ولم نرتض الانضواء إلا
لمن بحبله ووصل حبلنا، وبريش نبلة ريش نبلنا؛ إدلالاً على محل إحاء
متوارث لا عن كلاله، وامثالاً لوصاة أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالة

(١) ما بين حاصرتين عن نفح الطيب.

وجلاله؛ إذ قد رويناه عن سلف من أسلافنا، في الإيضاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا؛ ألا يتتبعوا إذا دهمهم داهم بالخضرة المرينية بدلا، ولا يجدوا عن طريقها في التوجه إلى فريقها معدلا. فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفجاج، وركبنا إلى البحر الفرات ظهر بحر الأجاج؛ فلا غرو أن نرد منه على ما يقر العين، ويشفى النفس الشاكية من ألم البين، ومن توصل هذا التوصل، وتوصل بمثل ذلك التوصل؛ تطارحا على سدة أمير المؤمنين، المحارب للمحاربين، والمؤمن للمستأمنين؛ فهو الخلق الحقيق، بأن يسوغ أصفى مشاربه، ويبلغ أوفى مآربه؛ على توالى الأيام والشهور والسنين، ويخلص من الثبور إلى الحبور، ويخرج من الظلمات إلى النور خروج الجنين؛ ولعل شعاع سعادته يفيض علينا، ونفحة قبول إقباله تسرى إلينا؛ فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر، لإنشاد قول الشريف الرضى في الخليفة القادر:

عظفا أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافه ميزتك فإننى أنا عاطل منها وأنت مطوق
لا، بل الأحرى بنا والأحجى، والإنجاح لسعينا والأرجى؛ أن نعدل عن هذا المنهاج، ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج، وينشد ما قال في الشيرازي ابن حجاج:

الناس يفتدونك اضطراراً منهم وأفديك باختياري
وبعضهم في جوار بعض وأنت حتى أموت جاري
فعش لخبزى وعش لمائى وعش لدارى وأهل دارى

ونستوهب من المنان الوهاب تعالى وجلت أسماؤه، وتعاضمت نعمائه؛
 رحمة تجعل في يد الهداية أعتتنا، وعصمة تكون في مواقف المخاوف جنتنا؛
 وقبولا يُعْطَف علينا نوافر القلوب، وصنعاً يُسْنَى لنا كل مرغوب ومطلوب؛
 ونسأله، وطالما بلغ السائل سؤالاً ومأمولاً، متاباً صادقاً على موضوع الندم
 محمولاً، ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً، عن أرض أورها من شاء من عباده
 معقبا لهم ومديلاً، وسادلاً عليهم من ستور الإماء الطويلة سدولاً، ﴿سُئِلَ اللَّهُ
 الَّذِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [٢٣] ﴿الفتح﴾. فليطر الطائر
 الوسواس المرفرف مطيراً، كان ذلك في الكتاب مسطوراً، ولم نستطع عن
 مورده صدوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

ألا، وإنَّ لله سبحانه في مقامكم العلى الذى أيدته وأعانه، سرّاً من
 النصر، يترجم عنه لسان من النصل، وترجع فروع البشائر الصادقة،
 بالفتوحات المتلاحقة، من قاعدته المتأصلة إلى أصل، فبمثله يجب اللياذ
 والعياذ؛ ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء. ولأمر ما آثرناه واخترناه، بعد أن
 استرشدنا الله تعالى واستخرناه، ومنه جل جلاله نرغب أن يخير لنا ولجميع
 المسلمين، ويؤوينا من حمايته ووقايته إلى معقل منيع، وجانب [رفيع] (١)،
 آمين، آمين، آمين.

نرجو أن يكون ربنا، الذى هو فى جميع الأمور حسبنا؛ قد خار لنا
 حيث أرشدنا وهدانا، وساقنا توفيقه وحدانا؛ إلى الاستجارة بملك حفى،
 كريم وفى؛ أعز جارا من أبى دُواد، وأحمى أنفا من الحارث بن عباد. يشهد
 بذلك الدانى والقاصى والحاضر والباد، إن أغاث ملهوفاً فما الأسود بن قنان

(١) ما بين حاصرتين عن نفح الطيب.

يذكر، وإنَّ أنْعَش حُشاشة هالك فما كعب بن مامة على فعله وحده يشكر؛
جليسه كجليس القعقاع بن شور، ومذاكره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب
إلى ثور؛ إلى التحلى بأمهات الفضائل، التى أضدادها أمهات الرذائل؛ وهى
الثلاث: الحكمة والعدل والعفة، التى تشملها الثلاث: الأقوال، والأفعال،
والشمائل؛ وينشأ منها ما شئت من عزم وحزم، وعلم وحلم، وتيقظ
وتحفظ، واتقاء وارتقاء، وصول وطول، وسماح ونائل؛ فبنور حلاه المشرق،
يفتخر المغرب على المشرق؛ وبمحنته السامى خطره فى الأخطار، وبيته الذى
ذكره فى النباهة والنجابة قد طار، يباهى جميع ملوك الجهات والأقطار،
وكيف لا وهو الرفيع المُتَمَي والنَّجَّار، الراضع من الطهارة صفو ألبان،
الناشئ من السراوة وسط أحجار، فى ضِيئِ المجد، وبحبوح الكرم،
وسراوة أسرة المملكة التى أكنافها حرم، وذؤابة الشرف التى مجاذبتها لم ترم؛
من معشر أى معشر، بخلو إن وهبوا ما دون أعمارهم، وجبنوا إن لم يحملوا
سوى ذمارهم، بنو مرين، وما أدراك ما بنو مرين:

سم العداة وآفة الجزر

النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزر
لهم من الهفوات انتفاء، وعندهم من السير النبوية أكتفاء؛ وانتسبوا إلى
برِّ بن قيس، فخرجوا فى البر عن القيس؛ ما لهم القديم المعروف، قد نفذ
فى سبيل المعروف، وحديثهم الذى نقلته رجال الزُّحُوف، من طرق القنا
والسيوف، على الحسن من المقاصد موقوف؛ تحمد من صغيرهم وكبيرهم،
ذابلهم ولَدْنَهُم، فلله آباء أنجبوهم، وأمهات ولدنهم:

شم الأنوف من الطراز الأول

إليهم فى الشدائد الاستناد، وعليهم فى الأزمت المعول، ولهم فى
الوفاء والصفاء والاحتفاء، والعناية والحماية والرعاية، الخطو الواسع، والباع
الأطول، كأنما عناهم بقوله جرول:

أولئك قوم إنَّ بنوا أحسنوا البنى وإنَّ عاهدوا وفوا وإنَّ عقدوا شدوا
وإنَّ كانت النعماء فيهم جزوا بها وإنَّ أنعموا لا كدروها ولا كدوا
وتعدلنى أبناء سعد عليهم وما قلت إلا بالتى علمت سعد
وبقوله الوثيق مبناه، البليغ معناه:

قوم إذا عقودا عقداً لجارهم شدوا العِناجَ وشدوا فوقه الكربا
يزيحون عن النزىل كل نازح قاصم، وليس له منهم عائب ولا واصم،
فهم أحق بما قاله فى منقر قيس بن عاصم:

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن
حلاهم هذه الغريزة التى ليست باستكراه ولا جعل، أمير المؤمنين، دام
نصره، قسيمهم فيها حذو النعل بالنعل، ثم هو عليهم وعلى من سواهم
بالأوصاف الملوكية مستعل؛ ارفض مزنيهم منه عن غيث ملثّ يمحو آثار
اللزّيه، وانشق غيلهم منه عن ليث ضار منقبض على برائنه للوثبة، فقل
لسكان الفلا: لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم، فلا يبالى السرحان المواشى،
سواء مشى إليها النقرى أو الجفلى؛ بل يصدمهم صدمة تحطم منهم كل
عرنين، ثم يبتلع بعد أشلائهم المعفرة ابتلاع التنين؛ فهو هو كما عرفوه،
وعهدوه وألفوه؛ أخو المنايا، وابن جلا وطلاع الثنايا، مجتمع أشده؛ قد
احتنكت سنه وبان رشده؛ جاد مجد؛ محتزم بحزام من الحزم، مشمر عن
ساعد الجد:

لا يشرب الماء إلا من قليب دمٍ ولا يبيت له جار على وجل

أسدى القلب آدمى الرواء، لابس جلد النمر لذوى العناد والنواء:

وليس بشاوى عليه دمامة إذا ما سعى يسعى بقوس وأسهم

ولكنه يسعى عليه مفاضة دلاص كأعيان الجراد المنظم

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين، والوحاء الوحاء، لاحقين به

خاضعين؛ قبل أن تساقوا إليه مقرنين فى الأصفاد، ويعيا الفداء بنفائس

النفوس والأموال على الفاد؛ حينئذ يعض ذو الجهل والفداه، على يديه

حسرة ونداه، إذا رأى أبطال الجنود، تحت خوافق الرايات والبنود، قد

لفحتهم نار ليست بذات خمود، وأخذته صاعقة الذين من قبلهم: عاد

وتمود؛ زعقات سبطانات تؤز الكتائب أزاً، وهمزاً محققاً للخيل بعد المد

المشبع للأعنة همزاً، وسلاً للهندية سلاً وهزاً للخطية هزاً، حتى يقول النسر

للذئب: هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً. ثق خليفة الله بذاك،

فى كل من رام أذى رعيته أو أذاك، فتلك عادة الله سبحانه وتعالى فى ذوى

الشقاق والنفاق، الذين يشقون عصا المسلمين، ويقطعون طريق الوفاق؛

وينصبون حبائل البغى والفساد فى جميع النواحي والآفاق؛ فلن يجعلهم الله

عز وجل من الآمنين، أنى وكيف وقد أفسدوا وخانوا؟ وهو سبحانه لا يصلح

عمل المفسدين، ولا يهدى كيد الخائنين.

وها نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس

والتعظيم، بعد ما زينا معاطفها باستعطافكم بدر ثناء أبهى من در العقد

النظيم؛ منتظمين فى سلك أوليائكم؛ متشرفين بخدمة عليائكم؛ ولا فقد عزة

ولا عدمها، من قصد مثابتهم العزيزة وخدمها؛ وإن المتراعى على سنائكم،

لجدير بحرمتكم واعتنائكم؛ وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حصنا حصينا، عاش بقية عمره محروسا من الضيم مصونا؛ وقد قيل فى بعض الكلام: من قعدت به نكاية الأيام، أقامته إغاثة الكرام؛ ومولانا أیده الله تعالى ولى ما يرفه إلينا من مكرمة بكر، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد فى صحائف حسن الذكر، ويروى مُنعن حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر؛ وغيره من ينال عن ذلك فيوقظ، ويسترسل مع الغفلة حتى يذكر ويوعظ؛ وما عهد منذ وجد إلا سريعا إلى داعى الندى والتكرم، بريئا من الضجر بالمطالبة والتبرم؛ حافظ للجار الذى أوصى النبي ﷺ بحفظه، مستغفرا وسعه فى رعيه المستمر ولحظه، آخذاً من حسن الثناء فى جميع الأوقات والآناء بحظه:

فهو من دوحة السنا فرع عز	ليس يحتاج مجتنيه لهز
كفه فى الإمحال أغزر وبل	وذراه فى الخوف أمتع حرز
حلمه يسفر اسمه لك عنه	فتفهم يا مدعى الفهم لغزى
لا تسله شيئاً ولا تستنله	نظرة منه فيك تغنى وتجزى
فنداه هو الفرات الذى قد	عام فيه الأنام عوم الإوز
وحماه هو المنيع الذى تر	جع عنه الخطوب مرجع عجز
فدعوا ذهنه يزاوِل قولى	فهو أدرى بما تضمن رمزى
دام يُحْيِي بكل صنع ومَنْ	ويعافى من كل بؤس ورجز
وكأنا به قد عمل على شاكلة جلاله، من مد ظلاله، وتمهيد خلاله، وتلقى ورودنا بحسن تهلله واستهلاله، وتأنيسنا بجميل قبوله وإقباله، وإيرادنا	

على حوض كوثره المترع بزلاله . والله [سبحانه]^(١) يسعد مقامه العلى ، ويسعدنا به حله وارتحاله ، ومآله وحاله ؛ ويؤيد جنده المظفر ، ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوه واستنزاله ، وهز الذوابل لإطفاء ذباله ؛ وهو سبحانه وتعالى المسئول أن يريه قرة العين فى نفسه وأهله وخدامه وأمواله ، وأنظاره وأعماله ، وكافة شئونه وأحواله . وأحق ما نصل بالسلام وأولى ، على المقام الجليل مقام الخليفة المولى ؛ أزكى الصلاة والسلام على خاتمة أنبياء الله وأرساله ، سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى جميع أصحابه وآله ، صلاة وسلاما دائمين أبدا ، موصلين بدوام الأبد واتصاله ، ضامين لمجددهما ومرددهما صلاح فاسد أعماله ، وبلوغ غاية آماله ، وذلك بمشيئة الله تعالى وإذنه وفضله وإفضاله .

انتهى الكتاب^(٢) ؛ وأوردته بطوله لما فيه من ذكرى واعتبار ، بما فعلته الدنيا مع الملوك الأعظم الكبار ، ولأنَّ الكلام جر إليه ، والله تعالى الكفيل بخلاص من توكل عليه .

وصاحب هذا الإنشاء وصفه الإمام ابن داود بقوله : «الفقيه الخطيب الفاضل ، خاتمة الأدباء بالأندلس ، أبو عبد الله محمد بن الفقيه الصالح أبى محمد عبد الله العقيلي المعروف بالعربى .

ومن بديع نظمته هذه الأبيات :

جز بالبساتين والرياض فما أبهج مرئيهما وأجلاله
واعجب بها للنبات وكُنْتُ فى أسفلها ناظرا وأعلاها
وقدس الله عند ذاك وقل سبحانه لا اله إلا هو

(١) ما بين الحاصرتين عن نفح الطيب .

(٢) إلى هنا انتهى النقل عن المقرئ فى نفح الطيب ج ٤ ، ص ٥٨٤ .

ورأيت بخط ابن داود المذكور أنه وقع بينه، أعنى ابن داود، وبين الفقيه المدرس أبى عبد الله محمد بن أبى الفضل بن إبراهيم البسطى، نزاع فى مسألة نحوية، قال: وطال فيها الكلام بما ما تقيد عنى فى غير هذا، فقال الفقيه الخطيب الأديب العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربى يورى بالقضية، ويشير إلى قصة نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام:

ندد البسطى فى مسألة لابن داود وقد أحكمها
وقديما وقعت معضلة وابن داود الذى فُهمها
انتهى.

ومن نظم الشيخ الفقيه، الأستاذ المقرئ الخطيب، الفذ الأوحد، سيدى أبى العباس أحمد الدقون رحمه الله، قصيدة فى ندب الجزيرة، تذكر النفوس بشجوها، فترسل العيون دموعها الغزيرة افتتحها بنثر نصه:

الحمد لله على كل حال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله
خير آل. أما بعد فيقول خديم أهل الله تعالى، عبيد الله أحمد بن محمد
الأندلسى، الشهير بالدقون، لطف الله به بمنه وكرمه:

إنه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء، بأخذ الحمراء؛ قرعت باب الندبه،
لما تقدم من الصحبه؛ فقلت أبياتاً صدرت من قلب كئيب، مبكية كل لبيب
أريب؛ وسميتها بالموعظة الغراء، بأخذ الحمراء، مبيحا لمن رغب فيها، ولم
يرغب عنها، أو استحس شيئا منها، أن يحدث بها عنى؛ وذلك بعد إتيان
لفظها وحفظها، وفهم وعظها ولحظها؛ وإن كنت لا أحسن أن أقول، وربما
أعزى بها إلى الفضول؛ لكنى لا أعدم المثل، وفى مثل هذا قيل:

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معاييه
والله حسبى وعدتى، وهو مقيل عثرتى . وهذا مطلع صباحها، ومنبع
افتتاحها :

أمنت من عكس آمال وأحوال	وعشت ما بين أعمام وأحوال
ولا ابتليت بما فى القلب من نكد	فالجسم مشغل من غير أشغال
وكيف لا وبقاع الدين خالية	من أرض أندلس من أجل أهوال
عمت فغمت قلوب المسلمين فيا	للمسلمين من أعداء وأنكال
جاشت بها من جيوش الكفر ما درست	بهم معالم أخيار وأقيال
أهل الشجاعة أهل العلم أهل تقى	أهل النفاسة فى قول وأفعال
عنهم وفيهم أحاديث النبى بدت	وهم معاقل قول الله للتالى
رهبان ليل وفرسان نهار فمن	يلمم بساحتهم يظفر بآمال
لا عيب فيهم سوى أن المضاف لهم	يسلو عن أهل وأوطان وأمـوال
فهل ترى بعد هذا النفس سائلة	وكيف تسأل عن وصف وعن حال
تالله لا زال ما فى القلب من أسف	ولو أكون حليف المنزل الخالى
أو يفتح الله فى نصر يمن به	فالله باق يقى من كل محتال
قد رام إطفاء نور الله مجتهدا	وباذلا كل ما قد حاز من مال
سطا بجيش كموج البحر فى عدد	نعم، وفى عدد من رهط أبطال
مؤيدا باجتماع المصر يتبعه	شر الخلائق مسرور بإقبال

يسبى المسماع بالأنفاط^(١) مشبهة
يبنى ليهدم ما الإسلام شيده
فهو المقاتل فى الأبراج متقل
فاستوطن المرج لا ينوى الرحيل ولا
والمسلمون من الأضغان قد ملئت
والحق مختلف والحق مؤتلف
وهم لديه كطير وهو ينتفه
إذا تجرد من ريش يطير به
سدوا مسالك أرزاق ومنفعة
ثم استغاثوا: ألا فرسان عادية
والصيف ضيعت ما أملت من لبن
وارحل بنحلك نحو الغرب فى كرم
فاستمكن الرعب فى الأكباد واتفقت
واحتل غرناطة الغراء قد عدمت
كأنها الشمس فى أفق العلى كسفت
وهل تعود ليال قد سلفن بها

وقع الصواعق فى هد وزلزال
والوصف يعجز من يدعى بقلقال^(٢)
إلف النحوس وتغير وترحال
يخشى المغيث سهل أو بأجبال
قلوبهم وأبوا تسديد أخلال
والكل منصرف عن نصر أبطال
والطير يرجو البقا مع كيد قتال
أضحى يدافع عن روح بأوصال
كدودة القز فى نسج لسربال
قال الصدى: لست ذا رمح ونبال
ففارق الجبح من تدخين نحال
من قبل وضعك فى قيد وأغالل
بعد اختلاف على تأمين أرذال
حب الحصيد ونصر الله والآل
فهل على طلل ترمى بأبطال؟
ونحن لا نشكى تنكيد ضلال؟

(١) فى سائر الأصول: «أنفاض» والمثبت يقتضيه السياق. والأنفاط آلات ترمى بها الحصون.

(٢) فى هامش المطبوع: «يريد بالقلقال هنا: الفصيح اللسن، كما هو شائع على ألسنة المغاربة حتى اليوم.

وهل يعود لها الدين الذى أنست
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم
قد فرقوا كسبا فى كل منزلة
فلا المساجد بالتوحيد عامرة
ولا المنابر للوعظ بارزة
ولا المكاتب بالصبيان أنسة
آه على الدين والدنيا وما نفعت
إننا إلى الله والرجعى له وبه
وكان ما كان والألطف شاملة
فلنكرم الآن من ينزل بمنزلنا
وإذ ولا قدرة تدنى المنى فلهم
نلقاهم ولنا بشر ومعدرة
ولا نذد عن ورود الحوض وارده
إخوانكم رفعوا أيدي الضراعة مع
وقل لوال تلتطف فى مغارمهم
هذا النذير جهارا جاء ينذرنا
ونحن فى غفلة عما يراد بنا
يأهل فاس أما فى الغير موعظة
به وقد أيست من فتح أبدال؟
كمثل عاد وما عاد بأشكال
وقد سبا عده من أيد أو عال
إذ عمروها بناقوس وتمثال
للأمر والنهى أو تذكير آجال
تتلو القرآن بأسحار وأصال
آه إذا صدرت من قلب بطل
تعلق القلب فى تصحيح إعلال
لاحت بنقلة نسوان وأطفال
فالدهر ذو دول فاسمع لأمثال
حق الجوار ولا توصف بإهمال
ورحمة يا حماة العم والخال
ولا ندع قول ذى نصح وإجمال
كسر القلوب فلا يلقوا بإخمال
يلطف بك الله إذ تدعى لأحمال
والأذن فى صمم عن قيل أو قال
نمشى على مهلة من طول إمهال
إن السعيد لموعوظ بأمثال

فقل تعالوا إلى نصح وتذكرة
كيف الحياة إذا الحيات قد نفحت
ولا سبيل إلى الترياق غير تقى
والأخذ فى جمع القلوب على
والزهد فى الدنيا وزخرفها
ولا ترم فى أمان الروم منزلة
فمن بيت فى أمان الكلب منتصبا
واربأ بنفسك عن أرض تهان بها
فالموت عندى خير من حياة فتى
والهجرة الآن قد عادت كما سبقت
واحتل بذهنك ولتسمع نصائح من
فى صدر سبع على التسعين زائدة
وبلغ الكلب ما قد شاء من أرب
ليقضى الله أمرا كان قدره
وقد عظمت ولو أسمعت لانتشرت
فليشتغل كل مسكين بمهجته
ثم الصلاة على المختار سيدنا

فالأمر جد فلا تصحب لمكسال
على السواحل أو همت بإرسال
والحزم فى سعة من قبل إعجال
بذل النصيحة أو إبراء أذخال
والأمر بالعرف مع تحسين مقوال
خوفا على الدين أو بعدا من أنزال
لسخط مولى ولا عذر بأثقال
فحيثما كنت لا تخشى من اقلال
قد اكتسى بعد عز ثوب إذلال
فافهم تفاصيل أقوال وإجمال
قد طب من حب لم يوصف بمحتال
شمس الجزيرة غابت بعد إكمال
إذ لم يجد ذائدا عن ديننا العالى
والأمر لله فى قول وأفعال
سحائب الدمع لم تقلع عن انزال
والله يحفظنا من كل مهوال
محمد والرضا عن آل او تالى

ومما كتبه بعض أهل الجزيرة بعد استيلاء الكفر على جميعها للسلطان
أبى يزيد خان العثماني، رحمه الله، ما نصه بعد سطر الافتتاح:

الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها؛ ومهد أقطارها،
وأعز أنصارها، وأذل عداتها، حضرة مولانا، وعمدة ديننا ودياننا، السلطان
الملك الناصر؛ ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قانع أعداء
الله الكافرين؛ كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام؛ محبى
العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب والعجم، والترك والديلم؛
ظل الله فى أرضه، القائم بستته وفرضه؛ ملك البرين، وسلطان البحرين؛
حامى الذمار، وقانع الكفار؛ مولانا وعمدتنا، وكهفنا وغياثنا، مولانا أبو
يزيد، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقرونًا بالانتصار، مخلص المآثر والآثار،
مشهور المعالي والفخار؛ مستأثرًا من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر
الجزيل، فى الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر فى هذه الدار. ولا برحت
عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد، مجردة على أعداء الدين من بأسها، ما
يروى صدور السمر والصفاح، وألسنة السلاح، باذلة نفائس الذخائر فى
المواطن التى تألف فيها الأخبار مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل
السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد:

سلام كريم دائم متجدد	أخص به مولى خير خليفة
سلام على مولاي ذى المجد والعلا	ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع الله ملكه	وأيده بالنصر فى كل وجهة
سلام على مولاي من دار ملكه	قسطنطينة أكرم بها من مدينة

سلام على من زين الله ملكه
 سلام عليكم شرف الله قدركم
 سلام على القاضى ومن كان مثله
 سلام على أهل الديانة والتقى
 سلام عليكم من عبيد تخلفوا
 أحاط بهم بحر من الروم زاهر
 سلام عليك من عبيد أصابهم
 سلام عليكم من شيوخ تمزقت
 سلام عليكم من وجوه تكشفت
 سلام عليكم من بنات عواتق
 سلام عليكم من عجائز أكرهت
 نقبل نحن الكل أرض بساطكم
 أدام الإله ملككم وحياتكم
 وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا
 شكونا لكم يا مولاي ما قد أصابنا
 غُدرنا ونُصّرنا وبُدِّل ديننا
 وكلنا على دين النبی محمد
 ونلقى أمورا فى الجهاد عظيمة
 بجند وأتراك من أهل الرعاية
 وزادكم ملكا على كل ملة
 من العلماء الأكرمين الأجلة
 ومن كان ذا رأى من أهل المشورة
 بأندلس بالغرب فى أرض غربة
 وبحر عميق ذو ظلام ولجة
 مصاب عظيم يا لها من مصيبة
 شيوبهم بالنتف من بعد عزة
 على جملة الأعلاج من بعد سترة
 يسوقهم اللباط قهرا لخلوة
 على أكل خنزير ولحمٍ لجيفة
 وندعو لكم بالخير فى كل ساعة
 وعافاكم من كل سوء ومحنة
 وأسكنكم دار الرضا والكرمة
 من الضر والبلوى وعظم الرزية
 ظُلمنا وعمولنا بكل قبيحة
 نقاتل عمال الصليب بنية
 بقتل وأسر ثم جوع وقلة

فجاءت علينا الروم من كل جانب
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم
وفرسانهم تزداد فى كل ساعة
فلما ضعفنا خيموا فى بلادنا
وجاءوا بأنفاط^(١) عظام كثيرة
وشدوا عليها فى الحصار بقوة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا
وقلت لنا الأقوات واشتدت حالنا
وخوفا على أبنائنا وبناتنا
على أن نكون مثل من كان قبلنا
ونبقى على آذاننا وصلاتنا
ومن شاء منا البحر جاز مؤمنا
إلى غير ذاك من شروط كثيرة
فقال لنا سلطانهم وكبيرهم
وأبدى لنا كتيا بعهد وموثق
فكونوا على أموالكم ودياركم
بسيل عظيم جملة بعد جملة
بجد وعزم من خيول وعدة
فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرساننا فى حال نقص وقلة
ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
تهدم أسوار البلاد المنيعة
شهورا وأياما بجد وعزيمة
ولم نر من إخواننا من إغاثة
أطعنهم بالكره خوف الفضيحة
من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
من الدجن من أهل البلاد القديمة
ولا نترك شيئا من أمر الشريعة
بما شاء من مال أرض عدوة
تزيد على الخمسين شرطا بخمسة
لكم ما شرطتم كاملا بالزيادة
وقال لنا هذا أمانى وذمتى
كما كنتم من قبل دون أذية

(١) الأنفاط: الآلات التى ترمى بها الحصون والأسوار كالمدافع.

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم
وخان عهودا كان قد غرنا بها
وأحرق ما كانت لنا من مصاحفٍ
وكل كتاب كان فى أمر ديننا
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم
ومن صام أو صلى ويعلم حاله
ومن لو يَجِئُ منا لموضع كفرهم
ويلطم خديه ويأخذ ماله
وفى رمضان يفسدون صيامنا
وقد أمرونا أن نسب نبينا
وقد سمعوا قوما يغنون باسمه
وعاقبهم حكامهم وولاتهم
ومن جاءه الموت ولم يحضر الذى
ويترك فى زبل طريقاً مجدلاً
إلى غير هذا من أمور كثيرة
وقد بدلت أسماؤنا وتحولت
فأهّا على تبديل دين محمد
وأهّا على أبنائنا وبناتنا

بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
ونصرنا كرها بعنف وسطوة
وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
ففى النار ألقوه بهزءٍ وحقرة
ولا مصحفًا يخلى به للقراءة
ففى النار يلقوه على كل حالة
يعاقبه اللبّاط شر العقوبة
ويجعله فى السجن فى سوء حالة
بأكل وشرب مرة بعد مرة
ولا نذكرنه فى رخاء وشدة
فأدركهم منهم ألم المضرة
بضرب وتغريم وسجن وذلة
يذكرهم لم يدفنه بحيلة
كمثل حمار ميت أو بهيمة
قباح وأفعال غزار ردية
بغير رضًا منا وغير إرادة
بدين كلاب الروم شر البرية
يروحون للّبّاط فى كل غدوة

يَعْلَمُهُمْ كُفْرًا وَزُورًا وَفِرْيَةً
وَأَهَّا عَلَى تِلْكَ الْمَسَاجِدِ سُورَتِ
وَأَهَّا عَلَى تِلْكَ الصَّوَامِعِ عُلِقَتْ
وَأَهَّا عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَحُسْنُهَا
وَصَارَ لِعِبَادِ الصَّلِيبِ مَعَاقِلًا
وَصَرْنَا عَبِيدًا لَا أَسَارَى فَنَفْتَدِي
فَلَوْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ مَا صَارَ حَالُنَا
فِيَا وَيْلُنَا، يَا بؤْسَ مَا قَدْ أَصَابَنَا
سَأَلْنَاكَ يَا مَوْلَايَ بِاللَّهِ رَبَّنَا
وَبِالسَّادَةِ الْأَخْيَارِ آلِ مُحَمَّدٍ
وَبِالسَّيِّدِ الْعَبَّاسِ عَمِ نَبِينَا
وَبِالصَّالِحِينَ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ
عَسَى تَنْظُرُوا فِينَا وَفِي مَا أَصَابَنَا
فَقُولْكَ مَسْمُوعٌ وَأَمْرُكَ نَافِذٌ
وَدِينُ النَّصَارَى أَصْلُهُ تَحْتَ حُكْمِكُمْ
فَبِاللَّهِ يَا مَوْلَايَ مِنْوَا بِفَضْلِكُمْ
فَأَنْتُمْ أَوْلُو الْإِفْضَالِ وَالْمَجْدِ وَالْعَلَا
فَسَلِّ بِأَبْهَمٍ أَعْنَى الْمُقِيمِ بِرُومَةٍ

وَلَا يَقْدِرُوا أَنْ يَمْنَعَهُمْ بِحِيلَةٍ
مَزَابِلٌ لِلْكَفَّارِ بَعْدَ الطَّهَارَةِ
نَوَاقِيسُهُمْ فِيهَا نَظِيرُ الشَّهَادَةِ
لَقَدْ أَظْلَمْتَ بِالْكَفْرِ أَعْظَمَ ظُلْمَةٍ
وَقَدْ أَمْنُوا فِيهَا وَقُوعَ الْإِغَارَةِ
وَلَا مُسْلِمِينَ نَطْقُهُمْ بِالشَّهَادَةِ
إِلَيْهِ لَجَّادَاتٍ بِالدَّمْعِ الْغَزِيرَةِ
مِنَ الضَّرِّ وَالْبَلْوَى وَثُوبِ الْمَذَلَّةِ
وَبِالْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ
وَأَصْحَابِهِ أَكْرَمَ بِهِمْ مِنْ صَحَابَةِ
وَشَيْئَتِهِ الْبَيْضَاءِ أَفْضَلَ شَيْئَةٍ
وَكُلِّ وَلِيٍّ فَاضِلٍ ذِي كِرَامَةٍ
لَعَلَّ إِلَهَ الْعَرْشِ يَأْتِي بِرَحْمَةٍ
وَمَا قُلْتُ مِنْ شَيْءٍ يَكُونُ بِسُرْعَةٍ
وَمَنْ ثُمَّ يَأْتِيهِمْ إِلَى كُلِّ كُورَةٍ
عَلَيْنَا بَرَأى أَوْ كَلَامٍ بِحُجَّةٍ
وَعُوثُ عِبَادِ اللَّهِ فِي كُلِّ آفَةٍ
بِمَاذَا أَجَازُوا الْغَدْرَ بَعْدَ الْأَمَانَةِ؟

وما لهم مالوا علينا بغدرهم
وجنسهم المغلوب فى حفظ ديننا
ولم يخرجوا من دينهم وديارهم
ومن يعط عهداً ثم يغدر بعهده
ولا سيما عند الملوك فإنه
وقد بلغ المكتوب منكم إليهم
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة
وقد بلغت أرسال مصر إليهم
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم
ولكن خوف القتل والحرق ردنا
ودين رسول الله ما زال عندنا
ووالله ما نرضى بتبديل ديننا
وإن زعموا أنا رضينا بدينهم
فسلّ وحرّاً^(١) عن أهلنا كيف أصبحوا
وسلّ بلفيقا عن قضية أمرها
ومنيافة بالسيف مزق أهلها
وأندرش بالنار أحرق أهلها

بغير أذى منا وغير جريمة
وأمن ملوك ذى وفاء أجلة
ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة
فذاك حرام الفعل فى كل ملة
قبيح شنيع لا يجوز بوجهة
فلم يعلموا منه جميعاً بكلمة
علينا وإقداما بكل مساء
وما نالهم غدر ولا هتك حرمة
رضينا بدين الكفر من غير قهرة
علينا لهذا القول أكبر فرية
نقول كما قالوه من غير نية
وتوحيّدنا لله فى كل لحظة
ولا بالذى قالوا من أمر الثلاثة
بغير أذى منهم لنا ومساء
أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة
لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
كذا فعلوا أيضاً بأهل البُشْرة
بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة

(١) وحر: اسم بلد.

فها نحن يا مولاي نشكو إليكم
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا
وإلا فيجلونا جميعاً من أرضهم
فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا
فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا
فنسأل مولانا دوام حياتكم
وتهدين أوطان ونصر على العدا
وثم سلام الله تتلوه رحمة

فهذا الذى نلناه من شر فرقة
كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
بأموالنا للغرب دار الأحبة
على الكفر فى عز على غير ملة
ومن عندكم تُقضى لنا كل حاجة
وما نلنا من سوء حال وذلة
وعزتكم تعلو على كل عزة
بملك وعز فى سرور ونعمة
وكثرة أجناد ومال وثروة
عليكم مدى الأيام فى كل ساعة

انتهت الرسالة بحمد اله، وكتبتها وإن كانت ألفاظها غير بليغة، تكميلاً
للفائدة، والله الهادى إلى سواء السبيل.

وكان أهل الأندلس فى عنفوان أمرهم فى غاية البلاغة. حتى قال
الرئيس ابن الجياب يفتخر بذلك:

أبى الله إلا أن تكون اليد العليا
وإن هى عضتها نيوب نوائب
فما عدت أهل البلاغة والحجا
إذا خطبوا قاموا بكل بليغة

لأندلس من غير شرط ولا ثنيا
فصيرت الشهد المشور بها شربا
يقيمون فيها الرسم للدين والدنيا
تُجلى القلوب الغلف والأعين العميا

وإن شعروا جاءوا بكل غريبة تخال النجوم النيرات لها حلياً
فنسأل في الدنيا من الله سترة علينا، وفي الأخرى إذا حانت اللقيا
ولعمري، لقد صدق قائل هذه الأبيات، فإن البلاغة لم تزل شمسها
بالأندلس باهرة الإيالة، ظاهرة الآيات، إلى أن استولى عليها العدو، وعطل
من أهل الإسلام الرواح إليها والغدو، وفي أهل بقية لسان ویراعة، وتصرف
في فنون الإجادة وبراعة، وقد قصصنا عليك آنفاً الرسالة التي كتبها الملك
المخلوع لصاحب المغرب فيما سردناه، واطلعت منها على ما يؤيد ما قلناه،
من الغرض الذي انتحينا وأردناه: وقد كان ذلك الكاتب وطبقته تلقفوا كره
البلاغة من يد طبقة أخرى حازت معلى القداح، وتبرجت لها من الفصاحة
كل خود رداح، كالفقيه الكاتب أبى عبد الله الشران، المبرز في أدواته على
الأنداد والأقران، وكالأديب الشهير الفقيه عمر، الذي لم تزل أخباره إلى الآن
سمر، وكفارسات تلك الحلبة، الكاتب القاضي الرئيس، الوزير الفقيه، أبى
يحيى بن عاصم، الذى حليت بعلومه اللبات والمعاصم، وغيرهم من الجهابذة
النقاد، والأعلام الذين تخضع لهم المحاسن وتنقاد، إن جدوا وصلوا مقطوع
الأسباب، وإن هزلوا، على عادة الأفاضل فى مثل هذا الباب، ملكوا النفوس
وسحروا الألباب؛ وقد سبق من كلام ابن عاصم ما يصحح ما ادعينا،
ولنورد زيادة إذا أبصرنا المنصف المستفيد تقرر عيناه، فنقول:

أما الفقيه عمر فهو أشهر من نار على علم، وأرجاله ومنظوماته
ومقاماته عند العامة محفوظة، وعند الخاصة مرفوضة، إلا القليل الذى يُسمح
فى مثله لصاحب القلم، كمقامته التى سماها بتسريح النصال، إلى مقاتل
الفصال، ونصها^(١):

(١) انظر فى ذلك: المقرئ فى نفح الطيب ج ٥، ص ٤٠.

يا عماد السالكين، ومحط رحال المستفيدين والمتبركين، وثمان الضعفاء
 والمساكين والمتروكين، فى طريقتك يتنافس المتنافس، وعلى أعطافك تزهى
 العبارات وتروق الدلائل؛ وبكتابك تحيا جوامد الأفهام، وبمذبتك تُشرد ذباب
 الأوهام؛ وفى زنبيلك يدس التالد والطارف، وبعصاك يهش على بدائع
 المعارف، الله الله فى سالك، ضاقت عليه المسالك؛ وشاد، رمى بالبعداد،
 أدركته متاعب الحرفة، وأقيم من صف أهل الصفة؛ فلا يجد نشاطاً على ما
 يتعاطى، ولا يلقي اغتباطاً، وإن حل زاوية أو نزل رباطاً؛ أقصى عن أهل
 القرب والتخصيص، وابتلى بمثل حالة برصيص؛ فأحيل عليك، وتوقفت
 إقالته على توبة بين يديك؛ فكاتبك استدعاء، واستوهب منك هداية ودعاء؛
 ليسير ما سويت، ويتحمل عنك أشتات ما رويت؛ فيلقى الأكفاء الظرفاء
 عزيزاً، ويباهى بك كل من خاطبك مستجيراً، فاصرف إلى مُحيا الرضا،
 وأعد من إيناسك العهد الذى مضى، ولا تلقنى مُعرِضاً ولا مُعرِضاً، وأصغ
 إلى سمعك كما قدر الله وقضى:

تعال نجددها طريقة ساسان	وعض عليها ما توالى الجديدان ^(١)
ونصرف إليها من مثار عزائم	ونحلف عليها من مؤكد أيمان
ونعقد على حكم الوفاء هواءنا	لنأمن من أقوال زور وبهتان
ونقسم على ألا نصدق واشياً	يروح ويغدو بين إثم وعدوان
يطرق حوالينا ليفسد بيننا	بمنطق إنسان وخدعة شيطان
على أننا من عالم كلما بدا	تعوذ منه عالم الإنس والجان

(١) القصيدة بطولها لدى المقرئ فى نفح الطيب ج ٥، ص ٤١ - ٤٦ .

وحاشاك أن تلقى عن الصلح معرضاً
وإني أهتمنى شئون كثيرة
فأنت إمامى إن كلفت بمذهبٍ
سأرعاك فى أهل العباءات كلما
ويا لابسى تلك العباءات إنها
تفرقت الألوان منها إشارة
ويا بأبى الفصال شيخ طريقة
إذا جاء فى الثوب المحبر خلته
فما تأمن الأبدان آفة لسعها
سأدعوك فى حالات كيدى وكديتى
وإن كان فى الأنساب منا تباين
ألا فادع لى فى جنح ليلك دعوة
لك الطائر الميمون فى كل وجهة
فكم من فقير بائس قد عرفته
وكم من رفيع الجاه واليت أنسه
فلو كنت للفتح بن خاقان صاحباً
ولو كنت للصابى صديقاً ملاطفاً
ولو كنت من عبد الحميد مقرباً
إلى الصلح آلت حرب عبس وذبيان
وصلحك أولى ما أقدم من شانى
وأنت دليلى إن صدعت ببرهان
رأيتك فى أهل الطيالس ترعانى
لباس إمام فى الطريقة دهقان
بأنك تأتى من حلاك بألوان
خلوب لألباب لعوب بأذهان
زنبرة قد مدَّ منها جناحان
وإن أقبلت فى سابغاتٍ وأبدان
بشيخى ساسان وعمى هامان
فما تنكر الآداب أنا نسيبان
لتنجح آمالى ويرجح ميزانى
سريت إليها غير نكسٍ ولا وانى
فرقت عليه نعمة ذات أفنان
فعاش قرير العين مرتفع الشان
لما خانته المقدار فى ليلة الخان
لما قبلت فيه مقالة بهتان
لما هزم السفاح أشياع مروان

ولو كنت قد أرسلتها دعوة على
 ولو كنت فى يوم الغبيط مراسلا
 ولو كنت فى حرب الأمين لطاهر
 ولو كنت فى مغزى أبى يوسف لما
 ولو أن كسرى يزددجرد عرفته
 ولو أن لذريقًا وطئت بساطه
 وفيما مضى فى فاس أوضح شاهد
 ولما اغتنى منك السعيد بكاتب
 فلا تنسى من أهل ودك إننى
 ولا خير أن تجعل كفاء قصيدتى
 فجد بدنانيير ولا تكن التى
 فجودك فينا الغيث فى رمل عالج
 وما زلت من قبل السؤال مقابلا
 ولا تنس أياما تقضت كريمة
 وتأليفنا فيها لقبض أتاوة
 وقد جلس الطرقون بالبعد مطرقا
 عريف يلحانى إذا ما أتيته
 وقد جمعت تلك الطريقة عندنا
 أبى مسلم ما حاز أرض خرسان
 لبسطام لم تهزم به آل شيبان
 لما هان فى يوم اللقاء ابن ماهان
 رماه بغدر عبده فى تلمسان
 لما طاح مقتولا على يد طحان
 لما أثرت فيه مكيدة أليان
 غنى لدينا عن بيان وتبيان
 رأى ما ابتغى من عز ملك وسلطان
 أخاف الليالى أن تطول فتتسانى
 كفاء ابن دراج على مدح خيران
 ألم بها الكندى فى شعب بوان
 وفضلك فينا الخبز فى دار عثمان
 مرادى بإحساب وقصدى بإحسان
 بزاوية المحروق أو دار همدان
 وإغرام مسنون وقسمة حلوان
 يقول نصيبى أو أبوح بكتمان
 ولم أنصرف عنكم بواجب ألحان
 أئمة حساب وأعلام كهان

إذا استزلوا الأرواح عند الحلول تأرجت
وإن بخرُوا عند الحلول تأرجت
وإن فتحوا الدارات فى رد آبق
فيحسب أن الأرض حيث ارتمت به
وقد عاشرنا أسرة كيموية
فله من أعيان قوم تألفوا
ونحن على ما يغفر الله إنَّما
مع الصبح نضيفها عباءة صفة
أتذكر فى سفح العقاب مبيتكم
لديكم من الألوان ما لم يجرى به
ثم ذكر خمسة أبيات أقذع فيها، فلذا تركتها^(١)، ثم قال:

فأقسم بالأيمان لولا تعففى
فعد للذى كنا عليه فإنَّ لى
فمن يوم إذ صيرت ودى جانبًا
ولا روت الكُتَّاب بعد نفارنا
وما هو قصدى منك إلا إجازة
وإنك إن سخرت لى وأجزتنى
ولم لا تروينى وأنت أجل من

(١) الأبيات ذكرت فى نفح الطيب بتمامها.

ألا فأجزنى يا إمامى بكل ما
ولا تنس للدباغ نظماً عرفته
ومزدوجات ينسبون نظامها
والم بشيء من خرافات عنتر
وإن كنت طالعت اليتيمة واسنى
أجزنى بكشف الدك أرضى وسيلة
وناولنى المصباح فهو لغربتى
والحق به شمس المعارف إننى
وقد كنت قبل اليوم عرفتني به
ولا بد يا أستاذ من أن تجيزنى
وكتب ابن أخلى كيف كانت فإنها
ولا تنس ديوان الصبابة والصفاء
وزهر رياض فى صنوف أضاحك
كذاك فناولنى كتاب حباحب
ولى أمل فى أن أروى رسالة
وحبس على الكاس والكوز والعصا
وصير لى الدلفاس أرفع لبسة
وقد رق طبعى واعترتنى خشية
وخل مفاتيح الطريقة فى يدي

رويت لمد غليس أو لابن قزمان
فإنكما فى ذلك النظم سيات
إلى ابن شجاع فى مديح ابن بطلان
والمع ببعض من حكايات سوسان
بلامية فى الفحش من نظم واسانى
وخير جليس فى بساط ودكان
ميسر أغراضى ورائد سلوانى
أسائل عن إسناده كل إنسان
ولكننى أنسيته بعد عرفان
بدء ابن سبعين وفصل ابن رضوان
لوزن رقيق القول أكرم ميزان
لإخوان صدق فى الصفا خير إخوان
وجبذ كساء فى مكاييد نسوان
وزدنى تعريقاً بها وببرجان
مضمنة أخبار حى بن يقظان
فإنك مثر من عصى وكيزان
فقد جل قدرى عن حرير وكتان
يكاد بها روحى يفارق جثمانى
وسوغ لهم فيها مزيدى ونقصانى

فإنى لم أخدمك إلا بنية وإنى لم أتبعك إلا بإحسان
فكن لى بالأسرار أفصح معلن فإنى قد أخلصت سرى وإعلانى
انتهت المقامة. وأثبتها لأنها أخف ما رأيت من هزليات الفقيه عمر
المالقي، رحمه الله وسامحه، ومثل هذا الهزل قد وقع لكثير من الأئمة على
سبيل الإحماض، ولم يعنوا غالباً إلا إظهار البلاغة والاقتدار، كما فعل
الحريرى وغير واحد، والأعمال بالنيات.

ومن نظم الفقيه عمر المذكور قوله عفا الله عنه:

إلى الله ربي أشتكى سوء حالتي عسى فرجٌ يأتى بأفضل حالى
وما أسفى إلا لمالى أبيعه وخائن مالى يشتري بمالى
ومن أبدع ما صدر عنه رحمه الله مقامة فى أمر الوباء، رأيت أن أثبتها
لغرابة منزعها، وإن كان بعض فصولها لا يجرى على المشهور من مذاهب
العلماء، ونصها:

إلى حمراء الملك وقلعته، ومقر العز ومنعته، ومطلع كل قمر نصرى
يخجل الأقمار بطلعته، أبقاها الله على تعاقب الزمان، منزل أمان ودار
إيمان، وأمتعها بحياة الملك الخزرجى اليمان، من موجبة إجلالها كما يجب،
المعترفة بفضلها وشرفها وأنوار الشمس لا تحتجب، والواقفة عند إشارتها
وطاعتها، فإن تأمر أمتل وإن تدع أستجب، مألقة، المستمسكة بدمتها
الوثيقة، المتشوفة إلى أخبارها تشوف المحبة الشفيقة، إلى ريحانة قلبها فى
الحقيقة، وإلى هذا يا سيدتى ويا عدتى، ويا ذخيرتى ويا عمدتى، أمتعنا الله
وإياك بحياة من استنفذها من الورطات، وردنا إلى الصواب مما كان منا من

الغلطات، مولانا الغالب بالله وحده، الموعود بعزیز النصر وقريب الفتح والله
ميسر وعده.

سلام عليك يتعطر بذكر مولانا أمير المسلمين فوحه، وينشق كالمسك
الفتيت روحه، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنني أحمد الله الذي إذا استكفى بعزته كفى، وإذا استشفى
بكلمته شفى، وإذا سئل بواسع رحمته عفا؛ وأصلى على رسوله محمد
الكریم المصطفى، وعلى آله وأصحابه، أكرم من نصح له وأخلص ووفى.

كتبته إليك يا سيدتى عن نفس قلقة، ساهرة أرقه، حاذرة مشفقة،
ملهبة بل محترقة؛ وإنى أقسم عليك بالرب الذى كرمك بالعز وشرفك،
وعرفك من لطائف الفرج بعد الشدة ما عرفك، أن تسعدينى على تسكين
لوعتى، وتأمين روعتى وتراجع رقادى بعد سهادى، وقضاء حاجة جلّت فى
فؤادى، وتفهمى مراد إشارتى وإشارة مرادى، وتتركى هوى النفس الذى
للحق معاند وللرشد معادى.

ومبنى هذه الرسالة إليك على قولهم: «الشفيق مولع بسوء الظن»، ومن
منن الله على عبده الوقاية من المتالف جل الله العظيم المن؛ وعلى قول
المتنبى:

ربما ضر عاشق معشوقا ومن البر ما يكون عقوقا
والمثل الأول لى والآخر لك، والله ييسر فى حفظ مولانا أملى وأملك.
وإنى أتعجب من مساعتك على إقامة مولانا بمنزل، هذا المرض به فاش،
وهذا الهواء الفاسد بين دياره جاء وماش، وسمعت أن حديث السفر للمالقة

أثقل عليك من حديث رقيب وعاذل وواش؛ وأن الآراء فى ذلك اختلف، ولم يرجع فيها إلى سنن تقدمت وعوائد سلفت؛ والأوائل من المؤمنين رحمهم الله ما تركوا شيئاً سدى، بل نصبوا كل طريق إلى النجاة علم هدى، وسمعت يا سيدتى أن القضية عول على المقام والاستسلام، وخلوف فيها رأى الخليفة الرشيد لما تحول فى مثلها عن سكنى دار السلام، بمحضر أركان الدين وأعلام الإسلام؛ وقد سمعت فى الأجوبة الطريفة، ما صدر من قوله: أخشى أن أكون أول خليفة؛ وقد كنت يا سيدتى أرتجى أن يكون لهذا المرض ارتفاع، أو يحصل بدخول فصل البرد انتفاع؛ فتركت الكتب منتظرة لذلك إلى أن تزايدت الحال وأنت على حالك، لا يمر الترحال بخاطرك ولا ببالك، وأنا أقول: أما واجب التسليم، لتقدير العزيز العليم؛ فمتأكد شرعاً، لا يضيق به المؤمن ذرعاً؛ لكن ما يفعل المستسلم بالروح والجسد، إذا قيل له اهرب من الأسد؛ وقد أبصره مقبلاً إليه، أو منقضا عليه؛ أياخذ فى تحفظه واحتراسه، أم يصبر لافتراسه؟ ومن قيل له فى ظلم الليل: ارتفع عن هذا المكان تنج من السيل؛ أن ينام فى مكانه، أم يبادر إلى السلامة بجهد إمكانه؟ ومن نودى: هذه الخيل قد طلعت مغيرة، والرعاة فى الجبال مستجيرة؛ فارفع غنمك قبل الاكتساح، فالوقت فى انفساح؛ أتركها تسرح، ولا يبرح؛ أم يرفعها لتسلم، مما تدرب وتعلم؟ وكذلك إذا قامت الرماة صفوفاً وأصابته سهامهم من الخلق ألوفاً؛ أيرجح الحق تباعداً أم وقوفاً؟ وكذلك أيضاً المنازل، التى تدوم بها الزلازل فأرضها فى كل يوم تميد، ودهش القلوب بها حاضر عتيد أو الخسوف بها فى يوم ينقض وفى يوم يزيد لا تسمع فيها إلا سقوط جدار، على ركن دار؛ وانفكاك الأركان، على السكان؛ وإخراج ميت، من تحت بيت؛ وسقوط سارية، على جارية؛ أيعزم على السكنى والاستيطان تحت

هذه الحيطان؛ أم يؤخذ فى الاحتيال، بالخروج بالأطفال والعيال؟ يا سيدتى الحمراء، سألتك فاخبرينى، وإن تحير فهمى فاعذرينى ووصل إلى الكتاب الشريف، من جنان العريف؛ يذكر أن السلامة كانت به مستصحبة لمولانا ولناسه، وأن العافية كانت بهم منتشقة أنفاس رنده وآسه، ما عرضت به إلى طيب حاجة ولا استدعى فيه المعاور للنظر فى زجاجة؛ ولا لقول ولا عمل، ولا بلغ فى الجساوة والقساوة أقل أمل؛ ولم يتقص من الساكنين بهذا البستان، من عبيد مولانا السلطان، غير فتى من الخصيان، لا يساوى عشرة دراهم فى سوق الفتیان، والجميع بحمد الله استمرت عافيتهم على استقامة، بطول أيام الإقامة؛ وعرفنى أيضا جنان العريف فى وافد كتابه، ووارد خطابه، أن رغبته كانت فى انتقال مولانا نصره الله من صحيح هوائه، وسلسيل مائه؛ ونفحة جنبه، وتلاعب النسيم العاطر بين قبابه. إلى مالقة حيث الجو الصقيل، والروض الذى يطيب به المقل، والراحة التى تمتزج بالأرواح كما قيل؛ حيث العرف الأريج، والوادی المنعرج والساحل الذى ينشرح به الصدر الحرج، حيث البنفسج يدير كتوس البهار، والياسمين نجوم طالعة بالنهار؛ حيث يتمازج طيب الزهر، بعرف الأترج ونفحات السحر حيث يشبه أنين السوانى، حنين المتعشقات من الغوانى، إذا حمد الصباح، وانفلق الإصباح؛ وعمرت صغار القوارب، ونادت بحرية الشباك: إلى المضارب، وسالت أنوار المشارق على جوانب المغارب، ونادى محرك الجيش: ظهور الخيل، وصباح الخير، واستقبلوا الوادى الكبير لمصيد الأرانب والحوت والطير؛ شكر الله جنان العريف على ما قصد ونوى، وعلى ما اظهر من اتباع حق ومخالفة هوى، اعتماداً من أخبار الدول القديمة على ما حفظ وروى. وقال لى يا سيدتى: إنك وقفت مع الحديث المنصوص، الوارد فى مثل هذا المرض على الخصوص؛

وفيه النهى عن الخروج من منازل هذا المرض على الخصوص؛ وفيه النهى عن الخروج من منازل هذا المرض ومواضعه، ومن القدوم على معتركاته ومصارعه؛ والحديث الصحيح، والرشد فيه قول صريح؛ ولكن للعلماء فيه أقوال طويلة التفصيل، وقد لخصها وبينها الإمام ابن رشد فى كتابه الجامع من البيان والتحصيل؛ والاتفاق من الجميع أن النهى فى هذا الحديث ليس بنهى تحريم، وإنما هو على سبيل إرشاد وأدب وتعليم؛

فلا إثم ولا حرج، على من أقام ولا على من خرج. وقال عمرو بن العاص: الأفضل الخروج لأهل الفطنة، اتقاء من يؤدى إلى فتنه؛ وكفى بعمرو بن العاص حجة لمن أراد انتصارا، والكلام كثير، ولكنى اختصرته اختصارا؛ وإن نظراً قدمه كثير من الصحابة ورجحه، لخليق بأن يقال فيه ما أسعده وما أنجحه! يا ليت تفقهى كله يكون من هذا القبيل، وجاريا على هذا السبيل، مستنداً إلى قول صحابى جليل، ومستدلاً بأرشد علم ودليل، ولو كان على خلاف المشهور من قول خليل. وهنا يقال: ما فى هذه القلة غير هذا الإغريل^(١). يا سيدتى الحمراء؛ أراك فى هذه القضية تفقهت وتوقفت فيما بينه عالم وذو علم، وَمَنَعْتَ مما ليس فيه حرج ولا إثم؛ ولو كنت حاضرة لكان لى معك حديث طويل، واحتجاج ينصره نص وتأويل. وسمعت أنكِ أشفقتِ من عظيم النفقة، وليس هذا موضع الشفقة؛ فالأمر ليس بغال، ولو يشتري بكل ذخيرة وكل مال؛ والأولى بالملامه، من يفضل شيئاً على السلامه. القمح يأكله السوس، والذهب تغنى عنه الفلوس، فكيف يستعظمان فيما تؤمن به النفوس. وبلغنى أنكِ قلت: مالقة ليس بها زرع، وبقليل المقام يضيق لها صدر وذرع، وفلاحتها وحرثها ليس لهما أصل ولا

(١) كذا فى الأصل ولا وجه له.

فرع؛ وعز على هذا الكلام ولكننى سلمت والسلام؛ فإن سعري عن سعر
غرناطة منحط، وفى لمحة بصر يضيق منى بالطعام فى كثير من الأيام ساحل
وشط، ولا يعلم أنه دامت لى شدة قط. لى فى الاعتصام بالتوكل على الله
ما يزيد على سبع مائة العام، ما أشغلت فيها فكراً ولا قلباً بادخار قوت ولا
باحترام طعام؛ أثق فى اليوم والغد، بالرزق الرغد؛ تأتى به الرياح على
الأعناق، ويفيض سيله على جوانب الدواوين وأكناف الأسواق، وتجلبه
الأحباب والأعداء بإذن اللطيف الخبير الوهاب الرزاق.

قالت النملة: افتخارى، بادخارى؛ قالت العصفورة: توسلى، بتوكلى؛
قالت النملة: أعتد على الحب؛ قالت العصفورة: أتوكل على الرب. فلما
جن الليل، أقبل السيل؛ فخرجت النملة بالعموم، وبقيت الحبوب بين الدوم؛
فنزلت العصفورة وسجدت، والتقطت من مدخر النملة كل ما وجدت؛
وقالت: خسر المحتكر، وربح طالب الرزق المبكر، الكريم لا يفتخر بما
يدخر.

وصح عندى أن الوزير أعزه الله ليس عنده فى هذا كله كلام ولا قول
وأن الأمر عنده مَفَوَّض إلى الرب الذى له القوة والحوّل. وسمعت يا سيدتى
أن هذا السقم، أعظم تأثيره إنما هو فى قطع الأكباد، من صغار الأولاد؛
الذين من فوق السبع ودون العشر، وهم فى هذه السنين رياحين القلوب
العاطرة النشر؛ وهذا إلى كتبى لك أعظم داع، فإن الأولاد سوائى والوالد
راع؛ والراعى لا يترك غنمه فى الطريق سبع ضار، ولا قريباً من حريق نار؛
ومحن نشاهد الطير ينقل أفراخه من وكر إلى وكر، ويسترها بملثف الشجر إذا
خاف عليها عادية جارح أو صاحب مكر؛ فكيف لا نقتدى فى تأمين روعتنا

بمن تقدم من الأكابر، ونقف فى حامل السيل بأولادنا الأصاغر؛ فما عندك فى هذا كله من القول ومن الجواب؟ وما يظهر لك من وجه الرأى والصواب؟ اكتبى بذلك كتاباً أعتمد عليه، وأستند إليه؛ وقبلى عنى يد مولانا تقييلاً، ويا ليتنى وجدت إلى ذلك سبيلاً؛ وأخبريه أنى فى خدمته على نيتى الأولى، عاكفة على شكر منته الطولى؛ أدام الله حياة البلاد والنفوس بحفظه وحياطته؛ وأسمعنى البشارة بقدومه على محدث مالقة من حمراء غرناطة؛ ويحفظه فى النفس والأولاد والملك والبلاد، بمنه وفضله.

وكتب بتاريخ ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وثمان مائة. انتهت المقامة. وكلام المذكور كثير، ومحلّه من عذوبة المنطق أثير؛ أعلى طبقة من نثره طريقةً معرّيةً، حسبما يظهر ذلك بالتأمل لنفوس بالإنصاف حرية؛ وله عدة تأليف أكثرها هزلية، ولذلك لم أجلب شيئاً منها سوى ما تقدم، مما يقتضى ما أصلناه من المزية، والفضيلة للبلاد الأندلسية.

ومن أحسن مقطوعاته التى تطرح بها على باب الكريم، وتطفل بها تطفل من لا يبرح عن باب سيده ولا يريم؛ ويرجى له بها كل جميل، والله لا يخيب ما أمله من تأميل قوله رحمه الله:

عقيدة دين الحق أن محمداً	له الفضل إطلاقاً على كل مخلوق
وإن سبقت رسل بكتب وبعثة	فما هو فى مجد وفضل بمسبوق
فهذا إذا ما عشت أولى عقيدتى	وهذا إذا ما مت آخر منطوق

وقوله:

جئتك يا رب ولا عذر لى وهل لعبد السوء من معذره؟

أرجوك فيما أنت أهل له فأنت أهل العفو والمغفرة
وقوله فى مرضه :

يا سامعين الكلام مختلطا نظماً ونثراً قللاً ودرر
صلوا على المصطفى وسيلتنا محمدٍ وارحموا الفقيه عمر .
وأما الكاتب الرئيس أبو عبد الله الشران، فهو الشيخ الفقيه الرئيس
الصدر، العلامة العماد، الذخر الأرفع، العلم الأوحد، الأمجد الأسرى،
الذى لا يجارى فى الإنشاد والاختراع كلاماً جزلاً، وقولاً فصلاً، رئيس
الكتبة بالحضرة العلية، أبو عبد الله ابن الشيخ الفاضل الماجد الأعز الأرفع
الأوجه أبى إسحاق، كان حيا سنة سبع وثلاثين وثمان مائة . هذا كلام بعض
الأندلسيين فيه .

وقال القلصادى فى حقه : هو الفقيه الوجيه اللبيب اليقظ الأدرى،
الأديب الأحظى، الرئيس النبيل الأرقى؛ وحيد عصره وأوانه، وفريد دهره
وأقرانه، أبو عبد الله محمد الشران الغرناطى، تغمده الله برحمته .
وذكر هذا الشيخ القلصادى فى طالعة شرحه لأرجوزة أبى عبد الله
الشران المذكور، التى أولها :

بحمد خير الوارثين أبتدى وبالسراج النبوى أهتدى
وهى أرجوزة عذبة النظم، سهلة المأخذ مختصرة فى علم الفرائض .
ومن بديع نظم الكاتب أبى عبد الله الشران رحمه الله تعالى قوله :

فلا تمنع العين انهمالاً فإنه غرام شجٍ إسناده غير مهمل
أحاديث ترويهما الجفون عن الحشا ويثبت منها مرسل بمسلسل

وقوله يخاطب الفقيه الصالح سيدى أحمد بن حرشون، وقد أهدى له
قرص زعفران:

أهلاً بقرص زعفران أطلعت من حسنهما للقلب باعث أنسه
حيا الخلوص به وغير عجيبة للبدر أن حيا بقرص شمسه
يا نيرا للمجد أهدى نيرا كل امرئ إهداؤه من جنسه
وقوله:

لما اختفت شمسك عن ناظرى أرست منه مطر الدمع
وأقبلت ظلمة الليل النوى فما ترى فى رخصة الجمع
وحكى الحافظ أبو عبد الله التنسى رحمه الله أنه لما صرف الفقيه أبو
الفضل ابن جماعة عن رياسة الكتابة بغرناطة إلى قضاء الجماعة وولى مكانه
صاحب الترجمة أبو عبد الله الشران لقي بعض رؤساء الدولة ابن جماعة يوما
فقال له: يا سيدى إن السر الذى عهدناه فى الحضرة غاب عنها بغيبتك. فقال
له: وكيف لا وقد تركتم الفضل المجموع وأخذتم الشر المكرر.

ثم إن ابن جماعة كان عنده إعدار فدعا أعيان البلد إليه ولم يدع الشران
فكتب إليه الشران:

ماذا أعد المجد من أعذاره فى ترك دعوتنا إلى إعذاره
إن كان الرسم دون محضرنا اكتفى لا بد أن يبقى على إعذاره

ثم قال الشيخ التنسى: والشران هذا ممن له باع مديد فى الشعر وتصرف
حسن. انتهى.

ومن بديع نظم الشران المذكور قوله رحمه الله :

دوام الحال من قضايا المحال	واللطف موجود على كل حال
والنصر بالصبر محلى الطُّبى	والجد بالجد مريش النبال
وعادة الأيام معهودة	حرب وسلم والليالى سجال
وما على الدهر انتقاد على	حال فإن لحال ذات انتقال
من لىالى بائتلاف وكم	من اعتبر باختلاف الليال
أخذ عطاء محنة منحة	تفرق جمع جلال جمال
حال انتظام وانتشار معا	كأنما هذى الليالى لآل
وهل سنى الصبح وجنح الدجى	لخفة الأضداد إلا مثال
والظُّلَمَ الحُلُكُ على نورها	تدل والعسر يسر يدال
والسيف قد يصدأ فى غمده	ثم يجلى صفيحته الصقال
والشمس بعد الغيم تُجَلَّى كما	للغيث من بعد القنوط انهمال
والفرج الموهوب ترجى به	لطائف لم تجر يوما ببال
فصابر الدهر بحاليه من	حلو ومر واعتدا واعتدال
فما للصبر على حالة	وإنما الصبر حلى الرجال
ولا يضيق صدرك من أزمة	ضاقت فصنع الله رحب المجال

إلى هنا توجد هذه القصيدة بأيدي الناس ورأيت بخط بعض الأخيار
بعد هذا البيت زيادة كثيرة على ذلك منسوبة لصاحب القصيدة وهى لا تبعد

من نفسه على إنَّ فيها إبطاء . وهأنا أيضا أثبتنا بجملتها لغرابتها وجزالتها
ولا شتمالها على مديح المصطفى المجتبى ﷺ ونصها بعد قوله : «رحب
المجال» :

وانظر بلطف العقل كم كربة	فرجها لطف كحل العقل
وكل إليه كل حاج فما	لذى حجا إلا عليه اتكال
وكل بدء فله غـاية	وغاية الخطب الشديد انحلال
وكل عــــود فله آية	وأية العقل اعتبار المآل
وفى مآل الصبر عقى الرضا	من فرج يدنى وأجر ينال
عجبت للعبد الضعيف القُوى	يغر بالرب الشديد المحال
يهوى على الآمال مسترسلا	طوع الهوى حيث أمالته مال
تخدعها النفس بتخييلها	وهل خيال النفس إلا خبال
يخال أن الأمر جار على	تدييره هيهات مما يخال
الخلق والأمر لمن لم يزل	فى مُلكه المُلْك وما إن يزال
والفعل والتترك دليل على	مراده والكل طوع انفعال
يعطى فلا منع ويقضى فلا	دفع ويمضى حكمه لا ييال
يدبر الأمر فعن أمره	تقدير ما فى الكون سفلى وعال
يضل يهدى حكمة أنفذت	فضلا وعدلا فى هدى أو ضلال
وحكمة البارئ فى حكمه	ما لمجال العقل فيها مجال

والرب لا يسأل عن فعله
 فيا أخا الفكر اشتغالا بما
 سلم ففى التسليم من كل ما
 وارض بما فاتك أو نلتـه
 وفوض الأمر إلى الحق لا
 فذو الحجا فيما اتقى وارتجى
 يرضى بقسم الرب كل الرضا
 يرى خلال الشكر والصبر فيـه
 فهو على الحالين قد نال من
 ما أقصر الدنيا على مَرَّها
 فافطن لها حزما ففى ظلها
 ما يقظات العيش إلا كرى
 يا ليت شعرى والمنى عبـرة
 هل يستحيل العهد من صبوته
 والشيب هل يوقظنى صبحه
 وكسرتى من عسرتى هل تقى
 هذا زمانى فى تول وفى
 حال من احتل بدار البلا

قد قضى الأمر ففيم السؤال
 فى غيره للفكر حق اشتغال
 ينفذ تسليم وتنعيم بال
 فعكسه ما لك فيه مجال
 تركن من الدنيا لحال محال
 بالعدل حال ومن العذل حال
 فى كل حال ما عن العهد حال
 مما سر أو ساء أبر الخلال
 مناه فى الدارين اقصى منال
 كالظل ما أقصر مدّ الظلال
 ما قال حازم حيث قال
 ولا مرأى العين إلا خيال
 والشعر قول ينافى الفعال
 فقد مضى عهد الصبا واستحال
 فالنوم فى ليل من اللهو طال
 وعشرتى من عبرتى هل تقال
 عزمى توان والهوى فى توال
 ولم يحدث نفسه بارتحال

يا رب ما المخلص من زلتى
يا رب ما يلقاك مثلى به
يا رب لا أحمل حر الصبا
أم كيف عذرى وقد أعذرت لى
رحمتك اللهم فهى التى
ولا تعاملنا بأعمالنا
وبامتداح المصطفى هب لنا
فما سوى حبى للمصطفى
ذلك تجرى وعلى فضله
فإن يفز قدحى بمدحى له
ورائد الغر الغوالى على
أعظم بأمداح نبى الهدى
خير الورى من باد أو حاضر
فاديهم من فتكات الردى
حاميهـم بالعضب إذ لا حمى
منيلهم إذ لا جدى يرتجى
قريعهم فى بقات العلا
مؤويهم من حوضه من صدى
لا عمل لا حجة لا احتيال
عن طاعة لم ألقها بامثال
فكيف بالنار لضعفى احتمال
بأخذ حذرى من دواعى النكال
لها على العاصين مثلى انشال
لكن رجا آمالنا صل ووال
مآثم الفعل لبر المقال
وسيلة لى بعراها اتصال
طمعت فى الفضل بلا رأس مال
فقد يجل النور قدر الذبال
موثقة مما نوى من نوال
حبل اعتلاق أو شفاء اعتلال
أكرمهم من خاف أو ذى انتعال
هاديهم فى هلكات الضلال
كاليهم فى الخطب إذ ليس كال
مقيلهم إذ لا عثار يقال
شفيعهم فى عرصات السؤال
مؤويهم من جاهه فى ظلال

أطول من سال بسيب الندى
من خصه الله بخصل المدى
من باهر الحسن وفضل التقى
حال من العلم بأسنى حلى
نور مبين صادق فارق
أبيض يستسقى الحيا باسمه
الرحمة المهداة ضمن احتفا
كم آية جلى لنا أو تلا
ذو العرش أسمى قدره فاسمه
وذكره رَفَع فى ذكره
أعطاه دون الرسل خمسا كفت
لم يبعث الرسل اشتمالا وفى
وقسمة الأنفال حلاً وما
والأرض طهرا ومصلى لأن
والنصر بالرعب لشهر مدى
والنعمة الكبرى التى نالها
وليلة المعراج أسرى فما
جال وجبريل أنيس له
أصول من فى الحق بالسيف صال
فى كل ما عم الهدى من خصال
وحكمة النطق ومجد الفعال
واف من الحلم بأزكى خلال
مبشر هاد ختام كمال
كهف الأيامى لليتامى ثمال
والنعمة المسداة خلف احتفال
وغاية جلى بها دون تال
فى العرش مقرون مع اسم الجلال
حمدا لیتلو مدحه كل تال
يد امتنان العطايا الجزال
بعثته للثقلين اشتمال
من قبل كانت لنبي حلال
كان له كون بها واحتلال
ينازل الأعداء قبل النزال
شفاعة الأخرى ونعم المنال
أسرى وأسنى شرفا فى الليال
من السموات العلى حيث جال

حتى انتهى من سدره المنتهى
 قال له الروح مقامى هنا
 فقال: يا أنسى أفردتني
 فقال: كلا إنما الأئس ما
 طأ حضرة القدس اتصالا فما
 فزجّه فى النور زجا رأى
 شاهد ما شاهد مما ارتقى
 فقال قوم بفؤاد رأى
 وليس ذا وهو محال على
 حيث تدلى قاب قوسين أو
 وبعد ما فى النجم يتلى علا
 وباحتمال الجسم والروح فى
 وبانشقاق الصدر طفلا فقس
 لنسبة بينهما فى الهدى
 فنور هذا كم جلا من دجى
 كلا بل الأنوار حيث انجلت
 ولانشقاق البدر من نوره
 شق هلالين على صفحتي

إلى مقام لم ينله مقال
 وأنت فاصعد لمقام الوصال
 حيث دهنتى مدهشات الجلال
 أنت مـوال ولك الله وال
 أبيع منها لسواك اتصال
 وراءه للحق نور الجمال
 عن مبلغ العقل ووهم الخيال
 وعالم بالعين والقلب قال
 حال مقام الحب مما يحال
 أدنى نجيباً فى ظلال الدلال
 ثم أتى والنجم فى الأفق عال
 مسراه صح القول دون احتمال
 له انشقاق البدر عند اكتمال
 والحسن والقرب وبعد المنال
 ونور هذا كم هدى من ضلال
 حسا ومعنى منه كلا تنال
 أبدى انشقاقاً وهو تغيير حال
 ظلمائه فى كل شق هلال

والشطر منه لاستلام الثرى
بل أخجل البدر لنقصانه
هم سألوها آية أعرضوا
قالوا وقد خالوا^(١) بسحر أتى
بل عجبوا من نكتة الكون أن
وهجرة بل وصلة للرضا
ضفا لحجب الستردون العدا
إذ غار بالحكمة نور الهدى
وما اختفى من خيفة بل لأن
حيث ثنى بعد عنان الردى
هيل كثيب الطرف خسفاً به
أهوى كما أهوت بميلاده
نسبة حال كان من سرها
هناك هامت بالحمام العدا
فاطرد الكسر على جمعهم
والعنكبوت اعتمدوا حجة
فأعجب لهم بالواهن استوثقوا
ما أصدق الصديق فى قوله

بين يديه بالسلام استمال
فانحط منشقا لبدر انكمال
عنها وقد جاءت وفاق السؤال
فقلت هذا السحر سحر حلال
أعطاه رب الكون ما منه سال
وربما نيل بهجر وصال
فى الدار والغار عليه انسداد
فى الغار من غارة حزب الضلال
تظهر أسرار معانى المعال
سراقة عما سرى واستقال
عن كثب والصنع للطرف هال
من قصر كسرى الشرفات العوال
أن بسواريه غدا وهو حال
فحام حوليه حمام فحال
واطرد الفتاح له صدق فال
خالوا بها الغيل من الليث خال
ظنا وللبرهان هم فى جدال
عدل لنا فى حجج الصدق قال

(١) فى بعض الأصول: «خالوا» وفى بعضها الآخر: «جالوا»، ولعل الصواب ما أثبتته.

أشفق لا حرصًا على نفسه
يا أيها الصديق بشراك لا
فحكمة العصمة إحرازها
لله ما أشرفها عزة
نبوة لاحت براهينها
وهل جدال في عُلَى أوجبت
وإذ بدت في وجهه غُرة
ونوح اذ نُجِّىَ في فلكه
كـذا خليل الله في ناره
إذ قال جبريل له سل تنل
ونال إسماعيل منه الفدا
وهود استجلى لديه الهدى
وخلعة الإشراق منها اكتسى
والروح روح الله لاقى بها
فيا له نور انتقاء بدا
والشمس والبدر معًا والضحى
ونوره أجلى، وبرهانه
تفـجرت أئـمـله بالندى
بل غار من علق نفيس يذال
تحزن وشِمٌ للنصر أمضى النصال
ما بين أظفار الظبي والعوال
ليس لغير الله منها ابتهاج
قطيعة ترغم أنف الجـدال
وآدم في طينه ذو انجـدال
خرت له الأملاك طوع امتثال
كان على أنوار هذا اشتمال
من نوره أهدى هدى الخلال
فقال علم الحال حسب السؤال
بالذبح أو إسحاق إنَّ صح نال
ويوسف منها تحلى الجمال
بالطور موسى عند خلع النعال
بشرى تلقته صدور الرجال
في غرر الآباء منه انتقال
والشهب منه أشرفت والهلال
أعلى، وكم من دونها من معال
معنى وبالحس جرت بالزلال

وأنطق الطير بتصديقه
وسبّحت في راحتيه الحصى
والجذع إذ عوض من وصله
وهل إلى آياته منتهى
فما بليغ بالغاً وصفه
وبعد مبدا نون أو منتهى
يا سيد الكونين فضلا به
يا سابق الرسل اصطفاء ويا
يا ملجأ الخلق ومنجاهم
يا من به نال المحب الرضا
رحماك فينا يا نبي الهدى
رحماك في أوطاننا راعها
رحماك في سلطاننا واله
رحماك في غربتنا كن لها
رحماك في كربتنا حلها
رحماك في عيلتنا أغنها
رحماك في قلتنا زكها
صالت علينا بالوفور العدا
وأفصح الذئب به والغزال
وانهزم الجمع لحشو الرمال
بفصله حن حنين الفصال
وعن غاياته النجم آل
يقصر عن ذاك المقام المقال
براءة ماذا عسى أن يقال
قد ساد في الأولى ويوم المآل
خاتمهم جمعا لمعنى الكمال
إذا بهم ضاق انفساح المجال
ويا شفيعا في الذنوب الثقال
فلم تزل رحماك ذات انهمال
من لحظك الأحمى بعين ابتهاج
من نصرك الأمضى بأرضى نوال
أنسا فإنَّ العهد بالأنس طال
منك بسر فهى رهن اعتقال
أنا على رفدك طُراً عيال
زكاة تكثير لجاه ومال
وهل على راجيك غوثا يصل

صالت بَعْدُ واعتداد مَعًا وما على ذاك الحمى يستطال
خالَت بأنا لا غياث لنا حاشى غياث الخالق مما يخال
وبالغنى اختالت وما إن لنا فى غير أفياء غناك اختيال
فأنت للخلق ملاذ الورى والوزر الأحمى لدى ذى الجلال
صلى عليك الله نور الهدى أزكى صلاة قرنت باتصال
انتهت القصيدة . ومن ذلك قوله رحمه الله :

لك يا فقيه وضعت خدى فى الثرى طمعا بوصلٍ منك غير مؤجل
فأجاب ذلك لا يجوز لأنه عندى رباً من باب ضع وتعجل
وقوله :

لى سيد زار وما زرتة فمنى النقص ومنه التمام
إن يحتمل سهوى ففقه مضى لأننى المأموم وهو الإمام
وطالما زار الغمام الثرى ولم يزر قط الثرى للغمام
وقوله رحمه الله ، وهو غاية فى بابه :

بعثت بها ذكرى على ثقة إلى مؤمل وعد من لقائك مرقوب
فما زلت فذا فى رءوس ذوى العلى وما وعد رأس مثل موعد عرقوب
وقوله :

عاب منى العداة شعراً وثغراً رميا فى الصبا بشيب وشين
قلت : لا عيب فى ما دام فضل فى النهى واللسان والشفنتين

وقوله :

قلت لما جبرت بالعاج ثغراً ولقد رمت بالمحال احتجاجاً
صاح لا بأس أنَّ يعوج شبابى بالتلاقى أما ترى الثغر عاجا
وقوله :

أترانى أحوط الثغر ربطاً فأضحكت وتاهت بثغر بالجفون يحاط
فقلت لخوف الحل منه ربطته أينكر فى الثغر المخوف رباط
وقوله :

إلهى لك الشكوى وحسبى رحمة نداؤك فى شكوى الخطوب إلهى
وحقك ما للهو أبدعت خلقي وهأنا فى غى البطالة لاهى
بنفسى وشيطانى ودياى والهوى فتنت ولكن أنت حسبى لاهى
ولنختم ما أردنا جلبه من نظمه الذى هو بحر لا ساحل له بقوله :

يا رب قلت وقولك الحق الذى أحكمت: انك تستجيب لمن دعا
فاختم لعبدك بالرضا واحكم له بالستر فى الدنيا وفى الأخرى معا

وأما الرئيس أبو يحيى بن عاصم فهو الإمام العلامة، الوزير الرئيس،
الكاتب البليغ الجليل الخطيب الجامع الكامل، الشاعر المفلق الناثر، الحجة،
والخاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق، القاضي محمد بن محمد بن محمد بن
محمد بن محمد بن عاصم القيسى الأندلسى الغرناطى، قاضى الجماعة بها،
كان رحمه الله تعالى من أكابر فقهاءها وعلمائها، أخذ عن الإمام المحقق أبى

الحسن بن سمعت^(١)، والإمام القاضى أبى القاسم بن سراج، والشيخ الراوية أبى عبد الله المنتورى، والإمام أبى عبد الله البيانى وغيرهم، وذكر فى شرحه تحفة والده أنه ولى القضاء عام ثمان وثمانين وثمان مائة، وله عدة تأليف منها شرحه العجيب على تحفة والده فى الأحكام، وهو كتاب نافع، فيه فقه متين، ونقل صحيح، وكانت بينه وبين عَصْرِيهِ الإمام مفتى غرناطة أبى عبد الله السرقسطى، مراجعات ومنازعات فى مسائل فقهية. ومن تأليفه رحمه الله: كتاب جنة الرضى، فى التسليم لما قدر الله وقضى؛ وكتاب الروض الأريض، كأنه ذيل به إحاطة ابن الخطيب، وله غير ذلك^(٢)، وسنذكر شيئاً من كلامه بعد هذا إن شاء الله تعالى. ومن أغرب ما صدر عنه، رضى الله عنه، قصيدة، تنفك منها قصيدتان أخريان بديعتان، إحداهما من المكتوب الأحمر، والأخرى من المكتوب بالأخضر، وكل واحدة من هاتين البنتين تلد موشحة، كما ستره، وقد ألفيتها بخط بعض أعلام سبتة، وهو الفقيه أبو عبد الله محمد ابن على بن محمد بن فرج، وجده محمد بن فرج هو الذى نأتى بجملته من نظمه فى النعل النبوية، عند ما نتعرض لذلك إن شاء الله تعالى، فى محل هو أنسب من هذا الموضع، وقد سقط من هذه القصيدة نحو ثلاثة أبيات، فعوضتها بغيرها على ذلك السنن، على أن بعض كلماتها لم تسقط إلى طرف.

ونص ما كتبه السبتي المذكور من نظم السيد الأستاذ العلم الصدر المفتى القاضى رئيس الكتاب، ومعدن السماحة، ومنبع الآداب سيدى أبى يحيى بن عاصم رحمه الله ورضى عنه، يمدح السلطان العادل المقدس المنعم المرحوم المجاهد، أبا الحجاج يوسف بن نصر، قدس الله روحه، ونضر ضريحه، قال: ونقلتها من خط ناظمها رحمه الله. انتهى. وهذه هى القصيدة:

(١) كذا فى سائر المراجع التى ترجمت له، وفى متن المطبوع: «سمعة» وبهامشه: «كذا فى

نفح الطيب (الطبعة القديمة) وفى الأصلين: «سمعت» وهو تحريف.

قلت: ليس هذا بتحريف، بل أورد المقرئ فى نفح الطيب (ط. دار صادر) الوجهين، وانظر النسخ ج ٢ ص ٦٩٧، ج ٣ ص ٥٢٤، ج ٦ ص ١٤٨. أما سائر كتب تراجم المالكية فقد أوردته: «سمعت» وانظر فى ذلك: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج ج ٢ ص ١٧٨، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج ٢ ص ٢١٨.

(٢) أوردته المقرئ فى نفح الطيب ج ٦ ص ١٤٨ بحروفه.

أما الهوى ما كنت مذ بان عهده
رعى الله لو أنصف الصب فى الهوى
ولو جاد من بعد المطال بروزة
كما خان صبرى يوم أصبح وأصلى
لذلك أسال الدمع كالدرد مدمعى
حكى لأولوا من سلكه متناثرا
ذخرت الثمين القدر منه بمقلتى
ولا عجب مذ أعوز القرب أن غدا
أيلحق باللقيا أو الوصل من يغو
وصير جسمى للصبابة وابتلى
أقطع أنفاسى عليه كآبة
فمن شعره الليل البهيم ومن سنى
بحكم الدلال الجور حكم جوره
له معطف مستحسن القد ناعم
رمى فى فؤادى جمرأ اذكى لهيبه
فيعقب من نار الحيا عاطر الشذا
ويبدو بآفاق الجمال هلاله
كأنّ الظبى فى مرتع الطرف لحظه
أهيم بلقىا من تناثر وده
لما فاض منه الدمع مذ بان صده
لما شب اشواقى وقلبى زنده
لظى زاد ماء من جفونى وقده
من الوجد فاستولى على الجفن سهده
والأليم قد تتابع مده
وما زلت من خوف النكال أعده
وكالقمر الزاهى سناه وبعده
ر فى نوره بدر السماء وجنده
يتم قلبى إذ تمكن وجده
والله من بدر لغيرى سعده
مقبله للحسن نور يمه
ومن شأنه ألا قرين يرده
به علقت فى الحب بالرغم أسده
به ظبى أنس قد تلهب خده
كأننى بذاك الخال قد نم نده
له الليل فرعاو الكواكب عقده
كأنّ القنا فى اللين والفعل قده

يروق العيون العطف منه فشبهت
 ويا نعم ورد الخد لو جاز قطفه
 يجول به ريق شهى يحيلنى
 ويحمى المحيا واللمى بلواحظ
 فله من ريم ضلوعى كناسه
 ويمنع منه المستهام فما له
 وبالحسن منه يستييح حمى النهى
 ويلوى بدنى فى الهوى وهو موسر
 أفى العدل أن يحكم بتحريم ريقه
 تخيلته لو نيل بالنهب فى الكرى
 فأجنى كما شاء الوصال رضابه
 ويشفى بذلك المبسم العذب ريقه
 وحلو الجنى مر الجفا باهر السد
 بدا فى المثل كالغزال محاسنًا
 وللحب يدعو لحظه الأوظف الورى
 تملك رقى طرفه مع سقمه
 وأظهر مكنون الهوى منذ جار فى الـ
 وقد كان تحت الكتم عذرى ووجده

به قضب البان اعتدال وملده
 وطيب رحيق الثغر لَوْحَلَّ ورده
 إليه لظى فى القلب قد شب وقده
 عن الدنف المغرى به فتصده
 وروض يسقيه من الدمع عهده
 وفى لثمه لو جاد باللثم قصده
 وكل المنى واليمن يحويه برده
 له در ثغر لَوْ يُنَالُ وعقده
 لأن كان للشهد المعلل ورده
 وما ذقته يشفى من السقم شهده
 ويجنى على قلبى هواء وصده
 فؤادى إذ يشفى بلثمى خذه
 نى له نهب هذا القلب قسرا ورده
 وتخشاہ أبطال العرين وأسده
 ألا هكذا قلب المشوق أقده
 وبالشرع فى حكم الغرام يرده
 مُعْنَى الذى قد طال فى الحب جهده
 فأسهر منه ما اختفى قبل صده

ويحسبه في الحكم بالجور كالورى
إذا بالظنون الكاذبات يناله
يلوح سنانه للمشقوق وقربه
وفى مجتلاه الباهر الحسن والروا
وأنعش بالإنصاف مهما بدا وإن
ويديه نور الحسن وهنًا لمقلتي
يميل على المشتاق بالهجر حكمة
فيا هاجرى والصد قاتل
أما والفتون البابلى وسحره
ويا مقولى مالى سواك مؤزر
فصغ لؤلؤء من مدحى ابن ملوكنا
منَ اورثه الملك المؤصل نصره
لباب العلى قطب المعالى وتاجها
به قد غدا ثغر الهدى وهو باسم
وأضحى الكمال طوده فإنَّ أعتدى
ومهما عفا عاد الحجا وهو قائل
وبالشم يزرى عقله الأرجح الذى
فمعنى الحلى تهديه للقلب ذاته

وهل بالسليم القلب يحسب ضده
ينام فكم عم الليالى سهدده
عليه حرام إذ يحلل بعده
حياتى، وشبه القتل للنفس فقدده
أرى منه ظلمًا عاود القلب وجده
ويخفيه فرع فاحم الوصف جعده
فمنه استعمار الميل عنى قدده
وروض نعيمى فى رضاك وخلده
ليقننى هزل الوصال وجده
فخل الهوى وامدح لمن حق حمده
إمام الورى الباهى على الخلق رفده
وأكسبه المجد المؤثل سعده
وبدر أهدى الوضاح فى الدهر سعده
منير سنانه مشرق الأفق سعده
على البدر نقص فالجبين يمدده
كذلك الحلم والصفح الذى أستعده
لنحو المعالى والمجادة قصده
وسر العلى يديه للعين مجده

ومن كفه غيث الندى وغمامه
إذا انهل منه الواكف الثر للورى
تخال هتون البذل منهن زائلا
وكل نوال هامل من بنانه
وفيض نداه يشرح الحال إنه
وفى غيشه الشجاج للمعتفى الغنى
وللفضل والإحسان والبأس سبقه
وأفعاله عند استباق المدا شأت
له مشرفى دائم القطع للطلا
وبين سكون فى الندى من الحجا
وزينه من قصده الجمع للعلا
وحزم وعزم بين بكر وثيب
فيوم الندى الإسلام يسعد دهره
ومن بأسه أضحى الحما متمنعا
وتمسى عداه كالحميم شرابهم
ويغدو الموالى فى سرور وغبطة
قد اعتاد ترك الكافرين وشأنهم
فأبطالهم رهن الفناء ومالهم

ومعنى السماح المستماح ورغده
فصفو الندى والجود قد لذ ورده
يكيفه برق الجلال ورعده
فأقصى صفات الجود قد جاز جوده
يمد الحيا فى السماح إذ يستمده
إذا بالأيدى منه يبدأ رفده
وللملك والإسلام والعلم عضده
وفعل ظباه بالكمأة وجرده
فكل كمى للعدا فيه فقد
وبين مضى بالقتال يعده
كما زين السيف الصقيل فرنده
به المرهف الماضى يفلل حده
ويوم الوغى الإشراك يتعس جده
وللفخر منه صارم يستعده
وما شيدوا فى دهره فيهدده
من البشر أبكار وعون توده
لهيب وشأن هامل الدمع ورده
إلى البذل عقباه وبالسيف رده

ولم يبق إلا من حمى الحسن للعطا
ولأصبح فى العلياء كالبحر كفه
فصوب الحيا فى جوده برقه الظبى
نداه المعين الثَّر قد نعم الهدى
وأحكم رفع الملك إذا نصب العدا
أيا سامى القدر الذى جل ذكره
صفاتك فى العليا عزيز منالها
فما شتته من عزة الجار والحمى
وابعدت فى وصف العلى عن مسابق
وجودك فيه ذو الرجا مغرم فإن
وكم من فنون يستمد بها الضحى
وكم بات يتلو سورة الفتح عزمه
وأصبح باستحقاقه الحمد من أولى الـ
بعدل وإحسان قد آخت كليهما
وبأس وبطش يحميان حمى الهدى
وحلم وجودها تن ومكارم
وكيف ينال المدح أوصاف ماجد
يعم بعفو خص بالذنب مطلقه
وللسيف نصر يا بن نصر على العدا

وشفع فى أحيائه منه خده
كما قد غدا مثل الجواهر رفته
يربك هشيم الكفر مما يقده
ويشفى به حزب الضلال وجنده
على حال ذل نال من ضل جهده
ويا محرز المجد الذى عز نده
لها كل طبع أحرز الفضل فرده
وقد رسما فوق السماكين مجده
لها وتدانى من نوالك رغده
حمى جوده ذم المهلب أزده
إذا مــــا تناءى لمنال ممد
ويحكم مثل الأمر والنهى وجده
عدالة فى الأحكام قد بان رشده
حلاه كما آخى المهند غمده
فحتى لقد تلفى مع السرح أسده
علاهن كل الوصف عنها وجهده
يود العلا حينا وحينا توده
وتهدى إلى الرشد المبين ألد
فساعة إذ يجلى جلى الكفر حده

وللملك عز أكسب الذل من بغى
ففى ذمة العلياء تلك الحلا العلى
أنرت بها من فاحم الظلم ما دجا
فزالت دجون الجور عن مطلع الهدى
هو الملك لم تغطه إلا نزاره
وفى متتهاك الأشرف الأصل للورى
ويمناك يوم الجود ترب الحيا اغتدت
لك المرهف السفاح بالفتح مشنى
وجمعت شتى الجود فى وتر راحة
فكم كامل الأوصاف والذات ماجد
على يمين قلتها غير حانث
فقد عز فى الدنيا له المثل فى العلى
وأين المسامى والمضاهى مجادة
كريم المساعى حافظ الدين والهدى
ففى الفخر أضحى الفضل والمجد طبعه
ومحتده السامى الكريم نجاره
فشتى الخلال العز جمعهن عنده
ودونك يا مولاي حسناء غادة
مرنحة الأعطاف تلعب بالنهى

فحاقت به من مؤلم القهر نكده
ولما بدت للدين أنجز وعده
فلجت سعودهن للملك عضده
فنور سناه فى اقتبال وسعده
بما ليس فى إمكانها ومعه
دليل يحوز الشفع فى المجد فرده
ألا فهى أقسام السمع وحده
مع العلم الموعد بالنصر جنده
فغيث الندى منها قد انهل عهده
إلى ذلك الهامى العميم مرده
لجودك تنظم النوال ونضده
فما يوسف إلا الحيا طاب ورده
لناصر دين الله والمجد مجده
ذو الإنعام والفضل المبجل عقده
وفى الدهر أمسى ليس يوجد نده
يمائله فى رفعة القدر بنده
بما حاز من علم ودين يمه
مهذبة كالدرد نظم عقده
فتسبى الحجا طورا وطورا ترده

هدية عبد مخلص لك قلبه وفى تلکم الذات الکریمه وده
فألفاظها تحكى جمان دموعه وقرطاسها يحكيه فى اللون خده
قال جامع هذا التصنيف: أشار الرئيس أبو يحيى بهذا الشطر الأخير
إلى الكاغد الأصفر الذى كانت فيه هذه القصيدة مكتبة، ثم قال:

وأنقاسها من كل لون غريبها وترتيبها من ذاته يستعده
فأكحلها من مقلتي أستمичه وأحمرها من أدمعى أستمده
وأخضرها من طيب عيشى الذى مضى لديك وأرجو بالرضا تسترده
وأعجب شىء أنها بكر فكرتى وما بلغت معشار شهر نعه
وقد ولدت بتين ثنتين مثلها يروقك من معناها ما توده
وكلتاها قد جردت من نظامها موشحة كالسيف راق فرنده
فخذها ففيها للنواظر مسرح ومن مدحك الحسن الذى تستمده
بقيت كما تهواه ما هبت الصبا فمالت بها بان العذيب ورنده
انتهت القصيدة الفريدة، وهأنا أذكر البتين اللتين ولدت، ثم أذكر ما
ولدت كل واحدة منهما بحول الله وقوته.

فأما القصيدة الخارجة من المکتوب بالأخضر فهذا نصها، وتوشيحها
يتنظم من المکتوب فيها بالأخضر وهى هذه:

تناثر الدمع من جفونى كالدّر من سلكه الثمين
مذ أعوز الوصل والتلاقى من بدر حسن بلا قرين
علقت فى الحب ظبى أنس جماله مرتع العيون

وحل فى القلب عن كناس
يحكم بالنهب فى فؤادى
أهكذا الشرع فى المعنى
يحلل القتل منه ظلما
مالى سوى مدحى ابن نصر
ذا الحلم والصفح والمعالى
قد جاز فى السمح والأىادى
وقصده الجمع بين بكر
وشأنه البذل للعطايا
نال من المجسد كل طبع
وسور الحمد من حلاه
تهدى إلى الرشـد إذ تجلى
كأنها الشفع فهى مثنى
قل له المثل والمضاهى
انتهت البنت الخضراء، وهذا نص بـتـها الموشحة، المستخرجة من
الأخضر:

تناثر الدمع، كالدر مذ أعوز الوصل من بدر
علقت فى الحب جـمـالـه

وَحَلْ فِي الْقَلْبِ	فَمَالَهُ
يَحْكُمُ بِالنَّهْبِ	إِذْ نَالَهُ
أَهْكَذَا الشَّرْعَ الْعَذْرَى	يَحْلِلُ الْقَتْلَ بِالْهَجْرِ
مَا لِي سِوَى مَدْحِي	بَدْرُ الْهَيَّوَى
ذَا الْحَلْمِ وَالصَّفْحِ	غَيْثُ النَّدَى
قَدْ جَازَ فِي السَّمْحِ	سَبَقُ الْمَدَى
وَقَصْدَهُ الْجَمْعَ لِلْفَخْرِ	وَشَأْنَهُ الْبَذْلَ كَالْبَحْرِ
نَالَ مِنَ الْمَجْدِ	وَصَفَّ الْعَمَلَا
وَسُورَ الْحَمْدِ	لَقَدْ تَلَا
تَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ	تِلْكَ الْحِلَى
كَأَنَّهَا الشَّفْعَ فِي وَتَرٍ	قَلَّ لَهَا الْمَثْلُ فِي الدَّهْرِ

انتهت .

ويمكن أن تستخرج باختصار هكذا:

تناثر الدمع، مذ أعوز الوصل

علقت في الحب، وحل بالقلب، يحكم بالنهب

أهكذا الشرع، يحلل القتل؟

مالى سوى مدحى ، ذا الحلم والصفح ، قد حاز فى السمع

وقصده الجمع ، وشأنه البذل

له من المجد ، وسور الحمد ، تهدى إلى الرشد

كأنها الشفع ، قل لها المثل

انتهت .

وأما البنت الحمراء فهى الخارجة من المكتوب بالأحمر ، وتوشيحها

ينتظم من المكتوب فيها بالأحمر ، وهذا نصها :

ما كنت لو أنصف بعد المطال أصلى لظى الوجد الأليم النكال

كالقمر الزاهى فى نوره عليه كالليل البهيم الدلال

مستحس القد ذكى الشذا كالليل فرعا والقنا فى اعتدال

مورّد الخد شهى اللمى فى لثمه كل المنى لو ينال

كأن للشهد وما ذقته رضابه العذب الجنى فى المثال

ولحظه الأوطف مع سقمه أسهر منه كالسليم الليال

وحسنه الباهر مهما بدا لمقلتي منه نعيم الوصال

خل الهوى وامدح إمام الورى قطب المعالى والهوى والكمال

طود الحجا الأرجح سر العلى معنى اليماح والندى والجلال

نواله يشرح للمعتفى فعل ظباه بالعدا فى القتال

لسيفه المرفف يوم الوغى أضحى الحمام كالحميم الموال

فيترك الكفر رهن الفنا وقد غدا مثل الهشيم الضلال

مرفع القدر عزيز الحمى	وقد تدانى جوده للمنال
مثل الأمر والأحكام قد	حمى الهوى وجوده أن ينال
وخص بالنصر على من بغى	لما بدت سعوده فى اقتبال
الملك الأشرف ترب الحيا	غيث الندى الهامى العميم النوال
يوسف الناصر دين الهدى	ذو الفضل والمجد الكريم الخلال

انتهت البنت الحمراء .

وهذا نص موشحتها، وهى بنتها، الخارجة منها من المكتوب بالأحمر:

ما كنت لو أنصف	أصلى لظى الوجد الأليم
كالقمر الزاهى	عليه كالليل البهيم

مستحسن القد	كالليل فرعاً والقنا
مورد الخد	فى لثمه كل المنى
كأن للشهد	رضابه العذب الجنى

ولحظه الأوطف	اسهر منه كالسليم
وحسنه الباهر	لمقلتى منه نعيم
خل الهوى وامدح	قطب المعالى والهوى
طود الحجا الأرجح	معنى السماح والندى
نواله يشرح	فعل ظباه بالعدى

لسيفه المرفه أضحي الحمام كالحميم
فيترك الكافر وقد غدا مثل الهشيم

مرفع القدر وقد تدانى جوده
ممثل الأمر حمى الهوى وجوده
وخص بالنصر لما بدت سعوده

الملك الأشرف غيث الندى الهامى العميم
يوسف الناصر ذو الفضل والمجد الكريم
ويمكن اختصارها أيضاً هكذا:

ما كنت لو أنصف، كالقمر الزاهر

مستحسن القد، مورد الخد، كأن للشهد

ولحظه الأوطف، وحسنه الباهر

خل الهوى وامدح، طود الحجا الأرجح، نواله يشرح

لسيفه المرفه، فيترك الكافر

مرفع القدر، ممثل الأمر، وخص بالنصر

الملك الأشرف، يوسف الناصر

قلت: وإنما لم أجزم بهذه المختصرة لأجل أن الناظم صرح بأن كل واحدة من البنتين الحمراء والخضراء لم تلد إلاّ موشحة واحدة من البنتين، ولو ولدت موشحتين لصرح بذلك، ولا شك أنّ الموشحة غير المختصرة أتم معنى، وأكمل مساقاً، فالأصوب الاختصار عليها، وإن كان يمكن استخراج أكثر منها لمن تأمل حق التأمل، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال فقد أبدع هذا الرئيس فى هذه القصيدة، وإن كان فيها بعض تكلف، وقصده ابداع من قصد صاحب عنوان الشرف الوافى^(١)، لأن هذا اخرج من الخارج شيئين على ما لا يخفى، غير أنّ صاحب عنوان الشرف أطال، واستخرج أربعة علوم متباينة، من أول وهلة، وكلاهما قد أبدع رحمهما الله؛ ولم أتحقق: هل وقف ابن عاصم على كتاب عنوان الشرف، فاهتدى بأضوائه أم لا؟ والله تعالى أعلم.

ومن كتاب جنة الرضى له رحمه الله ما نصه:

«الحمد لله الذى عوض من الخلاف وفاقاً وأعقب من الافتراق اجتماعاً واتفاقاً، وهياً لأسواق الائتلاف برفع الخلاف نفاقاً، ويسر لوطن الجهاد من توثير المهاد أرفاقاً، وزين بأنجم المسعود من النصر الموعود آفاقاً، وعقد على جمع الكلمة من الأمة المسلمة إجماعاً وإصفاً. نحمده سبحانه وهو المحمود بجميع اللغات، ونشكره على ما سنى من آمال على وفق الأمنية مبلغات، ونثنى عليه بما أسدى من عوارف مخولات، ومواهب مسوغات؛ حمداً نستكثر من درره النفيسة إنفاقاً، وأمانته العظيمة فلا نأبى من حمدها إشفاقاً؛ ونشهد أنه الله لا إله إلاّ هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد؛ شهادة نرفع لواءها المرنح العذبات خفاقاً، فلا

(١) فى الأصول: «الشامى» وصوابه من كشف الظنون وفيه: «عنوان الشرف الوافى، فى الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافى».

لاقى بعد هذه الشهادة لمقاصد السعادة إخفاقاً؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً ﷺ عبده ورسوله، ونبيه المصطفى وخليفه؛ نبى الرحمة، ونور الظلمة، وشفيع الأمة، والمبعوث بالكتاب والحكمة، والمجموع له بين مزية السبق ومزية التتمة؛ شهادة تستحفظ بقاع الأرض أرفاقاً، فلا تخشى معها القلوب، وقد حصل منها الغرض المطلوب، شكاً ولا نفاقاً؛ ونصلى على النبى الكريم، المبعوث بالخلق العظيم؛ صلاة نحل بها من عقلة الذكر وثاقاً، ونؤكد بها القبول إذا عارض العمل المقبول ميثاقاً؛ ونرضى عن آل محمد وصحبه، وعشيرته وحزبه، المختصين بالقربة، الفائزين بالرضا من ربه؛ أكرم الناس أعراقاً، وأعظمهم من خشية الله أطراقاً، وأبهرهم فى مقامات الهداية إشراقاً؛ ونستوهب منه التأييد والنصر، والفتح الذى تفوت عجائبه الحصر، والمنح الذى لا تعرف صلاةُ صلاته القصر؛ لهذه الخلافة الغالبية، التى أطبقت على الإغضاء أحداقاً، وأظهرت من الحلم لما كان من مكنون العلم مصداقاً؛ ونبتهل إلى الله فى دوام أيامها، وإعلاء إعلامها، وإمضاء ذابلها المهرج وحسامها؛ حتى يتنفس الإسلام خناقاً، وتسير بها الرفاق، وقد تهادتها الآفاق، وخدأ وإعناقاً، وتخضع لها الجبابرة، والملك القياصرة، رقاباً وأعناقاً؛ ونمد إليه يد الافتقار، ونسبط كف الضراعة والاضطرار فى كف الفتن عن هذا الوطن وكف الكفار عن هذه الديار وتيسير الفرج القريب لهذا القطر الغريب وتسهيل الصعب العسير لهذا الصعق النائى عن الولى والنصير فيجمع بين القلوب النافره والنفوس المتنافره افتراقاً ويجعل دم العداة بسيوف الحماة الكماة مراقاً ويتحف بأنبائه المعجبة وأخباره المغربة المطربة شاماً وعراقاً.

أما بعد^(١) فإن الله على كل شىء قدير وإنه بعباده لخبير بصير وهو لمن أهل نيته وأخلص طويته نعم المولى ونعم النصير بيده الرفع والخفض والبسط

(١) نفع الطيب ج ٦ ص ١٤٩ .

والقبض والرشد والغى والنشر والطى والمنح والمنع والضر والنفع والبطء والعجل والرزق والأجل والمسرة والمساءة والإحسان والإساءة والإدراك والفوت والحياة والموت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون فهو الفاعل فى الحقيقة وتعالى الله عما يقول الآفكون وهو الكفيل بأن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون وإن فى أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان عنده قلب أو ألقى السمع وهو شهيد وعبرة لمن تفهم قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَإِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ فبينما الدسوت عامره والولاية أمره والفئة مجموعته والدعوة مسموعه والإمرة مطاعه والأجوبة سمعا وطاعة إذا بالنعمة قد كفرت والذمة قد خفرت».

ثم قال (١) رحمه الله:

«والسعيد من اتعظ بغيره ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا جعلنا الله ممن قضى بخيره وبينما الفرقة حاصلة والقطيعة فاصلة والمضرة واصلة والحبلى فى انبتات والوطن فى شتات والخلاف يمنع رعى متات (٢)، والقلوب شتى من قوم أشتات والطاغية يتمطى لقصم الوطن وقضمه ويلحظه لحظ الخائف على هضمه والأخذ بكظمه ويتوقع الحسرة إن يأذن الله بجمع شمله ونظمه على رغم الشيطان ورغمه إذا بالقلوب قد اتتلفت والمتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله وازدلفت والمتضرعة إلى الله قد ابتهلت فى إصلاح الحالة التى سلفت فألقت الحرب أوزارها وأدنت الفرقة النافرة مزارها وجلت الألفة الدينية أنوارها وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ورفعوا الوحشية الناشبة أظفارها وأعذارها وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ١٤٩.

(٢) المتات: ما يتوسل به من حرمة أو قرابة أو نحو ذلك.

وغصت الفئة المتضرعة أبصارها وأصلح الله أسرارها فتجمعت الأوطان بالطاعة والتزمت نصيحة الدين بأقصى الاستطاعة وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعة وألقت إلى الإمامة الفلانية يد التسليم والضراعة فتقبلت فيئاتهم وأحمدت جيئاتهم وأسعدت آمالهم وارترضيت أعمالهم وكملت مطالبهم وتمت مآربهم وقضيت حاجاتهم واستمعت مناجاتهم وألستهم بالدعاء قد انطلقت ووجهتهم إلى الخلوص قد صدقت وقلوبهم على جمع الكلمة قد اتفقت وأكفهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتلقت وكانت الإدالة فى الوقت على عدو الدين قد ظهرت وبرقت».

إلى أن قال^(١) رحمه الله تعالى :

«وكفت بقدرة ربه القدرة القاهرة والعزة الباهرة من عدوان الطاغية غوائل بإعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فواتح وأوائل . ومعلوم بالضرورة أن الله لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها دليل على سوغ الكرم والجلود وإنَّ من أعظم نعمه التى يُعْجِزُ عن أداء شكرها وإن طالت آماد الأعمار ويتناغى فى الثناء عليه فى أمرها فلا يبلغون من ذلك معشار المعشار وتتجارى الألسنة والأقلام فى تقرير وصفها فلا تصل من ذلك إلى حد يقنع ولا إلى مقدار وفى مثلها قال الله تعالى : ﴿...وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ...﴾ [آل عمران]. وما ذلك إلا منة قدرها عظيم وخطرها جسيم وصراط العدل بها مستقيم وبها امتن الله فى قوله : ﴿وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ...﴾ [الأنفال] إلى : ﴿حَكِيمٌ﴾. فهل يستطيع شكر النعمة التى لا يكون إنفاق الأرض جميعها أهل

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ١٥٠ ..

قيمه أو يختلف اثنان بوجه أو حال فى كون هذه النعمة عظيمه أو يتمارى
أحد فى كون جمع الكلمة فى هذا الوطن الغريب منة ومنحة كريمه!
ومن استقرأ التواريخ المنصوصة وأخبار الملوك المقصوصة علم أن
النصارى دمرهم الله لم يدركوا فى المسلمين ثارا ولم يرحضوا^(١) فى أنفاسهم
عاراً.

قال جامع الموضوع وفقه الله:

قد قدمت هذا من كلام الرئيس ابن عاصم وهو قوله: «ومن استقرأ
التواريخ المنصوصة فراجعه فيما سبق إلى قوله هناك: «وروية وارتجال».
ثم قال هنا بإثره ما نصه:

«إلى أن استقلت هذه الدولة الفلانية على قواعدها واستقرت بأحلامها
الراجحه وأعلامها الشامخه واستمرت على قوانين من السياسة كانت ضابطة
نشر المملكة عن الأفتراق واستظهرت أبنائها الغر من الوفاء بشم اعتلقت بها
أتم الاعتلاق فحفظ الله الدولة الفلانية إلا فى الندرة ووقاها من ذلك الأمر
الصعب بوقاية من الاكتساب ووقاية من القدر وتناولت الأيام ما بين مهادنة
ومقاطعة».

وقال جامع الموضوع وفقه الله: راجع تمام هذا الكلام فيما قدّمناه إلى
قوله هنالك: «اللهم احفظ علينا العقل والدين واسلك بنا سبيل المهتدين».
وقال هنا بإثره ما نصه:

«وإنّما النعمة التى لا يقدر قدرها ولا يوفى شكرها هى التى تكلفت

(١) فى سائر الأصول: «ولم يرفعوا» والمثبت لدى المقرئ فى نفح الطيب ٥٠٨/٤.

بتبيينها تكييفات الأقدار وانجلت عن بيانها تدبيرات الفاعل المختار فجمع الله بها القلوب وهياً الغرض المطلوب وتتابعت بيعات البلاد وتوافقت أهواء العباد وانتظم الملك جسماً واحداً له روح ظاهر واستقل الإسلام رسماً ثابتاً حكمه نص وعدله ظاهر وهدى الله المسلمين مع جمع الكلمة إلى القصد الشرعى ووفقهم إلى القيام بحكمه المحتوم وحقه المرعى فاتخاذ السلطان فى مثل هذه الأوطان واجب قياساً وسماعة وتعذر الخلافة فى مثل هذه المسافة غير جائز إجماعاً .

أيها الملأ المشتغل على الشرفاء الذين بتقديمهم يستنجز من البركة موعودها والعلماء الذين هم حفظة الشريعة الحنفية أن تُتعدى حدودها والأشياخ الذين بجهادهم استقر واجبها واستقام واجبها واستند عمودها والقواد الذين بحمايتهم تقام أحكامها وتحاط أعلامها وتُوفى عهودها والفرسان الذين هم حمايتها وأنجادها وأنصارها وجندها والخاصة الذين بهم يرجح عملها وينجح أملها ويتم مقصودها :

تعلمون حقاً أن هذا الوطن الفلانى كان قد تعين للهلاك بسبب هذا الخلاف وتوقعت القلوب المشفقة حدوث الفاقة بسبب هذا الاختلاف وإنَّ الشارع صلوات الله وسلامه عليه يمنع من كل ما يؤدى إلى الفرقة بأتم الوجوه ويؤكد الترغيب والترهيب بكل ما يخافه المؤمن ويرجوه وأن الفقه المذهبى إذا حصلت البيعة فى الأعناق وتحلت بها تحلى الحَمَام بالأطواق معروف ومعلوم وإنَّ اشتداده فى سد باب الافتراق على العموم والإطلاق لازم محتوم والأقدار الإلهية قد هيات قصد الألفة بلا كلفة ويسرت سبب الاتفاق بحكم الوفاق فاقبلوها نعمة مسداه وتحفة مهداه وشدوا عليها أيدي الضنه واعلموا ما فيها لله عليكم من المنه وتعاقدوا على ألا تبقوا من الخلاف أثراً

واتفقوا على القصد الذى يخلصكم عند الله سمعا ونظرا وفى هذا التيسير الذى ساعدت به الألفاظ الخفية وساعفت به من قبل الرب الصنائع الحفية ما يتأكد به الاعتبار ويرشد إلى أنه أراد الله نفوذه وربك يخلق ما يشاء ويختار ومما يستكمل هذا القصد الذى أشرنا إليه ويستوفيه قول تاج الدين رحمة الله عليه: ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر فى الوجود غير ما أراد الله أن يظهر فيه .

وفرض على كل إنسان فى نفسه ما طلبه به الشارع وعذبت فيه بالتفويض لحكم الله الشارع . فالواجب علينا أن نجتمع ونأتلف ونتفق ولا نختلف ونعتمد صريح الفقه أخذا وتركنا ونتبع صحيح النقل الذى لا يدع ريبا ولا شكنا ونسأل من الله الهداية إلى سبيل السلف الذين سبقوا ونعزم العزم على أمر الله فى قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾ (١٠٣) ﴿آل عمران﴾ .

وإن أولى الناس فى ذلك بإرهاق العزيمة وتوخى السبل المستقيمة والقيام بمضمون هذا الرسم المستقل والوفاء بتكميل قصد الكاتب فيه والممل لخواص الدولة الفلانية الذين لحقهم التمحيص والاختبار وتخولتهم بأبلغ الموعدة الأفضية والأقدار وهم الذين ربحت منهم فى هذه السوق التجاره والمقصودون بالخطاب من باب إياك أعنى واسمعى يا جاره وهم الممنون عليهم باسترجاع المغصوب المستحق والواقفون من انكسار القلوب والتصل من الذنوب موقف الأولى به والأحق والمعنيون بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ...﴾ (١١٦) ﴿الحديد﴾ . ويختص منهم عماد الدولة وعميد الجملة بالخط الأوفر مما يتضمنه هذا التأنيب ويستمنح من الله عقب التذكرة بهذه الموعدة: ﴿...وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مِنْ يُنِيبٍ﴾ (١١٣) ﴿غافر﴾ .

فإننا إذا نظرنا إلى ما كان قد طرق من الابتلاء وشاهدنا ما كان معرضا للوقع من البلاء وراجعنا البصيرة في النعم التي كنا عنها مسلوبين والتربة التي كنا عليها مغلوبين والأبواب التي كنا عنها محجوبين والشرذمة التي كنا بها مربوبين والأنفال التي كنا في عدد من يحيى رسومها محسوبين وقد سلط الله علينا كثيرا من الظلمة الذين أعناهم فعند ذلك لعناهم وأهاننا الذين كنا أكرمناهم جزاء لما احترمناهم فنسونا أحوج ما كنا إلى أن يذكرنا وخذلونا أفقر ما كنا إلى أن ينصرونا وأسلمونا أشد ما كنا فاقة إلى أن ينجدونا وتركونا أعظم ما كنا حاجة إلى أن يساعدونا وخانونا أظهر ما كنا اضطرارا إلى وفائهم وظاهروا علينا أتم ما كنا افتقارا إلى غنائهم فلا شك إنَّ المؤاخذه كانت بسبب تلك الذنوب وأن الجناية هي التي أوجبت ما طرقتنا من الخطوب فأزف العذب وعاد من أعدى الأعداء الأحاب وتبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبَعُوا وتقطعت بهم الأسباب وكادت العقوبة العظيمة إن تلحق والأخذه الربانية أن تحقق لولا أن الله تداركنا بالعفو وتجاوز عن الهفو وأنالكم من الإدالة ما كنتم تؤملون واستخلفكم في الأرض لينظر كيف تعملون. فلنجعل ما وعظنا الله به من تلك الأزمات نصب الأعين ولنتخذ حمده على ما منحنا من الإنالة هجير الألسن ولنعلم أن ذلك التمحيص إنَّما كان تنبيها من الله على ما عطلنا من حدوده وإيقاظا من الغفلة عن القيام بحقوقه والوفاء بعهوده ولنتحقق أن ما من الله به من جبر الأحوال وخلف الأموال؛ واستقبال العز غضا جديدا، وصرف الهوان وقد كان عذابا شديدا؛ إنَّما هو إبلاغ في الحجة علينا، وإعذار بالموعظة إلينا؛ وربما عاهدنا الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، ولننزعن عما ارتكبنا من جرائم العاصين وجرائم الطالحين؛ فالوفاء الوفاء حتما إن أردنا أن نكون من المفلحين. وقلما أزف العذاب فرفع إلاَّ عمن كان

من الصالحين، ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ...﴾ [يونس] إلى قوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾؛ فلنقدر قدر هذا التدارك، الذى أخذ بأيدينا من مهاوى الانتقام، ولنتأمل موقع البلاء الذى أحلنا من تجديد النعمة بأسنى مقام؛ ولنحذر نسيان ما ذكرنا به، فلم نذكر تلك الشدائد بل نسيناها، ولا نفرح بما أوتينا فرح المغرور الذى لا يتراجع ولا يتناهى؛ فإن فى ذلك أمل الشيطان وسؤله، ولعن الله ومقته، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ [الأنعام] إلى قوله: ﴿بَغْتَةً﴾.

اللهم هل بلغت، وبالغت فى النصيح وأبلغت، اللهم فأشهد. و«يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت»، وإليه أبرأ من حولى وتقصيرى عما فيه قصرت، وعما عنه نكلت.

ثم قال رحمه الله:

«وإن مولانا السلطان الملك الفاضل التالى الذاكر، العفيف الطاهر، المسترجع الصابر، المجاهد المصابر، الم رابط المشاغر؛ أمير المسلمين ابن نصر الخزرجى نسب السعدى منشأ النصرى جدا وأبا، أيده الله على أعداء الدين، وجعله من الأئمة المهتدين؛ ممن إذا جُنِيَ عليه غفر، لعلمنا به أنه حلیم والله أخذ بيده كلما عثر؛ فأرشدنا بذلك إلى أنه كريم، وممن تطرقه الخطوب، وهو بالألطف مصحوب، وتحقق إليه النوائب وهو من نظرها الشزر محجوب، وممن جمع له الناس على أن يخشاهم فزاده إيماناً، وقال: حسبى الله ونعم الوكيل، فانقلب بفضل من الله ونعمة، وممن صبر واسترجع فى نقص الأموال والأنفس والثمرات، فبُشِّرَ بصلوات من ربه ورحمة، فتمالأت على أذنيه أصناف من الناس فى مرات متعددة، وإناء من الدهر متجدده، فأتعس

الله جدودهم، وأضرع إليه خدودهم، وأرغم بحوله وقوته أنوفهم، ورد عنه سيف من الأقدار رماحهم وسيوفهم، وأدنى لهم بأسباب مختلفة الأنواع حتوفهم: فمن آمن أخذ من مأمنه الذى كان يستند إليه ومن خائف قد أدهشه الروح فهو يحسب كل صيحة عليه؛ فكأن ألسنة الأقدار تنهاهم عن منازعة الإرادة، وكأن واعظ الاعتبار يحذرهم من شقاقهم الكفيل له بالسعادة؛ وكأن شاهد الحال يقول هذه إرادة الله قضاها، وسنته السابقة أنفذها وأمضاها، فمن المنازع فيما حكم الله به وقضى، ومن الساخط فى المحل الذى يطلب فيه من الله الرضا؟ ولو كان استيلاؤه على الملك يقوة عصييته، وإهلاك مناوئه عن طبيعه غضبيه؛ لارتاب فى ذلك الناظر ووجد السبيل إلى الاحتياج المناظر، ولكنه طالما عورض فى الملك فكبا معارضه لفيه، وأتيحت له النصرة من محل لم يحسبها فيه؛ وشد ما احتال على نصرته غير واحد، فانعكست عليه حيلته؛ وتوسل إلى مكروهه، فطاحت فى قلب الانقلاب عليه وسيلته؛ وبغى عليه غير ما مرة فنصره الله على من بغى عليه، وابتغى بالسوء فرده الله على من سعى به إليه؛ ولعل ذلك لغيب عن العيان مكتوم، وحكم من الحكيم العليم محتوم؛ أو لآثر من الاختصاص قد علمه الله وليس لنا بمعلوم، أو لأمر قد تقاصرت عنه مدارك العقول، وكلت دونه رواجح الحلوم؛ ولهذه المعانى المقرره، والمقاصد المحرره، والمذاهب المفسره، والفوائد المسطره، وغرائب أحاديثها المشتهره، خص الملاء المقصود فيه بالتذكيره، والمعتمد منه بالإيقاظ والتبصره؛ من أعضاء الدوله، وسيوف الصوله، وأولياء الخلوص الزكى الشيمه، وموالى النعمه الفلانيه، وهم الذين خولتهم موعظته الحسنه، وأعجبته أغراضه المتعدده، ومقاصده المستحسنه؛ وعلموا أنه الحق، فسألوا من الله التوفيق إليه؛ والإرشاد إلى الاتصاف به والعمل عليه، والهداية إلى

التماس رضا الله لديه، ووقفوا على ما هو لهم فى هذا الكتاب منصوص، وأن سلطانهم بمزية الدفاع عنه مخصوص، وأنه قد تطابقت على إشاره نصوص، واستوى فى تسلم الطاعة له عموم وخصوص؛ فجددوا له البيعة الوثيقة، على ما أوجب فى ذلك الحكم المشروع، وأعطوه على ذلك العهد الأكيد حسبما اتفقت عليه أصول وفروع؛ وعقدوا له مضمونها عقدا صحيحاً، وعهدوا على ما تقتضيه السنة صريحاً؛ وشهدوا له فيه على أنفسهم أنهم بالوفاء بها قائمون، ولشروطها المرعية حافظون؛ وعلى أحكامها الشرعية محافظون؛ وعلى ما بويح عليه رسول الله ﷺ من السمع والطاعة، ولزوم السنة والجماعة، وإمحاظ النصيحة جهد الاستطاعة؛ فأيديهم فى السلم والحرب مصروفة فى مرضاته، ونيتهم صادقة فى مسنونات الوفاء ومفترضاته؛ ولقد شاهدوا الفرقة وما جنته، والفتنة وما فتنته، والألفة وما سنته، والهدنة وما قربت من إصلاح وأدنته فليغبتوا بها عهدا كريما وعقدا قد تضمن فضلا عظيما بل عميما واستلزم إنعاما جسيما وليوفوا بها الوفاء الذى يوليهم بها نعيما مقيما ويدفع عنهم عذابا أليما فإنه عز وجل يقول: «فمن نكث» إلى قوله: «عظيما». وقد بسطوا أكفهم إلى الله ضارعين وفى رحمته طامعين ولعظمته خاضعين ومن هيبتة خاشعين ولخليفته طائعين وفى الخيرات مسارعين يدعونه رغبا ورهبا مستنزلين لرحمته بالإخلاص والإنابة واقفين على قدم الرجاء بباب الذى أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ويسألونه خير ما قدره وقضاه والسلوك على ما فيه رضاه.

اللهم بابك قصدنا وقبولك أردنا وعلى فضلك اعتمدنا وإلى عزتك استندنا وفى مرضاتك اجتهدنا وبهدايتك استرشدنا فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة

عين وأصلح شأننا كله اللهم إنا بك مستنصرون وبِعزتك مستظهرون ولغناك مفتقرون ومن تقصيرنا مستعيذون ومن ذنوبنا مستغفرون ولشامل عفوك منتظرون وفي خفيّ أطفافك مستبصرون ولعظيم انتقامك مستحضرون ولعميم صفحك مستشعرون فآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

اللهم انصر من بايعناه سلطانا ومهد به بلادا وأوطانا وأرغم بتوحيه للحق طاغية وشيطانا وآتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا. اللهم اعمر بالمسرة نادية وكاف عنا أياديه واكبت اللهم أعاديته وكن لنا وليا نصيرا فأنت نعم المولى ونعم النصير. وصل اللهم على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي القرشي الهاشمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا فأنت اللطيف وأنت الخبير».

انتهى ما أردت نقله من جنة الرضا للرئيس أبي يحيى بن عاصم رحمة الله عليه.

ورأيت بخط الوادى آشى ناقلا من كتابه المسمى بالروض الأريض ما نصه :

ابن فتوح إبراهيم بن أحمد بن قنوح العقيلي يكنى أبا إسحاق العالم المتفنن صاحبنا محقق نظار وأستاذ فوائد تدريسه لجين ونضار كلا بل جواهر وبواقيت ومناسك هدى لها من السعادة مواقيت فحسب الطالب الموثوق بفهمه المصروف للتحصيل مطالع مواقع سهمه أن يلازم حلقة تعليمه وأن يشد يد الضنة بما يلقي من محصول تفهيمه فكسير الإفادة إنما حصلة الوافدون من جابر صنعتته وكيمياء السعادة إنما يلقاها الظافرون في نضرة روضه المخضل ونبعته وقرض الشعر مما يمكن دخوله تحت فرعه ويندرج تحت قدرة تصرفه

بجنسه نوعه إلا أنه لما يصدر منه عن قريحة كاتم وسالك من البخل به على طرف النقيض مما سلكه حاتم.

فمما علق بحفظي منه خطوبة أرجوزة صنفها في النجوم:

سبحان رافع السماء سقفا ناصبها دلالة لا تخفى
مبدعها فلا ترى فروجا مودعها الأفلاك والبروجا
انتهى. وإنما ذكرته لتعلم أصلاحه في كتاب الروض الأريض. وقد نقلت
كلما آخر منه فيما سبق فراجعه ولو تتبعته ما حصل لدى من نظمه ونثره
لطلال الكتاب جدا.

وقد وقفت بتلمسان المحروسة على ظهير منشور سلطاني أصدر للرئيس
ابن يحيى بن عاصم المذكور بتقديمه للنظر في أمور القضاء وغيره ونصه:

(*) هذا الظهير كريم إليه أنهيت الظهائر شرفا عليا وبه تقررت المآثر برهانا
جليا وراقت المفاخر قلائد وحليا وتميزت الأكابر الذين افتخرت بهم الأقاليم
والمحابر اختصاصا مولويا^(١). فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعددت وتوالت
المنشورات وتجددت أكبر مرسوم تم في الاعتقاد نظرا خطيرا وأحكم في
التفويض أمرا كبيرا وأبرم في الاستخلاص عزمًا أيما اعتمد بمسطوره العزيز
واختص بمنشوره الذي تلقاه اليمن بالتعزيز من لم يزل بالتعظيم حقيقا وبالأكابر
خليقا وبالإجلال حريا فهو شهير لم يزل في الشهرة سابقا هاد لم يزل بالهدى
ناطقا بليغ لم يزل بالبلاغة دريا عظيم لم يزل في النفوس معظما علم لم يزل

(*) من هذه العلامة إلى مثلها فيما يلي ص ١٥٢ أورده المؤلف بنصه في نفح الطيب ج ٦ ص ١٥٥ - ١٦٢.

(١) في سائر الأصول: «قوليا» والمثبت في نفح الطيب ج ٦ ص ١٥٥.

فى الأعلام مقدا. كرىم لم ىزل فى الكرام سنىا اشملت منه محافل الملك على العقد الثمن وحلت به المشهورة فى الكنف المحوط والحرم الأمن فكان فى مشكاة الأمور هادىا وفى مىدان المآثر جرىا فىلى مقاماته تبلى مقامات الإخلاص ولى مرتبته تنهى مراتب الاختصاص فىمن حاز فضلا وزىن فعلا وشرف ندىا واستكمل همما واستعمل قلما مشرفىا. فله! ما أعلى قدر هذا الشرف الجامع بىن المتلد والمطرف السابق فى الفضل أمدأ قصىا الحال من الاصطفاء مظهرا، الفارع من العلا منبرا، الصاعد من العز كرسىا؛ حاز الفضل إرثًا وتعصىا، واستوفى الكمال حظا ونصىا؛ ثناء أرحه كالروض لو لم يكن الروض ذابلا، وهدىًا نوره كالبدر لو لم يكن البدر آفلا، ومجدًا علوه كالسها لو لم يكن السها خفىا؛ فما أشرف الملك الذى اصطفاه، وكمل له حق التقرب ووفاه، وأحله قرارة التمكىن، ومن بااختصاصه بالمكان المكىن، فسبق فى مىدان التفوىض وسما، ورأى من الأنظار الحمىدة ما رأى، صادعًا بالحق إمامًا علما، وموضحًا من الدين نهجًا أმა، هادىًا من الواجب صرطًا سوىا؛ بانىًا للمجد صرحًا مشىدا، مشهرا للعدل قولً مؤىدا، مبرمًا للخىر سببًا قوىا؛ فالله تعالى ىصل لمقام هذا الملك الذى أطلع فى سمائه بدرًا دونه البدر وصدراً تلوذ به الصدور سعدًا لا تماطله الأيام فى تقاضىه، ومصرًا ىمضى به نصل الجهاد فلا ىزال ماضىه، على الفتح مبنىًا؛ وىولى له عزًا ىذود عن حرم الدين، وىمنحه تأىىدًا ىصبح فى أعناق الكفر حدىث سىفه قطعىًا؛ أمر به مرسومًا عزىزًا لا تبلى المرسومات إلى مدها، ولا تبدى بآثار الاختصاص مثل ما أبدها، عبء الله أمىر المسلمىن محمد الغالب بالله، ابن الأمىر المقدس فلان أىء الله تعالى مقامه ونصر أعلامه، وىسر مرامه؛ لإمام الأئمة وعلم الأعلام وعماد دوى العقول والأحلام، وبركة حملة السىوف

والأقلام، وقدوة رجال الدين وعلماء الإسلام؛ الشيخ الفقيه أبى يحيى ابن كبير العلماء شهير العظماء؛ حجة الأكابر والأعيان مصباح البلاغة والبيان؛ قاضى القضاة وإمامهم أوحى الجلة وطود شمامهم الشيخ الفقيه أبى بكر بن عاصم، أبقاء الله تعالى ومناطق الشكر له فصيحة اللسان، ومواهب الملك به معهودة الإحسان، وقلائد الأيادى منه مقلدة بجيد كل إنسان قد تقرر والمفاخر لا تنسب إلا لبنتها، والفضائل لا تعتبر إلا بمن يشيد أركانها وبينها؛ والكمال لا يصفى شربه، إلا لمن يؤمن سربه؛ وإن هذا العلم الكبير، الذى لا يفى بوصفه التعبير؛ علم بآثاره يقتدى، وبأنظاره يهتدى؛ وبإشارته يستشهد، وبإرادته يسترشد؛ إذ لا أمد علو إلا وقد تخطاه، ولا مركب فضل إلا وقد تمطاه؛ ولا شارقة هدى إلا وقد جلاها، ولا لبة فخر إلا وقد حلاها؛ ولا نعمة إلا وقد أسداها، ولا سومة إلا وقد أبدأها؛ لما له فى دار الملك من الخصوصية العظمى، والمكانة التى تسوغ النعمى؛ والرتب التى تسمو العيون إلى مرتقاها، وتستقبلها النفوس، بالتعظيم وتتلقاها؛ حيث سر الملك مكتوم، وقرطاسه مختوم، وأمره محتوم؛ والأقلام قد روضت الطروس وهى ذابويه، وقسمت الأرزاق وهى طاويه؛ شقت ألسنتها فنطقت، وقطعت أرجلها فسبقت؛ ويبست فأثمرت إنعامها، ونكست فأظهرت قواما؛ وخطت فأعطت، وكتبت فوهبت، ومشقت فدفت، وأبرمت فأنعمت؛ فكم يسر الجبر، وعقرت الهزير؛ وشنقت المسامع وكفيت المطامع؛ وأقلت فيما ارتفع من الواضع، وأحلت لما امتنع من المواضع؛ فهى تنجز النعم، وتحجز النقم؛ وتبث المذاهب وتحث المواهب؛ وتروض المراد وتنهض المواد؛ وتحرس الأكناف، وتغرس الأشراف؛ ومضيغة لنداء هذا العماد الأعلى، طامحة لمكانه الذى سما واستعلى؛ فيما يملئ عليها من البيان، الذى يقر له بالتفضل،

الملك الضليل؛ ويشهد له بالإحسان لسان حسان؛ ويحكم له ببرى القوس حبيب بن أوس ويهيم بما من الأساليب عنده شاعر كنده؛ ويستمطر سحبه الشره، فيصيح المعره؛ إلى منشور تزيل الفقر فقره، وتدر الرزق درره؛ لو أنهى إلى قس إياد لشكر فى الصنعة أياديه، واستمطر سحبه وغواديه، أو بلغ إلى سحبان لسحره، وما فارقه عشيته ولا سحره؛ ولو رآه الصابى لأبدى إليه من صبره ما أبدى؛ أو سمعه ابن عباد، لكان له عبداً؛ أو بلغ بديع الزمان لهجر بدائعه، واستنزر بضاعته؛ أو أتخف به البستى لاتخذة بستاناً، أو عرض على عبد الحميد لأحمد من صوبه هتانا؛ فأعظم به من عالٍ لا ترقى ثنيته، ولا تحاز مزيته؛ ولا يرجم أفضقه، ولا يكتم حقه؛ ولا ينام له عن اكتساب الحمد ناظر، ولا ينقاس به فى الفضل مناظر؛ وهل تقاس الأجادل بالبغاث، أو الحقائق بالأضغاث؛ ألا وإنَّ بيته هو البيت الذى طلع فى أفضقه كل كوكب وقاد ممن رسخ به للعلوم اتقاء واتقاد، وتراءى به للمدارك ذكاء وانتقاد؛ فأعظم بهم أعلاما وصدورا، وأهلة وبدورا؛ خلدت ذكرهم الدواوين المسطره، وسرت فى محامدهم الأنفس المعطره، إلى أن نشأ فى سمائهم هذا الأوحد، الذى شهرة فضله لا تجحد؛ فكان قمرهم الأزهر، ونيرهم الأظهر؛ ووسيطه عقدهم الأنفس، ونتيجة مجدهم الأفعس؛ فأبعد فى المناقب آماده، ورفع الفخر وأقام عماده؛ وبنى على تلك الأساس المشيدة، وجرى لإدراك تلك الغايات البعيدة؛ فسبق وجلى وشنف بذكره المسامع وحلى؛ ورفع المشكل ببيانه، وحرر الملتبس ببرهانه؛ إلى أن أحله قضاء الجماعة ذروة أفضقه الأصعد، وبوأه عزيز ذلك المقعد؛ فشرف الخطه، وأخذ على الأيدى المشتطه، لا يراقب إلا ربه، ولا يضمّر إلا بالعدل وحبه، والمجلس السلطانى أعلاه الله تعالى يختصه بنفسه، ويفرغ عليه من حلل الأصطفاء ولبسه؛ ويستمطر فوائده،

ويجربى بأنظاره حقوق الملك وعوائده؛ فكان بين يديه حكما مقسطا، ومقسما لحظوظ الإنعام مقسطا، إلى أن خصه بالكتابة المولوية، ورأى له فى ذلك حق الأولوية؛ إذ كان والده المقدس نعم الله ثراه، ومنحه السعادة فى أخراه؛ مشرف ذلك الديوان، ومعلى ذلك الإيوان؛ يحبر رقاع الملك فتروق، وتلوح كالشمس عند الشروق؛ فحل ابنه هذا الكبير شرفا، الشهير سلفا؛ مرتبته التى سمت وافترت به عن السعد وابتسمت؛ فسحبت به للشرف مطارف، وأحرزت به من الفخر التالد والطارف؛ فهو اليوم فى وجهها غره، وفى عينها قره؛ والله هو فى ملاحظة الحقائق ورعيها، وسمع الحجج ووعيتها؛ فلقد فضل بذلك أهل الاختصاص وسبقهم فى تبين ما يشكل منه وما يعتاص؛ إذ المشكلة معه جليلة الأغراض، والآراء لديه آمنة من مآخذ الاعتراض؛ فكم رتبة عمرها بذويها، فأكسبها تشريفاً وتنويها؛ وعلى ذلك فأعلام قضاة الوطن، ومن عبر منهم وقطن؛ مع أقدارهم السامية، ومعاليهم التى هى للزهر مسامية؛ إنما رقتهم وساطته التى أحسنت، وزينت بهم المجالس وحسنت؛ فبه أمضوا أحكامهم، وأعملوا فى الأباطيل احتكامهم؛ وكتبوا الرسوم وكتبوا الخصوم؛ وحلوا دست القضاء، وسلوا سيف المضاء؛ وفى زمانه تخرجوا وفى بستانه تأرجوا؛ ومن خلقه اكتسبوا، وإلى طريقه انتسبوا؛ وعلى موارد حاموا وحول فرائده قاموا؛ وبتعريفه عرفوا، وبتشريفه شرفوا؛ وبصفاته كلفوا وبعرفانه وقفوا؛ فأمنوا مع انسكاب سحب إفادته من الجذب وقاموا بذلك الغرض بسبب ذلك الندب؛ وهل العلماء وإن عمت فوائدهم، وانتظمت بجياد الأذهان فرائدهم؛ إلا من أنواره مستمدون وإلى الاستفادة من أنظاره متمدون، وبركاته معتدون، وبأسبابه مشتدون؛ فبه اجتنت من أفنان المنابر ثمراتهم، وتأرجحت فى روضات المعارف زهراتهم؛ وبه عمروا الحلق واثلق

من أنوارهم ما ائتلق؛ إذ كل من اصطناعه محسوب، وإلى بركتته منسوب؛ فهو بدرهم الأهدى وغيثهم الأجدى؛ وعقدهم المقتنى، وروضهم المجتنى؛ وبدر منازلهم، وصدر محافلهم؛ وعلى ما أعلى المقام المولوى من مكانه، وقضى به من استمكانه؛ واعتمد من إبرامه وأبرم من اعتماده ومهد من إكرامه وأكرم من مهاده؛ واختص من علاه، وأعلى من اختصاصه، واستخلص من حلاه، وحلى من استخلاصه؛ ووفى من تكرمه، وكرم من وفائه، وأصفى من مجده، ومجد من اصطفاؤه؛ وقدم من براعته، وحكم من يراعته؛ وشقق من كتابته، وأنطق من خطابته، وسجل من أنظاره وعدل من اختياره؛ فذكا ذكره، وسطا سطره؛ وأمعن معناه، وأغنى مغناه. أشار أيده الله تعالى باستئناف خصوصيته وتجديدها، وإثبات مقامته وتحديدتها؛ لتعرف تلك الحدود فلا تتخطى وتكبر تلك المراتب فلا تستعطى؛ فأصدر له - شكر الله تعالى إصداره، وعمر بالنصر داره - هذا المنشور الذى تأرج بمحامده نشره وتضمن من مناقبه البديع فراق طيه ونشره؛ وغدا وفرائد المآثر لديه مكوّنه، وأصبح للمفاخر مالكا لما أتى به مدوّنه؛ وخصه فيه بالنظر المطلق الشروط، الملازم للتفريض ملازمة الشرط للمشروط؛ المستكمل الفروع والأصول، المستوفى الأجناس والفصول؛ فى الأمور التى تختص بأعلام القضاة الأكابر، وكتاب القضاة ذوى الأقالام والمحابرو شيوخ العلم وخطباء المنابر، وسائر أرباب الأقالام القاطن منهم والغابر؛ بالحضرة العلية وجميع البلاد النصرية؛ تولى الله جميع ذلك بمعهود ستره، ووصل له ما تعود من شفع اللطف ووتره؛ يحوط مراتبهم التى قطفت من روضاتها ثمرات الحكم وجنيت، ويراعى أمرهم التى أقيمت على القواعد وبنيت وحقوقهم التى حفظت لهم فى المجالس السلطانية ورعيت؛ ويحل كل واحد مهم فى منزلته التى تليق، ومرتبته التى هو بها

خليق؛ على مقتضى ما يعلم من أدواتهم، ويخبر من تباين ذواتهم؛ ويرشح كل واحد إلى ما استحقه، ويؤتى كل ذي حق حقه، اعتماداً على أغراضه التى عدلت، وصدحت على أفنانها من الأفواه طيور شكر وهذلت؛ واستناداً فى ذلك إلى آرائه، وتفويضاً له فى هذا الشأن بين خلصاء الملك وظهرائه؛ وذلك لمقتضى ما كان عليه أعلام الرياسة الذين سبقوا، وانتهضوا بهمهم واستبقوا؛ كالشيخ الرئيس الصالح أبى الحسن بن الجياب، والشيخ ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الخطيب، رحمهما الله تعالى.

فليقم - أبقاه الله تعالى - بهذه الأعمال التى سمت واعتزت ومالت بها أعطاف العدل واهتزت؛ وسار بها الخبر حيث سرى، وصار بها الحق مشدود العرى؛ وعلى جميع القضاة الأصفياء، والعلماء الأرضياء، والخطباء الأولياء، والمقرئين الأذكياء، وحملة القلام الأحظياء؛ أن يعتمدوا على هذا الولى العماد فى كل ما يرجع إلى عوائدهم، ويختص فى دار الملك من مرتباتهم وفوائدهم؛ وما يتعلق بولاياتهم [وأمنياتهم]^(١)، ويليق بمقاصدهم ونياتهم؛ فهو الذى يسوغهم المشارب ويبلغهم المآرب؛ ويستقبل العلى بالعلى، والعاطل بالحللى والمشكل بالجللى والمفرق بالتاج، والمقدمة بالإنتاج؛ وعلى ذلك فهذا المنشور الكريم قد اقرهم على ولايتهم وأبقاهم، ولقاهم من حفظ المراتب ما رقاهاهم؛ فليجروا على ما هم بسبيله، وليهتدوا برشد هذا الاعتناء ودليله.

وكتب فى صفر عام سبعة وخمسين وثمان مائة». انتهى(*).

وإنما كتبته برمته لتعلم به مصداق ما قد مناه من تمكن ابن عاصم المذكور من مراتب الاصطفاء والاحتفاء.

ولنختم ترجمته، رحمه الله بتخميس عجيب من نظمه:

(١) ما بين الحاصرتين من نفع الطيب ج ٦ ص ١٦١.

سبحان من أظهر الأنوار واحتجبا وكل حمد وتمجيد له وجبا
إذا ابتغى العقل في إدراكه سببا جاء الحجاب فألقى دونه الحجبا

حتى إذا ما تلاشى عندها ظهرا

سبحان من كان والأكوان لم تكن فى غير أين ولا وقت ولا زمن
حتى أتى الجود بالإحياء والمنن وكان ما قد رسمناه بما ومن
وأظهر الشمس ذات النور والقمر

سبحان من حجب الأبصار فاحتجبت وكم أراد مريد نيلها فأبت
من حدثه أمانيه فقد كذبت حقيقة ذاتها عن ذاتها وجبت
لا يدرك العقل من أخبارها خبرا

سبحان من شأنه فى شأن عجب يخفى فيظهر أو يبدو فيحتجب
يأيها العاكفون السادة النجب هل فيكم من سعى سعيا كما يجب
ففاز بالغرض المطلوب أو ظفر

سبحان من لم يزل بالعلم منفردا ومن تعالى عن الأشباه فاتحدا
سبحانه وتعالى واحدا صمدا تبارك الله لم يولد ولم يلد
تنزه الله عما يلحق البشر

سبحان من أخرج الموجود من عدم رسما برى كونه فى غير مرتسم
فلا محل سوى كنه من الكلم ولم يزل هو فى ديمومة القدم
مؤثرا يخلق التأثير والأثرا

سبحان من خلق الأشياء أجمعها فمن رآها رأى أفعاله معها
وكان أتمها صنعا وأبدعها نفس إلى العالم العلوى رفعها
وخصها من معاليه بما بهرا
سبحان من عم بالإنعام ما خلقا وشفع العدل بالإحسان فاتفقا
وزاد بالذكر فى قلب التقى تقى فاستكمل الدين والإيمان والخلقا
وكان مدركه الصديق أو عمرا
سبحان من سبحته كل سابعة وكل عائمة فى الماء سائحة
وكل غادية تغدو ورائحة وسبحته خفايا كل جانحة
لم تعرف السر حتى جاورت صورا
سبحان من حمدته ألسن البشر فى السر والجهر والأصال والبكر
وفى دجى تشدو نصف الليل والسحر بالشكر والذكر والآيات والصور
توليه حمدا وتتلو بعده سورا
سبحان من نزهته ألسن عزفت عن كل ما يوهم التشبيه إذ وصفت
صفا لها مورد التحقيق حين صفت فلم تفارقها حتى أثبتت ونفت
ولم يدع شبهة تؤذى ولا ضررا
سبحان من شكره فى الدين مفترض وليس جسم ولا عرض
ينهى ويأمر ما فى ذا وذا غرض فاذكر لنعماء ذكرها ليس ينقرض
فمن تحدث بالنعمى فقد شكرا

سبحان من خضع السبع الطباق له وأعظمته قلوب حشوها وله
تريد إنَّ تعلم الأبقى وتعقله طوبى لمن أمل الأبقى وأم له

واستكثر الزاد لما آنس السفر

سبحان من زين الأفلاك بالشهب وبين الدين بالآيات والكتب
ولم يدعنا لدى لهو وفى لعب لكن نهانا وآنانا على الرتب

حتى انتهينا وأدعنا لما أمرا

سبحان من جعل الأشياء تختلف فتارة تتناهى ثم تأتلف
هذا الظلام بنور الصبح ينصرف كما الضلال لنور العلم لا يقف

فسله نورا ينير السمع والبصرا

سبحان من خلق الأخلاق والخلقا والشمس والبدر والظلماء والغسقا
يروقك الكل مجموعا ومفترقا وانظر لنفسك واسلك نحوه طرقا

فأسعد الناس من فى نفسه نظرا

سبحان منزل الماء المزن فى المطر يروى النبات ويسقى يانع الثمر
كأنما الزهر تهديه إلى الزهر إذا رأيت تلاقيها على قدر

رأيت صنع قدير أحكم القدرا

سبحان من قدر الأوقات والأجلا وتابع الوحي واستتلى به الرسلا
فمن تعدى حدود الفوق قيل غلا ومن تجاوز منحطا فقد سفلا

ومن تخطى خطوط المنتهى كفر

سبحان من فجر الأنهار فانفجرت وقدر الخير فى إجرائها فجرت
فزينة الأرض بالأزهار قد ظهرت وللبصيرة عين كلما نظرت

رأت جمالا وإجمالا ومعتبرا

سبحان من خلق الإنسان من علق وأعقب الليلة الليلاء بالغسق
يا بهجة الشمس دونى عذت من فلق ويا سنا البدر عارض حمرة الشفق

حين تعود لنا من ليلتنا سحرا

سبحان من علم الإنسان بالقلم وسلط الهم والبلوى على الهمم
فقاومتها جنود الصبر والكرم ثم ابتلى قلب غير العارف الفهم

فما أطلق ولا أوفى ولا صبرا

سبحان من خلق الإنسان من عجل فليس يمشى إلى شىء على مهل
ولا يقول سوى هذا وذلك لى مقسم الحال بين الحرص والحيل

فليس تلقاه إلا ضارعا حذرا

سبحان من زانه بالعلم والأدب وبالفضائل والإيمان والطلب
فلا يزال حليف الفكر والتعب رام الكمال فلم يبلغ ولم يخب

ولم يرد بعد فى رى ولا صدرا

سبحان من شأنه بالكبر والأشر يمسى ويصبح فى غى وفى بطر
مردد العزم بين الجبن والخور لا يستفيق من الشكوى إلى البشر

ولا يزحزح عن ظلم إذا قدرا

سبحان محرقه فى وقدة الحسد فلا يزال أخا غيظ وفى نكد
كالبحر يرمى إلى العينين بالزبد إذا رأى أثر النعمى على أحد

يود لو كان أعمى لا يرى ضجرا

سبحان من أمر الأرواح فأتمرت ثم استديمت فلم تنهض بما أمرت
وكل نفس إذا سامحتها فجرت فلا تصلها إذا خانتها أو غدرت

واقطع علائق من قد خان أو غدرا

سبحان من بسط التعليم ثم طوى فأعقب القلب وجدا دائما وهوى
وذاب فى ملتضى أشواقه وذوى وكان أزمع واستوفى المنى ونوى

حجا فلما انى ميقاته حصرا

سبحان من فى بساط العدل أجلسنا وباغتفار عظيم الذنب أنسنا
وزان بالعلم والإيمان أنفسنا فكان أعظمنا قدرا وأنفسنا

من انتهى أو نهى أو خاف فازدجرا

سبحان من خص بالإيمان أنفسنا وخافه من عذاب النار أنفسنا
لولاه لم نعرف المعروف والحسنا ولا استفدنا لسانا ناطقا لسنا

ولا درينا: أباح الشرع أو حظرا

سبحان من جعل الإيمان بالقدر والحشر والنشر منجاة من الضرر
فلا خلود مع الإيمان فى سقر ولا وصول إلى أمن بلا حذر

حتى تكون لأمر الله مؤتمرا

سبحان من إن يشأ أعطاك أو منعا ومن إذا شاء أمرا حادثا وقعا
وتارة يخفض الأمر الذى رفعا يوما يفرق للإنسان ما جمعا

ولا يبالى بمن أثرى ومن خسرا

سبحان من هو يوم الفصل يجمعنا وللنعيم بفضل منه يرفعنا
من بعد رؤية أهوال تروعنا يرى لها والهها هيمان أورعنا

حيران عريان يبدى كل ما سترا

سبحان من شاء فى الدنيا سعادتنا بطاعة أحسنت منا إرادتنا
ويتلينا ويستحلى عبادتنا حتى إذا شاء فى الأخرى إعادتنا

أعادنا مثل ما كنا كما ذكرنا

سبحان من يحشر الإنسان مكتئبا خوف الجزاء ويجزيه بما كسبا
ويحكم الحكم يمضيه كما وجبا فالقاسطون إلى نيرانه عصبا

والمقسطون إلى جناته زمرا

سبحان من فضل الإسلام فى الأمم بالطيب الطاهر المبعوث فى الحرم
محمد خير من يمشى على قدم إذا عدت بيوت المجد والكرم

فمنه حتى إلى عدنان أو مضرا

سبحان من ختم الأديان فى الأزل بالملة السمحة البيضاء فى الملل
أتى بها خير مأمور وممثل محمد خاتم السادات والرسل

وخير من حج بيت الله واعتمرا

إذا وصفنا فبالتقصير نعرف فكل لفظ بليغ دونه يقف
هو النبي الذى فى ذكره شرف فإن طلبت رضاه بالذى تصف
فكن على وصفه فى الذكر مقتصرًا

صلى الإله عليه ما بدا قمر وما سرى فى الدياجى أنجم زهر
وما تباينت الأشكال والصور وما تدورست الآيات والصور
وما قضى مؤمن من حاجة وطرا

وبالجملة فابن عاصم أبو يحيى كان يسميه أهل زمانه ابن الخطيب
الثانى، حسبما قاله الوادى آشى وغيره.

ولا بد إن نلم بنبذة من أخبار ابن الخطيب [السلمانى الوزير]^(١): إذ هو
لسان الدين، وفخر الإسلام بالأندلس فى عصره، فنقول: هو محمد بن عبد
الله بن سعيد [بن عبد الله بن سعيد]^(١) بن على بن أحمد السلمانى، قرطبى
الأصل، ثم لَوْشِيَّه، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرفة بلسان
الدين، الوزير الشهير، الطائر الصيت، المثل المضروب فى الكتابة والشعر
والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها، رحمه الله.

أوليته^(٢):

قال ابن الأحمر فى نثير فرائد الجمان فى حقه ما نصه: «ذو الوزارتين
الفقيه الكاتب، أبو عبد الله محمد، ابن الرئيس الفقيه الكاتب المفتى ببلدة
لوشة، عبد الله، ابن الفقيه الكاتب سعيد ابن الفقيه الصالح ولى الله الخطيب
سعيد السلمانى اللوشى المعروف بابن الخطيب». انتهى.

(١) ما بين حاصرتين عن نفح الطيب ج ٥ ص ٧.

(٢) نص ابن الأحمر لدى المؤلف فى نفح الطيب ج ٥، ص ٧.

وقال غيره^(١): إنَّ بيتهم يعرف في القديم ببني الوزير، ثم في الحديث ببني الخطيب. وسعيد جده الأعلى أوّل من تلقب بالخطيب، وكان من أهل العلم والدين والخير، وكذلك سعيد جده الأقرب كان على خلال حميدة، من خط، وتلاوة، وفقه، وحساب، وأدب، خيرا، صدراً، وتوفى عام ثلاثة وثمانين وست مائة، وأبوه عبد الله كان من أهل العلم بالأدب والطب، وقرأ على أبي الحسن البلوطي، وأبي جعفر الوزير، وغيرهما، وأجازة طائفة من أهل المشرق، وتوفى بطريف عام واحد وأربعين وسبع مائة شهيدا يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى من العام مفقودا ثابت الجأش، شكر الله فعله.

قال ابنه لسان الدين صاحب الترجمة: أنشدت والدى أبياتاً من شعري فسر وتهلل، وارجل رحمه الله تعالى:

الطب والشعر والكتابه سماتنا في بني النجابه
هُنَّ ثلاث مـبلـغات مرتبات بعضها الحـجابـه^(٢)
انتهى.

نشأته^(٣):

ونشأ لسان الدين على حالة حسنة سالكا سنن أسلافه، فقرأ القرآن على المکتب، الاستاذ الصالح أبي عبد الله عبد الولي العواد، تكتبا، ثم حفظا، ثم تجويدا؛ ثم قرأ القرآن أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيحاوي، وقرأ

(١) أورد المؤلف بنصه في نفح الطيب ج ٥، ص ٨.

(٢) نفح الطيب ج ٥، ص ١٦.

(٣) انظر في ذلك: نفح الطيب ج ٥، ص ٧٥.

عليه العربية، وهو أول من انتفع به، وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزي؛ ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ أبي عبد الله بن الفخار البيري، شيخ النحويين لعهد؛ وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر؛ وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب؛ وروى عن كثير من الأعيان، كالمحدث شمس الدين بن جابر، وأخيه أبي جعفر، والقاضي أبي البركات بن الحاج؛ والشيخ أبي محمد بن سلمون، وأخيه أبي القاسم بن سلمون، وأبي عمرو بن الاستاذ أبي جعفر بن الزبير، وله روايه عالية، والاستاذ اللغوي أبي عبد الله بن بيش؛ والمحدث الكاتب أبي الحسن التلمساني المسن، والقائد الكاتب أبي بكر بن ذى الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم، والقاضي المحدث أبي بكر ابن شبرين، والشيخ أبي عبد الله ابن الفقيه القاضي أبي عبد الله بن عبد الملك، والخطيب أبي جعفر الطنجالي، والقاضي أبي بكر بن منظور، والرواية أبي عبد الله بن حزب الله، وعن أشهر أسلافنا المتأخرين القاضي أبي عبد الله بن محمد المقرئ القرشي، التلمساني المولد والمنشأ والمقبر، قاضي الجماعة بفاس، وعن الشريف أبي علي الحسن بن يوسف، وعن الخطيب الرئيس الراوية أبي عبد الله بن مرزوق، وعن المحدث الفاضل الحسيب أبي العبياس بن يربوع السبتي، والرئيس الكاتب أبي محمد بن عبد المهيمن الحضرمي السبتي، والشيخ المقرئ أبي محمد بن أيوب المالقى، آخر الرواة عن أبي الاحوص، وعن أبي عثمان ابن ليون من أهل ألمرية، وعن القاضي أبي الحجاج المنتشاقري، من أهل رندة، إلى غيرهم ممن يطول ذكره من أهل الأندلس، والعدوة الغربية، والمشرق وأفريقية بالإجازة؛ وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا يحيى بن هذيل، ولازمه.

تأليفه^(١)؛

قال ابن الأحمر رحمه الله: «[لابن الخطيب]^(٢) الأوضاع المصنفات، التي أذان إحسانها هي المقرطات المشنفات، منها في التصوف الذي أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوف: روضة التعريف بالحب الشريف». انتهى.

ثم سرد غيرها من كتبه، ومنها: الإحاطة، في تاريخ غرناطة، في خمسة عشر سفرًا؛ واللمحة البدرية في الدولة النصرية؛ والحلل المرقومة؛ ومثلى الطريقة، في ذم الوثيقة؛ والسحر والشعر؛ وريحانة الكتاب، ونجعة المتتاب، في أسفار؛ والصيب والجهام، والماضى والكهام، في مجموع شعره؛ ومعيار الاختيار؛ ومفاضلة مالقة وسلا؛ ورسالة الطاعون؛ ورسالة الطاعون؛ والمسائل الطبية، في سفر؛ والرجز في عمل الترياق؛ واليوسفى في الطب، في سفرين؛ والتاج المحلى في مساجلة القدح المعلى؛ والكتيبة الكامنة، في شعراء^(٣) المئة الثامنة، ونفاضة الجراب، في أربعة أسفار، وهى من أحسن تأليفه، ولم أزل أكثر البحث في هذا التاريخ عنها، فلم أقف منها على عين ولا أثر، إلا عدة أوراق متفرقة، وقد كنت قبل هذا التاريخ رأيت بعضها. والبيزرة، في سفر، والبيطرة، في سفر جامع لما يرجع إليه من محاسن الخيل وغيره ورسالة تكون الجنين؛ والوصول لحفظ الصحة في الفصول؛ ورجز الطب، ورجز الأغذية، ورجز السياسة؛ وكتاب الوزارة؛ ومقامة السياسة؛ والغيرة على أهل الحيرة؛ وحمل الجمهور على السنن المشهور؛ والزبدة الممخوضة؛ والرد على أهل الإباحة؛ وسد الذريعة؛ في تفضيل الشريعة؛ وخطرة الطيف؛ ورحلة الشتاء والصيف؛ وطرفة العصر في دولة بنى نصر،

(١) انظر في ذلك: نفح الطيب ج٧، ص ٩٧.

(٢) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب.

(٣) في المطبوع: «أدباء» والمثبت من نفح الطيب ١٠٠/٧ وسائر الأصول.

فى ثلاثة أسفار؛ وتقرير الشبه؛ وتحرير الشبه؛ واستنزال اللطف الموجود فى سر الوجود؛ وبستان الدول، وهو غريب فى معناه فى فنون السياسة فى ثلاثين جزءاً ولم يكمل وأبيات الأبيات فيما اختاره رحمه الله من مطالع ما له من الشعر ورقم الحلل فى نظم الدول فى غاية من الحلاوة والعذوبة والجزالة وفتات الخوان ولقط الصوان فى سفر يتضمن المقطوعات وعائد الصلة فى سفرين وصل به صلة الاستاذ أبى جعفر بن الزبير وتخليص^(١) الذهب فى اختيار عيون الكتب الأدبيات وجيش التوشيح ورجز فى أصول الفقه شرحه ولى الدين بن خلدون صاحب التاريخ المشهور والإكليل الزاهر وكناسة الدكان بعد انتقال السكان؛ وعمل من طب لمن حب والدرر الفاخرة، واللجج الزاخرة جمع فيه نظم ابن صفوان والمباخر الطيبه فى المفاخر الخطيبه وخلع الرسن فى أمر القاضى ابن الحسن وأعمال الأعلام فيمن بويح من ملوك الإسلام قبل الاحتلال. وألف أيضاً فى الموسيقى ومصنفاته زادت على الخمسين وقد ذكرنا نحو الخمسين.

حاله:

قال ابن الأحمر:

«هو شاعر الدنيا وعلم المفرد والثنيا وكاتب الأرض إلى يوم العرض لا يدافع مدحه فى الكتب ولا يجنح فيه إلى العتب آخر من تقدم فى الماضى وسيف مقولة ليس بالكهام إذ هو الماضى وإلاً فانظر كلام الكتاب الأول من العصبه كيف كان فيهم بالإفاده صاحب القصبه للبراعه باليراعه وبه أسكت صائلهم وما حمدت بكرهم وأصائلهم المشوبة بالحلاوة الممكنة من مفاصل الطلاوة وهو نفيس العدوتين ورئيس الدولتين بالاطلاع على العلوم العقلية

(١) فى سائر الأصول: «وتلخيص» والمثبت من نفع الطيب ج ٧ ص ٩٨.

والإمتاع بالفهوم الثقيلة لكن صل لسانه فى الهجاء لسع ونجاد نطقه فى ذلك اتسع حتى صدمنى وعلى القول فيه أقدمنى بسبب هجوه فى ابن عمى ملك الصعق الأندلسى سلطان ذلك الوطن فى النفر الجنسى المعظم فى الملوك بالقول الجنى والإنسى ثم صفحت عنه صفحة القادر الوارد من مياه الظفر غير الصادر لأنّ مثلى لا يليق به إظهار العورات ولا يجمل به تتبّع العثرات اتباعا للشرع فى تحريم الغيبة وضربا عن الكريهة وإثباتا لحظوظ النقية الرغيبه فما ضره لو اشتغل بذنوبه وتأسف على ما شرب من ماء الهجو بذنوبه . وقد قال بعض الناس : من تعرض للأعراض أرسى عرضه هدفا لسهام الأغراض» . انتهى كلام ابن الأحمر .

وقال غيره :

تقلد الكتابة أيام السلطان أبى الحجاج فى أخريات دولته بعد شيخه ابن الجياب .

قال ابن الصباغ العقيلى : «كان أبو الحسن بن الجياب رئيس كتاب الأندلس وهم رؤساء غيرهم واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب اختصاصا تاما وأورثه رتبته من بعده وعهد بها إليه مشيرا بذلك على من استشاره من أعلام الحجاب عند حضور عمره . وتدرّب بذكائه حتى استحق أزمته فأئسى بحسن سياسته شيخه المذكور ونال التى لا فوقها من الخطوة وبعد الصيت وسعادة البخت .

اتفق له يوما بعد ما عزم النصرانى على ورود البلاد وضافت به الصدور فأنشد ابن الجياب بديها بمحضر الكتاب :

هذا العدو قد طغى وقد تعدى وبغى

وقال لابن الخطيب: أجزأ عبد الله فأنشده بديها:

وأظهر السلم وقد أسرحسوا في ارتغا
فبلغ الرحمن سيف النصر فيه ما ابتغى
ورده رد ثمود والفصيل قد رغا
حتى يرى وليمة لكل مرهوب الثغا
فقال ابن الجياب: هكذا وإلا فلا وعجب الحاضرون من هذه البديهة». انتهى كلام ابن الصباغ.

ولما توفي أبو الحجاج ازدادت منزلة ابن الخطيب عند ابنه أبي عبد الله إلى أن كانت عليه الدائرة فقبض على ابن الخطيب وعلى أملاكه ثم تخلص منها نكبة مصحفية بشفاعة السلطان المستعين بالله أبي سالم إبراهيم ابن السلطان الشهير الكبير أبي الحسن المريني صاحب المغرب، وكان تحريك عزائم السلطان أبي سالم للشفاعة فيه بسعاية الغالب على دولته الحاجب الرئيس الخطيب الرحال أبي عبد الله بن مرزوق. ولما تخلص ابن الخطيب من هذه الأنشودة لحق بسلطانه أبي عبد الله كما ذكره قريبا وورد صحبتته المغرب واستقر أبو عبد الله بن الخطيب بسلا تحت الجراية التامة متكلفا خدمة ضريح الملوك من بني مرين، ليُمَتَّ بذلك إلى صاحب الملك من بينهم كما يقضى له ما بقي من مآربه بالأندلس بشفاعة غير مردودة وفي أثناء هذه المدة كان يتطوف ببلاد المغرب مثل مراكش وأنظارها. ثم لما رجع مخدومه لغرناطة عاد هو في صحبة أولاده فألقى مقاليد رياسته وأزمة سياسته ورقاه إلى الذروة التي لا فوقها ثم سئم الخدمة وتسخط النعمة وأضمر الفرار عندما سمع بأن الملك

استوثق للسلطان أبى فارس بن أبى الحسن المرينى وأنه ملك تلمستان فأظهر الذهاب إلى تفقد أحوال بعض الثغور فكان آخر عهد الأندلس به وخرج بتلمسان واهتزت دولة السلطان أبى فارس لقدمه ثم كان من أمه ما سنذكره .

ولنورد بعض تفضيل لما سبق الإمام به وما لم يسبق فنقول :

قال فى كتابه المسمى باللمحة البدرية فى الدولة النصرىة عند ذكره خلع السلطان أبى عبد الله وقيام الأمير إسماعيل عليه وذلك فى شهر رمضان المعظم من عام ستين وسبع مائة ما نصه :

(*) «وكان السلطان أبو عبد الله عند تصير الأمر إليه قد ألزم أخاه إسماعيل قصرا من قصور أبيه بجوار داره مرفها عليه متممة وظائفه له وأسكن معه أمه وأخواته منها وقد استأثر يوم وفاة والده بمال جم من خزائنه الكائنة فى بيتها فوجدت السبيل إلى السعى لولدها فجعلت تواصل زيارة ابنتها التى عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبى الوليد ابن الرئيس أبى عبد الله المبايع له بأندرش ابن الرئيس أبى السعيد جدهم الذى تجمعهم جرثومته وشمير الصّهر المذكور عن ساعد عزمه وجده وهو على ما هو من الإقدام ومداخلة ذؤبان الرجال واستعان بمن آسفته الدولة وهفت به الأطماع فتألف منها زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متسنمين شفا صعب المرتقى واتخذوا آلة تدرك ذروته لصعود بنية كانت به عن التمام وكبسوا حرسيا بأعلاه بما اقتضى صماته فاستووا به ونزلوا إلى القلعة سحر الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبع مائة فاستظهروا بالمشاعل والصراخ وعالجوا دار

(*) من هذه العلامة إلى مثلها فى ص ١٧٣ أورده المؤلف بنصه فى نفح الطيب ج ٥ ، ص

الحاجب رضوان ففضوا أغلاقها ودخلوا فقتلوه بين أهله وولده وانتهبوا ما
اشتملت عليه داره وأسرعت طائفة مع الرئيس فاستخرجت الأمير المعتقل
إسماعيل وأركبته وقرعت الطبول ونودى بدعوته وقد كان أخوه السلطان
متحولاً بولده إلى سكنى الجنة المنسوبة للعريف لصق داره وهى المثل المضروب
فى الظل الممدودة والماء المسكوب والنسيم البليل يفصل بينها وبين معقل الملك
السور المنيع والخنق المصنوع فما راعه إلا النداء والعجيج وأصوات الطبول
وهب إلى الدخول إلى القلعة. فألفها قد أخذت دونه شعابها كلها ونقابها
وقذفته الحراب ورشقتة السهام فرجع أدراجه وسدده الله فى محل الحيرة ودس
له عرق الفحول من قومه فامتطى صهوة فرس كان مرتبطاً عنده وصار لوجهه
فأعيا المتبع وصبح مدينة وادى آش ولم يشعر حافظ قصبتها إلا به وقد تولج
عليها فالتف بها أهلها وأعطوه صفتهم بالذب عنه فكان أملك بها وتجهزت
الحشود إلى منازلته وقد جدد أخوه المتغلب على ملكه عقد السلم مع طاغية
قشتالة باحتياجه إلى سلم المسلمين لجراء فتنة بينه وبين البرجلونيين من أمته
واغبط به أهل المدينة فذبوا عنه ورضوا بهلاك نعمتهم دونه واستمرت الحال
إلى يوم عيد النحر من عام التاريخ ووصله رسول صاحب المغرب مستنزلاً
منها ومستدعياً إلى حضرته لما عز عن إمساكها. وراسل ملك الروم فلم يجد
عند من معول فانصرف ثانى يوم عيد النحر المذكور وتبعه الجمع الوافر من
أهل المدينة خيلاً ورجالاً إلى مربلة من ساحل إجازته. وكان وصوله إلى
مدينة فاس مصحبا من البر والكرامة بما لا مزيد عله فى السادس من شهر
محرم فاتح عام واحد وستين وسبع مئة وركب السلطان للقائه ونزل إليه عند
ما سلم عليه وبالع فى الحفاية به.

وكننت قد لحقت به مفلتا من شرك النكبة التي استأصلت المال وأوهمت
سوء الحال بشفاعة السلطان أبى سالم قدس الله روحه فقامت بين يديه فى
المحفل المشهود يومئذ وأنشدته :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر	وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى دارا على اللوى	عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى	بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربى جناحى وكره	فهانذا مالى جناح ولا وكر
نبت بى لاعن جفوة وملالة	ولا نسخ الوصل الهنى بها هجر
ولكنها الدنيا قليل متاعها	ولذاتها دأبا تزور وتزور
فمن لى بقرب العهد منها ودونها	مدى طال حتى يومه عندنا شهر
ولله علينا من رآنا وللأسى	ضرام له فى كل جارحة جمر
وقد بددت در الدموع يد النوى	وللشوق أشجان يضيق لها الصدر
بكينا على نهر الشروب عشية	فعاد أجاجا بعدنا ذلك النهر
أقول لأظعانى وقد غالها السرى	وأنسها الحادى وأوحشها الزجر
رويدك بعد العسر يسر أن ابشرى	بإنجاز وعد الله قد ذهب العسر
ولله فينا سر غيب وربما	أتى النفع من حال أريد بها الضر
وإنَّ تخن الأيام لم تخن النهى	وإنَّ يخذل الأقوام لم يخذل الصبر
وإنَّ عركت منى الحظوب مجربا	نقابا تساوى عنده الحلو والمر

فقد عجمت عوداً صليبا على الردى
إذا أنت بالبيضاء قررت منزلى
زجرنا بإبراهيم براء همومنا
بمنتخب من آل يعقوب كلما
تناقلت الركبان طيب حديثه
ندى لو حواه البحر لذ مذاقه
وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى
أطاعته حتى العصم فى قنن الربا
قصدناك يا خير الملوك على النوى
كففنا بك الأيام عن غلوائها
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى
ولما أتينا البحر يرهب موجه
خلافتك العظمى ومن لم يدن بها
ووصفك يهدى المدح قصد صوابه
دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت
ومدت إلى الله الأكف ضراعة
وألبسها النعمى ببيعتك التى
فأصبح ثغر الثغر ييسم ضاحكا

وعزما كما تمضى المهنة البتر
فلا اللحم حل ما حييت ولا الظهر
فلما رأينا وجهه صدق الزجر
دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر
فلما رأته صدق الخبر الخبر
ولم يتعقب مده أبداً جزر
وترفل فى أثوابه الفتكة البكر
وهشت إلى تأميله الأنجم الزهر
لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
وقد رابنا منها التعسف والكبر
ولذنا بذاك العز فانهزم الذعر
ذكرنا نذاك الغمر فاحتقر البحر
فإيمانه لغو وعرفانه نكر
إذا ضل فى أوصاف من دونك الشعر
وقد طاب منها السر لله والهجر
فقال لهن الله قد قضى الأمر
لها الطائر الميمون والمحتد الحر
وقد كان مما نابيه ليس يفتر

وأمنت بالسلم البلاد وأهلها
وقد كان مولانا أبوك مصرحا
وكنت خليقًا بالإمارة بعده
وأوحشت من دار الخلافة هالة
فرد عليك الله حَقَّكَ إذ قضى
وقاد إليك الملك رفقا بخلقه
وزادك بالتمحيص عزا ورفعَةً
وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى
وأنت إذا جَار الزمان مُحكم
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه
غريب يرجى منك ما أنت أهله
ففز يا أمير المسلمين ببيعة
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا
وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره
وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم
فإن قيل مال مالك الدهر وافر
يكف باب العادى ويحيا بك الهدى
أعده إلى أوطانه عنك راضيًا
فلا ظبة تعرى ولا روعة تعرو
بأنك فى أبنائه الولد البر
على الفور لكن كل شىء له قدر
أقامت زمانا لا يلوح بها البدر
بأن تشمل النعمى وينسدل الستر
وقد عدموا ركن الإمامة واضطروا
وأجرا ولولا السبك ما عرف التبر
وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
لك النقض والإبرام والنهى والأمر
مهيض ومن عليك يلتمس الجبر
فإن كنت تبغى الفخر قد جاءك الفخر
موثقة قد حل عروتها الغدر
بيالمرين جاءه العز والنصر
ففى ضمن ما تأتى به العز والأجر
بحق فما زيد يرجى ولا عمرو
وإن قيل جيش عندك العسكر المجر
ويبنى بك الإسلام ما هدم الكفر
وطوقه نعماك التى مالها حصر

وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة
مرامك سهل لا تؤودك كلفة
وما العمر إلا زينة مستعارة
ومن باع ما يفنى باق مـخلد
ومن دون ما تبغيه يا ملك الهدى
وراد وشقر واضحات شياتها
وشهب إذا ما ضمرت يوم غارةٍ
وأسد رجال من مرين مخيفة
عليها من الماذى كل مفاضة
هم القوم إن هبوا لكشف ملمة
إذا سئلوا أعطوا وإن نوزعوا سطوا
وإن مدحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم
وإن سمعوا العوراء فروا بأنفس
وتبسم ما بين الوشيح ثغورهم
أمولاي غاضت فكرتى وتبلدت
ولولا حنان منك داركتنى به
فأوجدت منى فائتًا أى فائت

فقد صدهم عنه التغلب والقهر
تحاولها يمينك ما بعدها خسر
سوى ما إن له فى العلا خطر
ترد ولكن الثناء هو العمر
فقد انجح المسعى وقد ربح التجر
جياذ المذاكى والمحجلة الغر
فأجسامها تبر وأرجلها در
مطهمة غارت بها الأنجم الزهر
عمائمها بيض وآسالها سمر
تدافع فى أعطافها اللجج الخضر
فلا الملتقى صعب ولا المرتقى وعر
وإن واعدوا وفوا وإن عاهدوا بروا
نشاوى تمشت فى معافطهم خمر
حرام على هماتها فى الوغى الفر
وما بين قضب الدوح يبتسم الزهر
طباعى فلا طبع يعين ولا فكر
وأحييتنى لم تبق عين ولا أثر
وأنشرت ميتا ضم أشلاءه قبر

بدأت بفضل لم أكن لعظيمه بأهل فجل اللطف وانفرج الصدر
 وطوقتني النعمى المضاعفة التي يقل عليها منى الحمد والشكر
 وأنت بتميم الصنائع كافل إلى أن يعود الجاه والعز والوفر
 جزاك الذى أسنى مقامك عصمة يفك بها عانٍ وينعش مضطر
 إذا نحن أثينا عليك بمدحة ففهيها يحصى الرمل أو يحصر القطر
 ولكننا نأتى بما نستطيعه ومن بذل المجهود حق له العذر
 فلا تسأل عن امتعاض وانتقاض، وسداد أنحاء فى التأثير لنا وأغراض،
 والله غالب على أمره.

وفى صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال عام اثنين وستين
 وسبع مائة كان انصرافه إلى الأندلس، وقد ألح صاحب قشتالة فى طلبه،
 وترجع الرأى على قصده، فقعد السلطان بقبة العرض من جنة المصارة، وبرز
 الناس وقد أسمعهم البُريح، واستحضرت البنود، والطبول والآلة، وألبس
 خلعة الملك، وقيدت له مراكبه فاستقل، وقد التف عليه كل من جلا عن
 الأندلس من لدن الكائنة فى جملة كثيفة، ورئى من رقة الناس وإجهاشهم
 وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد، إذ كان مظنة ذلك سكوناً وعطافاً
 وقرباً، قد ظلله الله بوارق الرحمة، وعطف عليه وشائج المحبة، إلى كونه
 مظلوم العقد، منزع الحق، فتبعته الخواطر وحميت عليه الأنفس، وانصرف
 لوجهته؛ وهو الآن برندة مستقل بها وبجهاتها، ومقتنع برسم سلطانها وقد
 قام له برسم الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن على بن يوسف بن كماشة
 الحضرمى، وبكتابه الفقيه أبو عبد الله بن زمرك، وقد استفاض عنه الحزم

والتدرب والتيقظ للأمور والمعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر، كان الله له ولنا بفضله.

انتهى كلام ابن الخطيب في اللوحة البدرية(*).

وقد عرفت أنه في ذلك التاريخ لم يكن دخل السلطان غرناطة، ولم يلحق به ابن الخطيب حتى دخلها.

وقد ذكر وليّ الدين بن خلدون هذه الواقعة في تاريخه الكبير^(١)، وأحسن سردها، فقال في ترجمة أيام السلطان أبي سالم ما نصه:

الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة

ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان

لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبع مائة ونصب ابنه محمد للأمر واستبد عليه رضوان مولى أبيه وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته فلما عدلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قصورهم وكان له صهر من ابن عمه إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فكان يدعوه سرا إلى القيام بأمره حتى أمكنته فرصة في الدولة بخروج السلطان إلى بعض متزهاته برياضه فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين في بعض أوشاب جمعهم من الطغام وعمد إلى دار الحاجب رضوان فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرمه وبناته وقربوا إلى إسماعيل فرسه فركب فأدخلوه القصر وأعلنوا بيعته وقرعوا طبولهم بسور الحمراء وفر السلطان من مكانه بمتزهه فلحق بوادي آش وغدا الخاصة والعامة

(١) انظر في ذلك: تاريخ ابن خلدون ج٧، ص ٣٠٦.

على إسماعيل فبايعوه واستبدّ عليه هذا الرئيس ابن عمه فخلعه لأشهر من بيعته واستقل بسلطان الأندلس. ولما لحق السلطان أبو عبد الله محمد بوادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان واتصل الخبر بالسلطان المولى أبي سالم امتعض لمهلك رضوان وخلع السلطان رعيًا لما سلف له في جوارهم وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه فوصل إلى الأندلس وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد الله ابن الخطيب كانوا اعتقالوه لأول أمرهم لما كان رديفاً للحاجب رضوان، وركنًا لدولة المخلوع فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه فأطلقوه ولحق مع الرسول أبي القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب وأجاز لذي القعدة من سنته وقدم على السلطان بفاس وأجل قدومه وركب للقائه ودخل به إلى مجلس ملكه وقد احتفل ترتيبه وغص بالمشيخة والعلية ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ويستحثه لمظاهرتة على أمره واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة.

ثم سرد ولي الدين بن خلدون القصيدة التي قدمنا ذكرها إلى آخرها^(١)، قال^(٢): ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزله وقد فرشت له القصور وقربت الجياد بالمراكب الذهبية وبعث إليه بالكسي الفاخرة ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي^(٣)، وبطانته من الصنائع وحفظ عليه رسم سلطانه في الراكب والراجل ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة أدبا مع

(١) أرودها ابن خلدون في تاريخه ج٧، ص ٣٠٧ - ٣٠٩.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٧، ص ٣٠٩.

(٣) يريد العلوجيين، أي الموالي من النصاري.

السلطان واستقر في جملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين ما نحن نذكره.

انتهى كلام ابن خلدون وفيه بعض مخالفة يسيرة لكلام ابن الخطيب في اللمحة البدرية.

ولا بد أن نسرد كلام ابن خلدون في شأن ابن الخطيب إذ ذكره في ترجمة السلطان أبي الفارس ابن السلطان أبي الحسن المريني بما نصه:

الخبر عن قدوم الوزير ابن الخطيب على السلطان بتلمسان

نازعا إليه عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس

(*) أصل هذا الرجل من لوثة على مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي فيه ساحاتها المسمى بالمرج على وادي شخبيل، ويقال شنبيل^(١)، المخترق في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال كان بها له سلف معدود في وزرائها وانتقل أبوه عبد الله إلى غرناطة واستخدم لملوك بني الأحمر واستعمل على مخازن الطعام ونشأ ابنه محمد بغرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الأدب وأخذ عن أسيائها وامتأل حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه ونبع في الشعر والترسيل بحيث لا يجارى فيهما وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره وملا الدنيا بمدائحه وانتشرت في الآفاق فرقاها السلطان إلى خدمته وأثبتته في ديوان الكتاب

(*) من هذه العلامة إلى مثلها ص ١٨٢ منقول بنصه عن ابن خلدون ٣٢٢/٧.

(١) تحرف في سائر الأصول وابن خلدون إلى: «شنبيل» وصوابه لدى المقرئ في نفح الطيب

ج ٥، ص ٨. وشنيل: اسم نهر غرناطة الشهير.

ببابه مرءوسا بأبى الحسن بن الجياب شيخ العدوتين فى النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه كما مر فى أخبارهم. فاستبد ابن الجياب برياسة الكتاب من يومئذ إلى أن هلك فى الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبع مئة، فولى السلطان أبو الحجاج يومئذ محمد بن الخطيب رياسة الكتاب ببابه مثناة بالوزارة ولقبه بها فاستقل بذلك وصدرت عنه غرائب من الترسيل فى مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو ثم داخله السلطان فى تولية العمال على يده بالمشارطات فجمع له بها أموالا وبلغ به فى المخالصة^(١) إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله وسفر عنه إلى السلطان أبى عنان ملك بنى مرين بالعدوة معزيا بأبيه السلطان أبى الحسن فجلى فى أغراض سفارته. ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين عدا عليه بعض الزعانف [يوم الفطر بالمسجد]^(٢) فى سجوده للصلاة وطعنه فأشواه وفاظ لوقته وتعاورت سيوف الموالى الملعوجى هذا القاتل فمزقوه أشلاء وبويع ابنه [محمد]^(٢) بالأمر لوقته وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم فى قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم واستبد بالدولة وأفرد ابن الخطيب بوزارته. كما كان لأبيه [واتخذ لكتابته غيره]^(٢) وجعل ابن الخطيب رديفا لرضوان فى أمره ومشاركاً فى استبداده معه فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبى عنان مستمدين له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه فى إنشاد شعر قدمه بين يدي نجواه فأذن له وأنشد وهو قائم:

(١) فى سائر الأصول: «المخالطة» والمثبت من نفح الطيب ٩٨/٥.

(٢) ما بين حاصرتين من تاريخ ابن خلدون ج ٧، ص ٣٣٢.

خليفة الله ساعد القدر عَلاك ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك فى النائبات بدر دجى لنا وفى المحل كـفك المطر
والناس طُراً بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن فى غير عليك ما له وطر
ومن به مذ وصلت حبلهم ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهتمتهم بأنفسهم فوجهونى إليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات، وأذن له فى الجلوس، وقال له قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ثم أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه. وقال شيخنا القاضى أبو القاسم الشريف وكان معه فى ذلك الوفد: لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا.

ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عم السلطان شركه فى جده الرئيس أبى سعيد وتحين خروج السلطان إلى منزله خارج الحمراء وتسوروا دار الملك المعروفة بالحمراء وكبس رضوان فى بيته فقتله ونصب للملك إسماعيل أبى الحجاج بما كان صهره على شقيقته وكان معتقلا بالحمراء فأخرجه وباع له وقام بأمره مستبدا عليه وأحس السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان فركب ناجيا إلى وادى آش وضبطها وبعث بالخبر إلى السلطان أبى سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب وقد كان مثواه أيام أخيه أبى عنان عندهم بالأندلس واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه فى محسبه وكانت بينه وبين

الخطيب ابن مرزوق مودة استحكمت أيام مُقامه بالأندلس وكان غالبا على هوى السلطان أبى سالم فزين له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادى آش يعده زبونا على أهل الأندلس ويكف به عادية القرابة المرشحين هناك متى طمحووا إلى ملك المغرب فقبل ذلك منه وخاطب أهل الأندلس فى تسهيل طريقه من وادى آش إليه وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمسانى وحمله مع ذلك الشفاعة فى ابن الخطيب وحل معتقله فأطلق وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادى آش وسار فى ركاب سلطانه وقدموا على السلطان أبى سالم فاهتز لقدم أبى الأحمر وركب فى الموكب لتلقيه وأجلسه إزاء كرسيه وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مر يستصرخ السلطان لنصره فوعده وكان يوما مشهودا وقد مر ذكره ثم أكرم مثواه وأرغد نزله ووفر أرزاق القادمين فى ركابه وأرغد عيش ابن الخطيب فى الجراية والإقطاع. ثم استأنس واستأذن السلطان فى التجوال بجبهات مراکش والوقوف على آثار الملك بها فأذن له وكتب إلى العمال بإتحافه فتباروا فى ذلك وحصل منه على حظ وعندما مر بسلا إثر قفوله من سفره دخل مقبرة الملوك بشالة ووقف على قبر السلطان أبى الحسن وأنشد قصيدته على روى الرءاء [الموصولة] (١) يرثيه ويستجير به فى استرجاع ضياعه بغرناطة مطلعها:

إن بان منزله وشطت داره قامت مقام عيانه أخباره
قسم زمانك عِبرة أو عِبرة هذا ثراه وهذه آثاره
فكتب السلطان أبو سالم فى ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة فشفعوه واستقر هو بسلا منتبذا عن سلطانه طول مقامه بالعدوة. ثم عاد السلطان

(١) التكملة عن ابن خلدون.

محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاثة وستين وبعث عن مخلفه بفاس من الأهل والوالد والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله بن علي فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره فسر السلطان لقدمه ورده إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة وابن أشياخهم قد لحق بالطاغية في ركب أبيه عندما أحس بالشر من الرئيس صاحب غرناطة وأجاز يحيى من هنالك إلى العداوة وأقام عثمان بدار الحرب فصحب السلطان في مشوى اغترابه هنالك، وتقلب في [مذاهب]^(١) خدمته وانحرفوا عن الطاغية بعد ما يئسوا من الفتح على يده فتحولوا عنه إلى ثغور بلادهم، وخاطبوا [الوزير]^(٢) عمر بن عبد الله في أن يمكنهم من بعض الثغور الغربية التي لطاعتهم^(٢) بالأندلس يرتقبون منها الفتح وخاطبني السلطان المخلوع في ذلك وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله ذمة مرعية وخاصة متأكدة فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله وحملته على أن يرد عليه مدينة رندة إذ هي من تراث سلفه فقبل إشارتي في ذلك وتسوغها السلطان المخلوع ونزل بها وعثمان بن يحيى في حملته وهو المقدم في بطانته ثم غزوا منها مالقة فكانت ركابا للفتح وملكها السلطان واستولى بعدها على دار ملكه بغرناطة وعثمان ابن يحيى متقدم القوم في الدولة عريق في المخالصة وله على السلطان دالة واستبداد على هواه. فلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده وأعادته إلى مكانه في الدولة من علو يده وقبول اشارته أدركته الغيرة من عثمان ونكر على السلطان الاستكفاء به، و[أراه]^(١) التخوف من هؤلاء الأعياص فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع

(١) التكملة عن نفح الطيب ج ٥ ص ١٠١.

(٢) في سائر الأصول: «لطاغيتهم» والمثبت من نفح الطيب.

وستين، وأودعهم المطبق، ثم غريبهم بعد ذلك وخلا لابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تديرير الدولة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت به الآمال وغشى بابيه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وطشيته ففتنوا فى السعيات فيه وقد صُم^(١) السلطان عن قبولهم ونمى الخبر بذلك إلى ابن الخطيب فشمّر عن ساعده فى التفويض واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن ملك الغدوة يومئذ فى القبض على ابن عمه عبد الرحمن ابن أبى يفلّوس ابن السلطان أبى على كانوا قد نصبوه شيخا على الأندلس لما أجاز من العدو بعد ما جاس خلالها لطلب الملك وأصرم بها نار الفتنة فى كل ناحية وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله القائم حينئذ بدولة بنى مرين فاضطر إلى الإجازة إلى الأندلس فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماساى ونزلوا على السلطان المخلوع عام سبعة وستين فأكرم نزلهم وتوفى على بن بدر الدين شيخ الغزاة فقدم عبد الرحمن مكانه. وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد الله فغص بما فعله السلطان المخلوع من ذلك وتوقع انتقاض أمره منهم ووقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسر بها فى بنى مرين فجزع لذلك وداخله ابن الخطيب فى اعتقاله ابن أبى يفلّوسن وابن ماساى، وإراحة نفسه من شغبهم، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه فأجابته إلى ذلك وكتب له العهد بخطه على يد سفيره إلى الأندلس وكاتبه أبى يحيى بن أبى مدين وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن يفلّوسن وابن ماساى فقبض^(٢) عليهم واعتقلهم وفى خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه من البطانة من القدح فيه والسعاية وربما تخيل السلطان مال إلى قبوله وأنهم قد أحفظوه عليه فأجمع التحول عن

(١) فى نفح الطيب ١٠١/٥: «وقد همّ».

(٢) فى نفح الطيب ١٠٢/٥: «فتقبّض».

الأندلس إلى المغرب واستأذن السلطان فى تفقد الثغور [الغربية]^(١) وسار إليها فى لُمة من فرسانه ومعه ابنه على الذى كان خاصة للسلطان وذهب لطيته فلما حاذى جبل الفتح فرضة المجاز إلى العدو مال إليه وسرح إذنه بين يديه فخرج قائد الجبل لتلقيه . [وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك وجهز له الأسطول من حينه فأجاز إلى سبتة وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتنال المراسم ثم سار لقصد السلطان فقدم عله سنة ثلاث وسبعين بمقامه تلمستان فهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه]^(١)، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة ومن دولته بمكان التنويه والعز وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبى مدين سفيراً إلى صاحب الأندلس فى أهله وولده فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ثم أكثر المنافسون له فى شأنه وأغروا سلطانه بتتبع عثراته وإبداء ما كان كامناً فى نفسه من سقطاته وإحصاء معايبه وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها [إليه]^(١) ورفعت إلى قاضى الحضرة أبى الحسن بن الحسن فاسترعاهها وسجل عليه بالزندقة وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه وبعث القاضى ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز فى الانتقام منه بتلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه فصم عن ذلك وأنف لذمته أن تخفر لجواره أن يرد وقال لهم: هلا انتقمتم منه عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان فى جوارى ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه، ولن جاء من أهل الأندلس فى جملته. فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين، ورجع بنو مرين إلى المغرب، وتركوا تلمسان، سار هو فى ركاب الوزير أبى بكر بن غازى، القائم بالدولة، فنزل بفاس، واستكثر من شراء الضياع،

(١) التكملة عن ابن خلدون.

وتأثق في بناء المساكن، واغتراس الجنات، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفى، واتصلت حاله على ذلك، إلى أن كان ما نذكره(*)).

انتهى كلام ابن خلدون وأكثره بلفظه.

قلت: وقد وقفت على كتاب القاضي أبي الحسن بن الحسن المذكور يخاطب به ابن الخطيب يعظه، ويشير إلى ما اشتغل به من البنیان، وفيه ما يبين كلام ابن خلدون السابق وزيادة، وما يدل على ما ذكره ابن خلدون من أنه سجل عليه بأمر منكرة، وعند الله تجتمع الخصوم، وقد أسقطت بعضه اختصاراً، ونص ما تعلق به الغرض قوله يخاطب الوزير ابن الخطيب:

(*) فشرعتم في الشراء، وتشبيد البناء؛ وتركتم الاستعداد لهادم اللذات، هيهات هيهات؛ تبنون ما لا تسكنون وتدخرون ما لا تأكلون، وتؤملون ما لا تدركون؛ أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة، فأين المهرب مما هو كائن! ونحن إنما نتقلب في قدرة الطالب، شرقتم أو غربتم، [والأيام تتقاضى الدين، وتنادى بالنفس الفرارة إلى أين إلى أين! ونترك الكلام مع الناقد]^(١) فيما ارتكبه من تركية نفسه، وعد ما جلبه من مناقبه، ما عدا ما هدد به من حديد لسانه، خشية اندراجه في نخط من قال فيه رسول الله ﷺ: «إن من شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه». ولا غيبة فيمن ألقى جلباب الحياء عن وجهه؛ ونرحمه على ما أبداه وأهداه من العيوب التي نسبها لأخيه،

(*) من هذه العلامة إلى مثلها فيما يلي في ص ١٨٦ أورده المقرئ بنصه في نفح الطيب ج ٥

ص ١٢٢ - ١٢٤.

(١) التكملة من نفح الطيب.

واستراح على قوله بها فيه، ونذكره على طريقة نصيحة الدين، بالحديث الثابت في الصحيح عن رسول الله ﷺ، وهو قوله: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع! فقال: إنَّ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار». ويعلم الله أن معنى هذا الحديث الثابت عن النذير الصادق، هو الذي حملني على نصحكم ومراجعتكم في كثير من الأمور، منها الإشارة عليكم بإذهاب عين ما كتبتم به في التاريخ وأمثاله، فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من الغيبة المحرمة أحياء وأمواتاً، لغير شيء حصل بידكم، وضررتم أنفسكم بما رتبتم من المطالبات بنص الكاتب والسنة قبلكم، والرضا بهذه الصفقة الخاسرة أمر بعيد من الدين والعقل. وقد قلت لكم غير ما مرة عن أطراسكم المسودة، بما دعوتهم إليه من البدعة، والتلاعب بالشرعية: إنَّ حقها التخريق والتحريق، وإنَّ من أطراها لكم فقد خدع نفسه وخدعكم، والله الشهيد بأني نصحتكم وما غششتكم، وليس هذا القول وإنَّ كان ثقيلاً عليكم، بمخالف لما ذنبتم^(١) به من تقدم المواجهة بالملاطفة، والمعاملة بالمكانمة، فليست المداراة بقادحة في الدين، بل هي محمودة في بعض الأحوال، مستحسنة على ما بينه من العلماء، إذ هي مقاربة في الكلام، أو معاملة بأسباب الدنيا، لصلاحها أو صلاح الدين، وإنَّما المذموم المداينة،

(١) كذا في سائر الأصول ومثلها لدى المؤلف في نفح الطيب ج ٥، ص ١٢٣. ومن معانيها في المعجم الوسيط: «ذَنَّبَ الكتاب: ألحق به تَمَّة» وفي متن المطبوع أيضاً: «ذنبتم» وبهامشه: «كذا في الأصلين ونفح الطيب» ولعلها محرفة عن: «زنتم به»، أي ظننتم.

وهى بذل الدين لمجرد الدنيا، والمصانعة به لتحصيلها؛ ومن خالط للضرورة مثلكم وزايله بأخلاقه، ونصحته مخاطبة ومكاتبة، واستدل له بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على صحة مقالته، فقد سلم والحمد لله من مداهنته، وقام لله بما يجب عليه فى حقكم من التحذير والإنكار، مع الإشفاق والوجل. وأكثرتم فى كتابكم من المن بما ذكرتم أنكم صنعتم، وعلى تقدير الموافقة لكم، ليتكم فعلتم فسلمنا من المعرة وسلمتم، وجل القائل سبحانه: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة]. وقلما شاركنم أنتم فى شىء إلا بأعراض حاصلة فى يدكم، أو لأغراض دنيوية خاصة بكم، فالملام إذا فى الحقيقة إنما هو متوجه إليكم. وأما ما أظهرتم بمقتضى حركاتكم، من التندم على فراق محللكم، والتعلل بأخبار قطركم وأهلكم، فتناقض منكم، وإن كنتم فيه بغدركم:

أتبكى على لبنى^(١) وأنت تركتها فكنت كآتٍ حتفه وهو طائع
وما كل ما متتك نفسك خاليا تلاقى ولا كل الهوى أنت تابع
فلا تبكين فى إثر شىء ندامة إذا نزعتنه من يدك النوازع
وعلى أن تأسفكم لما وقعتم فيه من الغدر لسلطانكم، والخروج لا لضرورة غالبية عن أوطانكم، من الواجب بكل اعتبار عليكم، سيما وقد مددتم إلى التمتع لغيرها عينيك. ولو لم يكن لهذه الجزيرة الفريدة من

(١) لدى المقرئ فى نفح الطيب: «ليلى» وآثرت المثبت هنا لما ورد فى الأغاني (ج ٩ ص ٢١٧ طبعة دار الكتب).

فلا تبكين فى إثر لبنى ندامة وقد نزعتها من يدك النوازع
وهذه الأبيات من شعر لقيس بن ذريح فى زوجته لبنى بنت الحباب الكعبية.

الفضيلة إلا ما خصت به من بركة الرباط، ورحمة الجهاد، لكفاها فخرًا على ما يجاورها من سائر البلاد، قال رسول الله ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم سواه». وقال عليه السلام: «الروحة يروحها العبد في سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما فيها». وعلى كل تقدير فإذا لم يكن يا أخى فراركم من الأندلس إلى الله وحده بالتوبة المكمل والاستغفار، مع الانقطاع فى أحد المواطن المكرمة المعظمة بالإجماع، وهى طيبة أو مكة أو بيت المقدس، فقد خسرتم صفقة رحلتكم، وتبين أن لغير وجه الله العظيم كانت نية هجرتكم؛ اللهم إلا إن كنتم قد لاحظتم مسألة الرجل الذى قتل مائة نفس، وسأل أعلم أهل الأرض، فأشار عليه بعد إزماع التوبة بمفارقة المواطن التى ارتكب فيها الذنوب، وأكتسب بها العيوب؛ فأمر آخر، مع أن كلام العلماء فى هذا الحديث معروف؛ ويقال لكم من الجواب الخاص بكم: فعليكم إذا بترك القيل والقال، وكسر حربة الجدال والقتال، وقصر ما بقى من مدة العمر على الاشتغال بصالح الأعمال. ووقعت فى مكتوبكم كلمات أوردها النقد فى قالب الاستهزاء والازدراء، والجهالة بمقادير الأشياء، منها: ربح صرصر، وهو لغة القرآن، وقاع قرقر: وهو لفظ سيد العرب والعجم محمد ﷺ، ثبت فى الصحيح فى باب التغليظ فيمن لا يؤدى زكاة ماله، «قيل: يا رسول الله، والبقر والغنم؟ قال: ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً، تنطحه بقونها، وتطؤه بأظلافها». الحديث الشهير. قال صاحب المعلم: بطح لها البقاع قرقر، أى ألقى على وجهه، والقاع: المستوى من الأرض، والقرقر: كذلك؛ هذا ما حضر من الجواب. وبقى فى مكتوبكم حشو كثير من كلام الإقذاع، وفحش بعيد من الحشمة والحياء، رأيت أن من الصواب

الإضراب عن ذكره، وصون اليد عن الاستعمال فيه، والظاهر أنّه إنّما صدر عنكم وانتم بحال مرض، فلا حرج فيه عليكم إن شاء الله، أجلّكم، ومكّن أمنكم، وسكن وجلّكم، ومنه جل اسمه نسأل لى ولكم حسن الخاتمة، والفوز بالسعادة الدائمة، والسلام الأتم يعتمدكم، والرحمات والبركات من كاتبه على بن عبد الله بن الحسن، وفقه الله.

وذلك بتاريخات جمادى الأولى من عام ثلاثة وسبعين وسبع مئة(*) .

(*) وقيد رحمه الله فى مدرج طى هذا الكتاب ما نصه :

يا أخى، أصلحنى الله وإياكم، وبقي من الحديث شىء، الصواب الخروج عنه لكم، إذ هذا أوانه، وتأخير البيان عن وقت الحاجة فيه ما فيه، وليكن البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول الله، وحاصله :

أنكم عددتم ما شاركتكم فيه بحسب الأوقات، وقطعتم بنسبة الأمور كلها لنفسكم، وأنها إنّما صدرت عن أمركم وبإذّكم، من غير مشاركة فى شىء منها لكم، ثم منتم بها المن القبيح، المبطل لعمل برّكم، على تقدير التسليم فى فعله لكم، ورميتم غيركم بالتقصير فى حاله كله، طريقة من يبصر القذى فى عين أخيه ويدع الجذع فى عينه، وأقصى ما تسنى للمحب أيام كونكم بالأندلس، تقلد كلفة قضاء الجماعة، وما كان إلّا أنّ وليتها بقضاء الله وقدره، فقد تبين لكل ذى عقل سليم أنّه لا موجد إلّا الله، وإذا كان كذلك كان الخير والشر والطاعة والمعصية حاصلاً بإيجاده سبحانه وتخليقه وتكوينه،

(*) من هذه العلامة إلى مثلها فيما يلى فى ص ١٩٣ أورده المقرئ بنصه فى نفح الطيب ج ٥ ص ١٢٥ - ١٣١ .

من غير عاصد له على تحصيل مراده ولا معين، ولكنه، جلت قدرته، وعد فاعل الخير بالثواب فضلا منه، وأوعد فاعل الشر بالعقاب عدلا منه، وكأني بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة، وما أحوجكم إلى تأملها بعين اليقين، فكابدت أيام تلك الولاية النكدة من الكناية، باستحقاقكم للقضايا الشرعية، وتهاونكم بالأمور الدينية، ما يعظم الله به الأجر، وذلك فى جملة مسائل، منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة بعد تقضى موجباته، على كره منكم؛ ومنها مسألة ابن أبى العيش المثقف فى السجن على آرائه المضلة، التى كان منها دخوله على زوجه إثر تطليقه إياها بالثلاث، وزعمه أن رسول الله ﷺ أمره بالمشافهة بالاستمتاع بها، فحملتم أحد ناسكم تناول إخراجهم من الثقاف، ومن غير مبالاة بأحد؛ ومنها أن أحد الفتيان المتعلقين بكم توجهت عليه مطالبة بدم القتل، وسبق المدعى عليه للذبح بغير سكين، فما وسعنى بمقتضى الدين إلا حبسه على ما أحكمته السنة، فأنتم لذلك، وسجتم الطالب ولى الدم، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور، إلى غير ذلك مما لا يسع الوقت شرحه، ولا يجملى بى ولا بكم ذكره. والمسألة الأخرى أنتم توليتم كبرها، حتى جرى فيها القدر بما جرى من الانفصال، والحمد لله على كل حال. وأما الرمى بكذا وكذا مما لا علم لنا به بسببه، ولا عذر لكم من الحق فى التكلم به، فشئء قلما يقع من البهتان، ممن كان يرجو لقاء ربه، وكلامهم فى المدح والهجو هو عندى من قبيل اللغو الذى نمر به كراما، والحمد لله فكثروا أو أقلوا من أى نوع شئتم، وأنتم وما ترضونه لنفسكم، وما فهت لكم بما فهت من الكلام، إلا على جهة الإعلام، لا على جهة الانفعال، لما صدر أو يصدر عنكم من الأقوال، فمذهبى غير مذهبكم، وعندى ما ليس عندكم.

وكذلك رأيتم تكثر في مخاطبتكم من لفظ الرقية في معرض الإنكار لوجود نفعها، والرمى بالمنقصة والحق لمستعملها، ولو كنتم قد نظرت في شيء من كتب السنة، وسير الأمة المسلمة، نظر مصدق، لما وسعكم إنكار ما أنكرتم، وكتبه بخط يديكم، فهو قاذح كبير في عقيدة دينكم، فقد ثبت بالإجماع في سورة الفلق أنه خطاب للنبي ﷺ، وأنَّ المراد بها هو وآحاد أمته؛ وفي أمهات الإسلام الخمس أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى رقيه جبريل، فقال: بسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، ومن شر كل ذي عين. وفي الصحيح أيضاً إنَّ أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر، فمروا بحَيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فلم يضيفوهم، فقالوا: هل فيكم راق؟ فإنَّ سيد الحى لديغ أو مصاب: فقال رجل من القوم: نعم، فأتاه بفاتحة الكتاب، فبرئ الرجل، فأعطى قطيعاً من غنم، الحديث شهير. قال أهل العلم: فيه دليل على جواز اخذ الأجرة على الرقية والطب وتعليم القرآن، وهو قول مالك والشافعي وأحمد وأبي ثور وجماعة من السلف، وفيه جواز المقارضة، وإنَّ كان ضد ذلك أحسن، وفي هذا القدر كفاية. وما رقيت قط أحداً على الوجه الذي ذكرتم، ولا استرقيت، والحمد لله، وما حملني على تبين ما بينته الآن لكم في المسألة، إلاَّ إرادة الخير التام لجهتكم، والطمع في إصلاح باطنكم وظاهركم، فإنني أخاف عليكم من الإفصاح بالطعن في الشريعة، ورمى علمائها بالمنقصة، على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم، منكر علم الجزئيات، القائل بعدم قدرة الرب على جمع الممكنات؛ وانتم قد انتقلتم إلى جوار أناس أعلام، قلما تجوز عليهم، حفظهم الله، المغالطات، فتأسركم شهادة العدول

التي لا مدفع لكم فيها، وتقع الفضيحة، والدين النصيحة، أعاذنا الله من
درك الشقاء، وشماتة الأعداء، وجهد البلاء.

وكذلك أحذركم من الوقوع بما لا ينبغي في الجانب الرفيع، جناب سيد
المرسلين، وقائد الغر المحجلين، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه نقل عنكم
في هذا الباب أشياء منكورة، يكبر في نفوس التكلم بها، أنتم تعلمونها، وهي
التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم، وإيثار بعدم، مع استشعار
الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص ظل
السلطنة عنكم، لكانت الأمة المسلمة، امتعاضاً لدينها وديهاها، قد برزت بهذه
الجهات، لطلب الحق منكم، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدول
ما صدر عنكم، من البعث في الأبخار والأموال، وهتك الأعراض، وإفشاء
الأسرار، وكشف الأستار، واستعمال المكر والحيل والغدر في غالب
الأحوال، للشريف والمشروف، والخديم والمخدوم، ولو لم يكن في الوجود
من الدلائل على صحة ما رضىتم به لنفسكم، من الاتسام بسوء العهد،
والتجاوز المحض وكفران النعم والركون إلى ما تحصل من الخطام الزائل إلا
عملكم مع سلطانكم ومولاكم وابن مولاكم أيده الله بنصره وما ثبت من
مقالاتكم السيئة فيه وفي الكثير من أهل قطره لكفاكم وصمة لا يغسل دنسها
البحر ولا ينسى عارها الدهر فإنكم تركتموه أولاً بالمغرب عند تلون الزمان
وذهبتم للكدية والأخذ بمقتضى المقامة الساسانية إلى أن استدعاه الملك
وتخلصت له بعد الجهد الأندلس فسقطتم عليه سقوط الذباب على الحلواء
وضربتم وجوه رجاله بعضا ببعض حتى خلا لكم الجو وتمكن الأمر والنهي
فهمزتم ولزمتهم وجمعتم من المال ما جمعتم ثم وريتم بتفقد ثغر الجزيرة
الخضراء مكرًا منكم فلما بلغتكم أرض الجبل انحرفتكم عن الجادة وهربتم

بأنثقالكم الهروب الذى أنكره عليكم كل من بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر فى العدوتين من مؤمن وكافر وبر وفاجر فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرفاتكم حازم أو يثق بكم فى قول أو فعل صالح أو طالح . ولو كان قد بقى لكم من العقل ما تتفكرون به فى الكيفية التى ختمتم بها عملكم بالأندلس من الزيادة فى المغرم وغير ذلك مما لكم وزره ووزر من عمل بعدكم إلى يوم القيامة حسبما ثبت فى الصحيح لحملكم على مواصلة الحزن وملازمة الأسف والندم على ما أوقعتم فيه أنفسكم الأمانة من التورط والتنشب فى أشطان الآمال ودسائس الشيطان ونعوذ بالله من شرور الأنفس وسيئات الأعمال .

وأما قولكم عن فلان: إنه كان حشرة فى قشور اللوز وإن فلان كان يرغوثةا فى تراب الخمول فكلام سفساف يقال لكم من الجواب عليه: وأنتم يا هذا أين كنتم من خمسين سنة مثلاً؟ خلق الله الخلق لا استظهاراً بهم ولا استكثاراً وأنشأهم كما قدر أحوالاً وأطواراً واستخلفهم فى الأرض بعد أمة أمما وبعد عصر أعصار وكلفهم شرائعه وأحكامه ولم يتركهم هملاً وأمرهم ونهاهم ليلوهم أيهم أحسن عملاً إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم وبكل اعتبار فلا نعلم فى غمط الطلبة تدريجاً كان أسمح فى تدريجكم ونبدأ من كذا فإنه كان كذا وكذا وأكثر أهل زمانه تخملاً وتقللاً فى نفسه بالنسبة إلى منصبه كان الشيخ أبو الحسن بن الجياب ولكنه حين علم رحمه الله من نشأتكم وحالتكم ما علم نبذ مصاهرتكم وصرف عليكم صداقكم وكذلك فعلت بنت جزی زوج الرهيصى معكم حسبما هو مشهور فى بلدكم وذكرتم أنكم مازلتم من أهل الغنى حيث نفرتم بذكر العرض وهو بفتح العين والراء: حطام الدنيا

على ما حكى أبو عبيد قال أبو زيد: هو بسكون الراء: المال الذى لا ذهب فيه ولا فضة وأى مال خالص يعلم لكم أو لأبيكم بعد الخروج من الثفاف على ما كان قد تبقى عنده مثال مجبى قرية مترايل ثم من العدد الذى برز قبلكم أيام كانت أشغال الطعام بيدكم على ما شهد به الجمهور من أصحابكم وأما الفلاحة التى أشرتم إليها فلا حق لكم فيها إذ هى فى الحقيقة لبیت مال المسلمين مع ما بيدكم على ما تقرر فى الفقهيات والمعدوم شرعا كالمعدوم حسا ولو قبل من أهل المعرفة بكم بعض مالدیهم من سقطاتكم فى القال والقیل ولم یصر إلى دفع معرفتها عنكم وجه التأویل لكانت مسألتكم ثانية لمسألة أبی الخیر بل أبی الشر الحادثم أيام خلافة الحكم المسطورة فى نوازل أبی الأصبغ بن سهل فاعلموا ذلك ولا تهملوا إشارتى عليك قديما وحديثا بلزوم الصلوات وحضور الجماعات وفعل الخیرات والعمل على التخلص من التبعات إنَّ وعد الله حق فلا تغرنكم الحیاة الدنیا ولا یغرنكم بالله الغرور.

وقلتم فى کتابکم: أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد؟ وقد أذهب الله عنا ببركة الملة المحمدية عیة الجاهلیة فى التفاخر بالآباء ولكننى أقول لكم على جهة المقابلة لكلامکم: إنَّ كانت الإشارة إلى المجیب بهذا فمن المعلوم المتحقق عند أفاضل الناس أنه من حیث الأصالة أحد أمائل قطره. قال القاضی أبو عبد الله بن عسکر: وقد ذکر فى کتابه من سلفی فلان بن فلان ما نصه: وبیته بیت قضاء وعلم وجلالة لم یزالوا یرثون ذلك کابرا عن کابر استقضى جده المنصور ابن أبی عامر. وقال غیره و غیره ویدی من عهود الخلفاء وصکوک الأمراء المکتبة بخطوط أیدیهم من لدن فتح جزيرة الأندلس إلى هذا العهد القریب ما تقوم به الحجة القاطعة للسان الحاسد والجاحد والمنة

لله وحده. وإن كانت الإشارة إلى الغير من الأصحاب فى الوقت حفظهم الله فكل واحد منهم إذا نظر إليه بعين الحق وجد أقرب منكم نسبا للخطط المعتبرة وأولى بميراثها بالفرض والتعصيب أو مساويا على فرض المسامحة لكم قال رسول الله ﷺ: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره حرام دمه وماله وعرضه.

ونرجع إلى طريقة أخرى فنقول: من كان يا فلان من قومكم فى عمود نسبكم فقيها مشهورا أو كاتباً قبلكم معروفاً أو شاعراً مطبوعاً أو رجلاً نبيا مذكوراً ولو كان يا لوشى وكان لكان من الواجب الرجوع إلى التناصف والتواصل والتواضع وترك التحاسد والتباغض والتقاطع إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

وكذلك العجب كل العجب من تسمياتكم الخربات التى شرعتم فى بنائها بدار السلامة وهيئات الهيئات المعروف من الدنيا أنها دار بلاء وجلاء وعناء وفناء ولو لم يكن من الموعظة الواقعة بتلك الدار فى الوقت إلا موت سعيدكم عند دخولها لأغناكم عن العلم اليقيني بمآلها وأظهرتم سرورا كثيرا بما قلتم إنكم نلتهم حيث أنتم من الشهوات التى ذكرتم أن منها الإكثار من الأكل والخرق والقعود بإزاء جارية الماء على نطح الجلد والإمساك أولى بالجواب على هذا الفضل فلا خفاء بما فيه من الخسة والخبث والخبث وبالجملة فسور العاقل إنما ينبغى أن يكون بما يجمل تقديمه من زاد التقوى للدار الباقية فما العيش كما قال رسول الله ﷺ إلا عيش الآخرة فقدموا إن قبلتم وصاة الحبيب أو البغيض بعضا عسى أن يكون لكم ولا تخلفوا كيلا يكون عليكم هذا الذى قلته لكم وإن كان لدى من يقف عليه من نمط الكثير فهو فى اعتبار المكان وما

مر من الزمان فى حيز اليسير وهو فى نفسه قول حق وصدق ومستند أكثره كتاب الله وسنة محمد رسول الله ﷺ وعلى سائر أنبيائه فاحمدوا الله العلى العظيم على تذكركم به إذ هو مجرى النصيحة الصريحة يسرنى الله وإيام لليسرى وجعلنا ممن ذكر فانتفع بالذكرى والسلام.

انتهى كلام القاضى أبى الحسن النباهى رحمه الله (*).

قلت: ولعل هذا الكلام وأشباهه هو الحامل لابن الخطيب على هجو القاضى ابن الحسن المذكور فى الكتيبة الكامنة^(١) حيث ذكره ولقبه بجعسوس ووصفه بما لا يليق ذكره ثم ألف فى ذلك تأليفا مستقلا سماه بخلع الرسن فى وصف القاضى ابن الحسن حسبما ألفيت ذلك بخط شيخنا القاضى سيدى عند الواحد الوانشريسى رحمه الله ولا يخلو كلام كل واحد منهما من تحامل على صاحبه والله يسمح لنا ولهما بجاه النبى ﷺ.

وقال ولى الدين بن خلدون فى تاريخه^(٢)، فى موضع آخر ما نصه:

كان محمد بن الأحمر المخلوع قد رجع من رندة إلى ملكه بغرناطة فى جمادى من سنة ثلاث وستين وقتل له الطاغية عدوه الرئيس المنتزى على ملكهم حين هرب من غرناطة إليه وفاء بعهد المخلوع واستوى على كرسيه واستقل بملكه ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب فاستخلصه وعقد له على وزارته وفوض إليه القيام بملكه فاستولى عليه وملك هواه وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه إلى إن نزلت به آفة فى رياسته فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه وكان لأبناء السلطان أبى الحسن كلهم غيرة من

(١) الكتيبة الكامنة ص ١٤٦، وانظر أيضاً نفح الطيب ج ٥ ص ١٢١.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٧، والمقرى فى نفح الطيب ج ٥ ص ١٠٤ نقلاً عن ابن خلدون.

ولد عمهم السلطان أبى على ويخشونه على أمرهم ولما لحق الأمير عبد الله الرحمن بن أبى يفلوسن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب واستخلصه لنجواه، ورفع فى الدولة رتبته، وأعلى منزلته، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زنانة مكان بنى عمه من الأعياص فكانت له آثار فى الاضطلاع بها ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه وكان ابن الخطيب ساعيا فى مرضاته عند سلطانه فدى إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبى يفلوس ووزيره [المطارد به]^(١) مسعود بن ماساى؛ وأدار ابن الخطيب فى ذلك مكره وحمل السلطان عليهما إلى أن سطا بهما ابن الأحمر واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز وتغير الجو بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم وتنكر له فنزع عنه إلى عبد العزيز سلطان المغرب سنة ثنتين وسبعين لَمَّا قدم من الوسائل ومهد من السوابق فقبله السلطان وأحله فى مجلسه محل الاصطفاء والقرب وخاطب ابن الأحمر فى أهله وولده فبعثهم إليه واستقر فى جملة السلطان. ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر فرغب السلطان [عبد العزيز]^(٢) فى ملك الأندلس وحمله عليه وتواعدوا فى ذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب ونمى ذلك إلى ابن الأحمر فبعث إلى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثلها انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوكة السبى وجواريه وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه فأبى السلطان من ذلك ونكره. ولما هلك واستبد الوزير ابن غازى بالأمر تحيز إليه ابن الخطيب ودخله وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان [عبد العزيز]^(٢)، فلج واستنكف عن ذلك وأقبح الرد وانصرف رسوله إليه وقد

(١) التكملة لدى ابن خلدون.

(٢) التكملة لدى المقرئ.

رهب سطوته فانطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبى يفلوسن وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية^(١)، ومع الوزير مسعود بن ماساى ونهض - [يعنى ابن الأحمر]^(١) - إلى جبل الفتح فنازله بعساكره ونزل عبد الرحمن ببطوية.

ثم ذكر ابن خلدون كلاما كثيرا تركته لطوله وملخصه^(٢): أن الوزير أبا بكر ابن غازى الذى كان معه ابن الخطيب ولى ابن عمه محمد بن عثمان مدينة سبتة خوفا عليها من ابن الأحمر ونهض هو أعنى الوزير إلى منازل عبد الرحمن بن أبى يفلوسن ببطوية إذ كانوا قد بايعوه فامتنع عليه وقاتله أياما ثم رجع إلى تازا^(٣)، ثم إلى فاس واستولى عبد الرحمن على تازا وبينما الوزير أو بكر بفاس يدبر الرأى إذ وصله الخبر بأن ابن عمه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبى سالم وهو المعروف بذى الدولتين وهذه هى دولته الأولى وذلك أن ابن عم الوزير وهو محمد بن عثمان لما تولى سبتة كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح وأخذ بمخنقة وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان والعتاب فاستعجب له وقبَّح ما جاء به ابن عمه الوزير أبو بكر بن غازى من الاستغلاظ له فى شأن ابن الخطيب وغيره فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه وداخله فى البيعة لابن السلطان أبى سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة والرَّقبة، وأنَّ يقيمه للمسلمين سلطانا ولا يتركهم فوضى وهملا تحت ولاية الصبى الذى لم يبلغ ولا تصح ولايته

(١) بطونة: من حصون ورباطات سفاقس، وهى على البحر وبها منار مفرط فى الارتفاع (المغرب للبكرى).

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٨.

(٣) تازا: موضع من أعمال بنى العافية، فى جبل منه الذهب (المغرب للبكرى).

شرعا وهو السعيد بن أبى فارس الذى بايعه الوزير أبو بكر بن غازى بتلمستان حين مات أبوه واستبد عليه واختص ابن الأحمر أحمد بن أبى سالم من بين أولئك الأبناء لما سبق بينه وبين أبيه أبى سالم من المولاة. و كان ابن الأحمر اشترط على محمد بن عثمان وحزبه شروطا منها أن ينزلوا له من جبل الفتح الذى هو محاصر له وأن يبعثوا له جميع أبناء الملوك من بنى مرين ليكونوا تحت حوطته وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا عليه فانهقد أمرهم على ذلك وتقبل محمد بن عثمان شروطه وركب من سبته إلى طنجة واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله فبايعه وحمل الناس على طاعته واستقدم أهل سبته للبيعة وكتابتها فقدموا وبايعوا وخاطب أهل جبل الفتح فبايعوا وأفرج ابن الأحمر عنهم. وبعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتح وخاطب أهله بالرجوع إلى طاعته فارتحل ابن الأحمر من مالقة إليه ودخله ومحا دعوة بنى مرين مما وراء البحر وأهدى للسلطان أبى العباس وأمده بعسكره من غزاة الأندلس وحمل إليه مالا للإعانة على أمره. ولما وصل الخبر بهذا إلى الوزير أبى بكر بن غازى قامت عليه القيامة وكان ابن عمه محمد بن عثمان كتب إليه يموه بأن هذا عن أمره فتبرأ من ذلك ولاطف ابن عمه أن ينقض ذلك الأمر فاعتل له بانعقاد البيعة لأبى العباس. وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمه إلى ما رامه منه بلغه الخبر بأنه أشخص الأبناء المعتقلين كلهم للأندلس وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر فوجم وأعرض عن ابن عمه ونهض إلى تازا لمحاصرة عبد الرحمن بن أبى يفلوسن فاهتبل فى غيبة ابن عمه محمد بن عثمان مُلْكَ المغرب ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة نحو ستمائة وعسكر آخر من الغزاة. وبعث ابن الاحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن

عمه السلطان أحمد ومظاهرتة واجتماعهما على مُلك فاس وعقد بينهما الاتفاق على أن يختص عبد الرحمن بملك سلفه، فتراضيا. وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس وبلغ الخبر إلى الوزير أبى بكر بمكانه من تازا، فانفض معسكره، ورجع إلى فاس، ونزل بكدية العرائس؛ وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون^(١)، فصمد إليه الوزير بعسكره فاقتل مصافه ورجع على عقبه مفلولا وانتهب عسكره ودخل البلدة الجديدة البيضاء وجأجا بالعرب أولاد الحسين فعسكروا بالزيتون ظاهر فاس فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازا بمن كان معه من العرب الأجلاف وشردهم إلى الصحراء وشارف السلطان أبو العباس أحمد بمجموعة من العرب وزنانة وبعثوا إلى ولي دولتهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصره الذى اختطه بملوية فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق فاجتمعوا بوادى النجا وتحالفوا ثم ارتحلوا إلى كدية العرائس فى ذى القعدة من سنة خمس وسبعين وبرز إليهم الوزير بعساكره فانهمزمت جموعه وأحيط به وخلص إلى البلد الجديد بعد غص الريق. واضطرب معسكر السلطان أبى العباس بكدية العرائس ونزل الأمير عبد الرحمن بإزائه وضربوا على البلد الجديد سجاجا بالبناء للحصار وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر فأحكموا الحصار وتحكموا فى ضياع ابن الخطيب بفاس فهدموها وعاثوا فيها. ولما كان فاتح سنة ست وسبعين داخل محمد بن عثمان عمه الوزير أبا بكر فى النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان لكون الحصار قد

(١) كذا فى سائر الأصول ومثله لدى المقرئ فى نفح الطيب ج ٥ ص ١٠٧، ولدى البكرى

فى المغرب: «زرهونة».

اشتد به ويئس وأعجزه المال فأجاب وأشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافى له عن أعمال مراكش بدل سجلماسة ففقدوا له على كره ووطوا على المكر وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان أبي العباس وبايعه واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سابع المحرم وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش واستولى عليها؛ [انتهى].

محنة ابن الخطيب ووفاته:

ثم ذكر ابن خلدون الخبر عن مقتل ابن الخطيب فقال^(١):

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه [فاتح]^(٢) سنة ست وسبعين، استقل بسلطانه، والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه وسليمان بن داود بن أعراب كبير بنى عسكر رديف له وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بويح بطنجة على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه لما نعى إليه عنه أنه كان يغرى السلطان عبد العزيز المريني بملك الأندلس فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقيه أبو بكر بن غازى بساحة البلد الجديد فهزمه السلطان ولازمه بالحصار أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفا على نفسه. فلما استولى السلطان على البلد أقام أياما ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه فقبضوا عليه وأودعوه السجن وطيروا بالخبير إلى السلطان ابن الأحمر وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ٣٤١، ونفع الطيب ج ٥ ص ١١٠.

(٢) التكملة عن نفع الطيب.

بالأندلس، متى أعاد الله إلى ملكه، فلما استقر له سلطانه، أجاز له سليمان سفيراً عن [الوزير]^(١) عمر بن عبد الله، ومقتضياً عهده من السلطان، فصدده ابن الخطيب عن ذلك، [محتجاً]^(١) بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياص الملك من بنى عبد الحق، لأنهم يعسوب زناته، فرجع سلمان، وأثار حقد ذلك لابن الخطيب، ثم جاوز الأندلس لمحل إمارته من جبل الفتح، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات، يشير كل واحد منهما لصاحبه، بما يُحفظه، مما كمن في صدورهما. وحين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب، وهو أبو عبد الله بن زمر، فقدم على السلطان أبي العباس، وأحضر ابن الخطيب بالمشور^(٢) في مجلس الخاصة، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في المحبة، فعظم النكير فيها، فوبخ ونكل، وامتنحن بالعذاب بمشهد ذلك الملاء، ثم نقل إلى محبسه، واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وأفتى بعض الفقهاء فيه، ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بمقتله، فطرقوا السجن ليلاً، ومعهم زعانفة جاءوا في لفيف الخدم، مع سراء السلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنقاً في محبسه، وأخرج شلوه من الغد، فدفن في مقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على حافة قبره طريحاً، وقد جمعت له أعواد، وأضرمت عليه نار، فاحرق شعره، واسود بشره، فأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته. وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سليمان، واعتدوها من هناته، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل

(١) التكملة عن نفح الطيب.

(٢) المشور: القصر لأنه موضع الشورى.

دولته، والله الفعال لما يريد. وكان، عفا الله عنه، أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت، فتجهش هواتفه بالشعر، يبكي نفسه، ومما قال في ذلك:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة كهجر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شמוש سماء العلا غربن فناحت علينا السموت
فكم خذلت ذا الحسام الطبا وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر في خرقة فتى ملئت من كسائه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات ومن ذا الذي لا يفوت
ومن كان يفرح منهم له فقل: يفرح اليوم من لا يموت
انتهى كلام ابن خلدون في ديوان العبر.

ورأيت^(١) تخميساً لبعض بني الصباغ على هذه القطعة، لكنه زاد فيها بعض أبيات على ما ذكره ابن خلدون، وهأنا أثبتته تتيماً للفائدة، وهو:

أيا جاهلاً غره ما يفوت وألهاه حال قليل الثبوت
تأمل لمن بعد أنسٍ يصوت بعدنا وإن جاورتنا البيوت
وجئنا بوعظ ونحن صموت

لقد نلت من دهرنا رفعة تقضت كبرق مضى سرعة

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ١١٢.

فهيّئات ترجوا لها رجعة وأصواتنا سكنت دفعة

كهجر الصلاة تلاه القنوت

بدا لى من العز وجه شباب يؤمل سيبى وبأسى يهاب

فسرعان مزق ذاك الإهاب ومدت وقد أنكرتنا الثياب

علينا نسائجها العنكبوت

فآها لعز تقضى مناما منحنا به الجاه دوما كراما

وكنا نسوس أمورا عظاما وكنا عظاما فصرنا عظاما

وكنا تقوت فها نحن قوت

وكنا لذا الملك حلى الطلا فآها عليه زمانا خلا

نعوض من جدة بالبلى وكنا شמוש سماء العلا

غربن فناحت علينا السُموت

تعودت بالرغم صرف الليالى وحملت نفسى فوق احتمالى

وأيقنت أن سوف يأتى ارتحالى ومن كان منتظرا للزوال

فكيف يؤمل منه الثبوت

هو الموت يا ما له من نبا يجوز الحجاب إلى من أبى

ويألف أخذ سنى الخبا فكم أسلمت ذا الحسام الظبا

وذا البخت كم جدّته البخوت

هو الموت أفصح من عجمةٍ وأيقظ بالوعظ من نوممةٍ
وسلى عن الحزن ذا حرقةٍ فكم سيق للقبر فى خرقةٍ
فتى ملئت من كساه التخوت
تقضى زمانى بعيش خصيب وعندى لذنى انكسار المنيب
وها الموت قد صبت منى نصيبى فقل للعدا ذهب ابن الخطيب
وفات ومن ذا الذى لا يفوت
مضى ابن الخطيب كمن قبله ومن بعده يقتفى سبله
[وهذا الردى ناثر شمله] (١) فمن كان يفرح منهم له
فقل يفرح اليوم من لا يموت
هو الموت عم فما للعدا يسرون بى حين ذقت الردى
ومن فاته اليوم يأتى غداً سَيَبْلَى الجديدُ إذا ما المدى
تتابع آحاده والسبوت
أخى توخ طريق النجاة وقدم لنفسك قبل الممات
وشمر بجرد لما هو آتى ولا تغترر بسراب الحياة
فإنك عما قريب تموت

(١) موضع ما بين الحاصرتين بياض فى سائر الأصول، والتكملة لدى المقرئ فى نفع الطيب

انتهى . وقد تذكرت بقوله :

سيبلى الجديد إذا ما المدا تتابع آحاده والسبوت
قول الآخر :

نطوى سبوتا وآحادا ونشرها ونحن فى الطى بين السبت والأحد
فعد ما شئت من سبت ومن أحدٍ لا بد أن يدخل المطوى فى العدد

شعره:

قال بعض الأعلام : شعر ابن الخطيب ما بعده مطمع لطامع ، ولا معرج
على شاعر بعده الآذان والمسامع ؛ فمن ذلك قوله سامحه الله^(١) :

عسى خطرة بالركب يا حادى العيس على الهضبة الشماء من قصر باديس
لنظفر من ذاك الزلال بعلة وننعم فى تلك الظلال بتعريس
حبست بها ركبى فواقاً وإنّما عقدت على قلبى لها عقد تحيس
لقد رسخت أى الجوا فى جوانحى كما رسخ الإنجيل فى قلب قسيس
بميدان جفنى للسهاد كتيبة تغير على سرح الكرى فى كراديس
وما بى إلا نفحة حاجرية سرت والدجى ما بين وهن وتغليس
ألا نفسٌ ياريح من جانب الحمى تنفس من نار الجوى بعض تنفيس
ويا قلب لا تلق السلاح فربما تعذر فى الدهر أطراد المقاييس
وقد تعبت الأيام بعد عتابها وقد يعقب الله النعيم من البوس

(١) المقرئ: نفح الطيب ج٦ ص ٤٧٦ ، والإحاطة ج٤ ص ٤٨٦ .

ولا تخش^(١) لج الدمع يا خطرة الكرى
تقول سليمي: ما لجسمك شاحباً
وقد كنت تعطو كلما هبت الصبا
ومن رابح الأيام يا بنت عامر
فلا تحسبي والصدق خير سجية
وقفراء أما ركابها فمضلل
سنحنا بها من هضبة لقرارة
إذا ما نهضنا عن مقيل غزالة
أدرنا بها كأساً دهاقاً من السرى
وحانه خمار هداً لقصدها
تطلع ربانيها من جداره
بكرنا وقلنا إذ نزلنا بساحة
أيا عابد الناسوت أنا عصابة
وما قصدنا إلا المقام بحانة
فأنزلنا قوراء في جنباتها
بدرنا بها طين الختام بسجدة
ودار العذارى بالدمام كأنها
إلى الجفن بل قيسى على صرح بلقيس
مقالة تأنيب يشاب بتأنيس
بريان في ماء الشبية مغموس
يجوب الفلا راحت يداه بتفليس
ظهور النوى إلا بطون النواويس^(٢)
ومربعها من آنس غير مأنوس
ضلالا وملنا من كناس إلى خيس
نزلنا فعرسنا بساحة عريس
أملنا بها عند الصباح من الروس
شميم الحميا واصطكاك النواويس
يُهَيِّمُ في جنح الظلام بتقدیس
عن الصافنات الجرد والضمير العيس
أتينا لتثليث بلى ولتسديس
وكم ألبس الحق المبين بتلبیس
محاريب شتى الاختلاف النواميس
أردنا بها تجديد حسرة إبليس
قطاً تتهادى في رياش الطواويس

(١) في المطبوع: «ولا تخشى» وهو غير صحيح عروضياً والبيت من الطويل.

(٢) في سائر الأصول: «النوانيس» ولعل الصواب ما أثبتناه. والنوانيس: القبور.

وصارفنا فيها نضار بمثله
وقمنا نشاوى عندما متع الضحى
فقال: لبئس المسلمون ضيوفنا
وهل فى بنى مثواك إلا مبرز
إذا هز عسال اليراعة فاتكاً
يقلب تحت النقع مقلة ضاحك
سبينا عقار الروم فى عقر خاننا
لئن أنكرت شكلى ففضلى واضح
رسبت بأقصى الغرب ذخر مضنة
وأغربت سوسى بالعذيب وبارق
ومن ذلك قوله رحمه الله فى الميلاد النبوى على صاحبه الصلاة والسلام
يمدح مخدومه أبا عبد الله المخلوع^(١):

ما على القلب بعدكم من جناح
وعلى الشوق أن يشب إذا هـ
جيرة الحى والحديث شجون
أترون السلو خامر قلبى
ولو انى أعطى اقتراحى على الأيام
أن يرى طائراً بغير جناح
ب بأنفاسكم نسيم الصباح
والليالى تلين بعد الجماح
بعدكم؟ لا، وفالق الإصباح
ما كان بعدكم باقتراحى

(١) المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٥٠٩.

ضايقتنى فيكم صروف الليالى واستدارت على دور الوشاح
وسقتنى كأس الفراق دهاقاً فى اغتباق مواصل واصطباح
واستباحث من جدتى وفتائى حرماً لم أحله بالمستباح
ومنها:

يا ترى والنفوس أسرى أمانى مالها من وثاقها سراح
هل يباح الورود بعد ذياذ أو يباح اللقاء بعد انتزاح
وإذا أعوذ الجسوم التلاقى ناب عنه تعارف الأرواح
وهى طويلة، ولم يحضرنى منها فى هذا التاريخ سوى ما كتبت.

قلت: وأظن أن الفقيه الكاتب أبا زكريا يحيى بن خلدون كاتب الإنشاء
بتلمسان المحروسة أيام السلطان أبى حمو موسى بن يوسف الزيانى رحمه الله
نسج على منوال هذه القصيدة فى قصيدته بديعة له، ورفعها إلى السلطان أبى
حمو فى مولد سنة ثمان وسبعين وسبع مئة. وهذا ابن خلدون أخو ولى
الدين صاحب التاريخ المشهور، ونص القصيدة^(١):

ما على الصَّبِّ فى الهوى من جناح أن يرى حلف عبرة وافتضاح
وإذا ما المحب عيلَ اصطبّارا كيف يصغى إلى نصيحة لاحى
يا رعى الله بالمحبص ربعا آذنت عهده النوى بانتزاح
كم أدركنا كأس الهوى فيه مزجا ربَّ جدٍ من الجوى فى المزاح
هل إلى رسمه المحيل سبيل يا حُداة المطى تلك الطلاح

(١) القصيدة بطولها لدى المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٥١٠.

نسأل الدار بالخليط ونسقى
 أى شجو عاينت بعد نواها
 أهل ودى إن رابكم برح وجدوى
 فاسألوا البرق عن خفوق فؤادى
 يا أهيل الحمى نداء مشوق
 طالما استعذب المدامع وردًا
 عادته بالطلول للشوق عيد
 من لقلب من الجوى فى ضرام
 ولصب يهيجه الذكر شوقًا
 وليال قضيت للهو فيها
 راكبا فى الهوى ذلول تصاب
 ونجوم المنى تنير إلى أن
 أى مَسْرَى حمدت لم أخلُ منه
 واخسارى يوم القيامة إن لم
 لم اقدم وسيلةً فيه إلا
 سيد العامين دنيا وأخرى
 سيد الكون من سماء وأرض
 زهرة الغيب مظهر الوحي معنى الد

ذلك الربيع بالدموع السفاح
 من أسى لازم وصبر مزاح
 من صبا بارح وبرق ليح
 والصبأ عن سقام جسمى المتاح
 ما له عن هوى الدمى من براح
 فى هواكم عن كل عذب قراح
 من حمام بدوحهن صداح
 ولجفن من البكا فى جراح
 فهو سكرًا يرتاح من غير راح
 وطرا والشباب ضافى الجناح
 ساحبًا فى الغرام ذيل مراح
 روع الشيب سربها بالصباح
 بسوى حسرةٍ وطول افتضاح
 يغفر الله زلتى واجتراحى
 حب خير الورى الشفيح الماحى
 أشرف الخلق فى العلا والسماح
 سره بين غاية وافتتاح
 نور كنه المشكاة والمصباح

آية المكرمات قطب المعالى
 أول الأنبياء تخصيص زلفى
 صفوة الخلق أرفع الرسل قدرًا
 من لميلاده بمكة ضاءت
 وخبثت نار فارس وتداغت
 من رقى فى السماء سبعًا طباقًا
 ودنا منه قاب قوسين قريبًا
 من هدى الخلق بين حمر وسود
 من يجير غدا يوم يجزى
 من إلى حوضه وظل لواه
 أحمد المجتبى حبيبًا وإنى
 فى أناجيله المسيح تلاه
 ولكم حجة وبرهان صدق
 إن فى النجم والنبات لآيا
 معجزات فتن المدارك وصفًا
 يا رواة القريض والشعر عجزًا
 إنما حسبنا الصلاة عليه
 يا الهى بحق أحمد عفواً

مصطفى الله من قريش البطاح
 آخر المرسلين بعث نجاح
 وسراج الهدى وشمس الفلاح
 من قرى قيصر جميع الضواحي
 من مشيد الإيوان كل النواحي
 ورأى آى ربه فى اتضاح
 ظافراً فى العلى بكل اقتراح
 وجلا ليل غيهم بالصباح
 كل عاص وطائع باجتراح
 يلجأ الناس بين ظام وضاحى
 فوق عز الحبيب مرمى طماح
 باسمه والكليم فى الألواح
 فى سماع أتى بها والتماح
 بهرت والجماد والأرواح
 وحساباً كالزهر أو كالصباح
 ما عسى تدركون بالأمداح
 وهى للفوز آية استفتاح
 عن ذنوب جنيتهن قباح

وأدم دولة الخليفة موسى
مفخر الملك مستقر المزايا
ناصر الحق خاذل الجور عدلاً
يتلقى الندى بوجهه حَيِّ
وله المكرمات إرثاً وكسباً
من عُلاً باذخٍ وفخرٍ صميم
وأحاديث في المعالي حسانٍ
عاقده صفقة العلا كل حين
للندى والهوى يروح ويغدو
ملك تشرق الأسيرة منه
وإذا ما علا بعالي العوالي
لبس الدهر منه حلة حسن
وعلا عاتق الخلافة منه
ورث الملك شامخاً عن سراةٍ
من بنى القاسم الذي تحلوا
فرعوا هضبة الخلافة مجداً
نشروا راية المفاخر حمداً
يا إماماً بذلك الملك جلالاً
ذى المعالي المبينة الأوضح
مظهر اللطف ذو التقى والصلاح
ملجأ الخائفين بحر السماح
ويلقى العدا ببأس صفاح
حاز حمداً بها معنى القдах
وكمال بحثٍ ومجدٍ صراح
رويت عنه فى العلى الصراح
فائز فيه سعيه بالرباح
أى مغدى إلى العلا ومراح
فى سماء السرير نور صباح
صهوة الجُرد فهو ليث الكفاح
وثنى للسرور عطف مراح
طراز فخر سبى النهى بالتماح
شيدوا ركنه بأيدي الصفاح
بالمعالي واستأثروا بالفلاح
رفعوا سقفه على الأرماح
خافق النور بالربا والبطاح
وجمالاً فديت بالأرواح

أنت شمس الكمال دمت عليًا في اغتباق من المنى واصطبّاح
وبنوك الأعلون أنجم سعدٍ زاهرات بنورك الوضّاح
وأبو تاشفين بدر منير زانه الله بالخلال الصّباح
أكمل العالمين خلقًا وخلقًا أشرف الناس في الندى والكفاح
وبكم زينت سماء المعالي واهتدى الناس في الدجى والصباح
قلت: قوله:

أكمل العاممين خلقًا وخلقًا أشرف الناس في الندى والكفاح
لا يخلو من قلة تحفظ، ومثل هذا في الحقيقة إنما يطلق على رسول
الله، وإن كان المتكلم أراد أهل عصره.

وكان السلطان أبو حمو^(١) موسى بن يوسف الممدوح في هذه القصيدة
يحتفل لليلة مولد رسول الله ﷺ غاية الاحتفال، كما كان ملوك المغرب
والأندلس في ذلك العصر وما قبله يعتنون بذلك، ولا يقع منهم فيه إغفال؛
وقد تقدم أنّ العزفيّ صاحب سبّته هو الذي سن ذلك في بلاد المغرب، وأتى
بزلفى تُدنيه إلى الله وتقرب؛ واقتفى الناس سننه، وتقلدوا مننه؛ تعظيمًا
للجناب الذي وجب له السمو والعلو، على أنّ بعضهم قد خرج في ذلك إلى
حدّ الإسراف والغلو؛ وكل يعمل على شاكلته.

ومن جملة احتفال السلطان أبي حمو المذكور^(٢) ما قاله صاحب راح
الأرواح: «إنّه كان يقيم ليلة الميلاد النبوى، على صاحبه الصلاة والسلام،
بمشورة من تلمسان المحروسة، مدعاةً حفيلة، يحشر فيها الناس خاصة

(١) انظر في ذلك: المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٥١٣.

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٥١٣.

وعامة، فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابى مبثوثة؛ وبسط موشاة، ووسائد بالذهب مغشاة؛ وشمع كالأسطوانات، وموائد كالهالات؛ ومباخر صفر منصوبة كالقباب، يخالها المبصر من تبر [مذاب]^(١)؛ ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة، كأنها أزهار الربيع المنمنمة؛ تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر، ويخالط حسن رياها الأرواح ويخامر؛ رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال، وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال؛ ويعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومكفرات ترغب فى الإقلاع عن الآثام؛ يخرجون فيها من فن إلى فن، ومن إلى فن، ومن أسلوب إلى أسلوب؛ ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب؛ وبالقرب من السلطان، رضوان الله عليه، خزنة [المنجانة وقد زخرت كأنها حلة يمانية لها أبواب مرتجة على عدد ساعات]^(٢) الليل الزمانية؛ فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها، وفتح عند ذلك باب من أبوابها؛ وبرزت منه جارية صورت فى أحسن صورة، فى يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة؛ فتضعها بين يدى السلطان بلطافة، ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة؛ هكذا حالهم الى انبلاج عمود الصباح، ونداء المنادى حى على الفلاح.

انتهى كلام صاحب راح الأرواح.

وقال^(٣) فى نظم الدرر والعقيان فى هذا المعنى ما نصه^(٤):

(١) ما بين الحاصرتين تكملة عن نفح الطيب.

(٢) ما بين الحاصرتين تكملة عن نفح الطيب.

(٣) أى التنسى المذكور صاحب راح الأرواح.

(٤) انظر فى ذلك: المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٥١٤.

«وكان يعنى السلطان أبا حمو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى ﷺ، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم، يقيم مدعاة، يحشر لها الأشراف والسوقة، فما شئت من غمارق مصفوفة، وزرابى مبثوثة، وشمع كالأسطوانات، وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون، وبأيديهم مباخر ومرشات، ينال كل منهم بحظه، وخزانة المنجانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة، بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويختله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الأيكة صعدا، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الله الزمانية، يصاقب طرفيها بابان كبيران وفوق جميعها دوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره من الفلك، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج، فينقص من البابين الكبيرين عقaban بفى كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها إلى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخزانة فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبواه فهنا يفتح باب الساعة الذهبية وتبرز منه جارية محترمة كأظرف ما أنت راء، يمينها إضبارة فيها اسم ساعتها منظومة ويسراها موضوعة على فيها، كالمبايعة بالخلافة، والمسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد ﷺ ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دورا والرياض نورا؛ قد اشتملت من أنواع محاسن الطعام على ألوان تشتهيها الأنفس وتستحسنها الأعين، وتلد بسماعها الأذن، ويشره مبصرها للقرب منها والتناول وإن كان ليس بغرثان؛ والسلطان لم يفاق مجلسه الذى ابتدأ جلوسه فيه وكل ذلك برأى منه ومسمع حتى يصلى هنالك صلاة الصبح.

على هذا الأسلوب تمضى ليلة مولد المصطفى ﷺ فى جميع أيام دولته
أعلى الله مقامه فى عليين وشكر له فى ذلك صنعه الجميل آمين .

وما من ليلة مولد مرت فى أيامه إلا ونظم فيها [قصيدا]^(١) فى مدح
المصطفى ﷺ أول ما يبتدئ المسمع فى ذلك المحفل العظيم بإنشاده، ثم يتلوه
إنشاد من رفع إلى مقامه العلى فى تلك الليلة نظما .

انتهى كلام صاحب نظم الدرر والعقيان، وهو أتم مساقا من كلامه فى
راح الأرواح .

أقول: ولا بد أن نذكر جملة من الطع التى أنشأها الكاتب أبو زكريا
يحيى بن خلدون كاتب السلطان أبو حمو المذكور على لسان جارية المنجانة
مخاطبة بما مر من الليل وكانت تأتى بها فى يدها اليمنى كما ذكرناه فمن ذلك
قوله رحمه الله فى مضى ساعتين من الليل^(٢):

أخليفة الرحمن والملك الذى	تغنو لعز علاه أملاك البشر
الله مجلسك الذى يحكى علا	بك مالكى أفق السماء لمن نظر
أو ما ترى فيه النجوم زواهرا	وجه الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت	تشنى عليك ثنا الرياض على المطر
لازال هذا الملك منصورا بكم	وبلغت مما ترتجى أسنى الوطر

وقوله رحمه الله فى انقضاء ثلاثة ساعات من الليل^(٣):

(١) التكملة عن نفح الطيب .

(٢) أورده المقرئ فى نفح الطيب ج ٦ ص ٥١٥ .

(٣) نفح الطيب ج ٦ ص ٥١٦ .

أمولاي يا بن الملوك الألى لهم فى المعالى سنى الرتب
تولت ثلاث من الليل أب قت لك الفخر فى عجمها والعرب
قدم حجة الله فى أرضه تنال الذى شئته من أرب
وقوله رحمه الله فى مضى ست ساعات :

يا ماجد وهو فرد تخاله فى عساكر
ست من الليل ولت ما إن لها من نظائر
دامت ليالىك حتى إلى المعاد نواضر
وقوله رحمه الله فى مضى ثمان ساعات :

يا أكرم الخلق ذاتا وأشرف الناس أسره
مرت ثمان وأبقت فى القلب منى حسره
فيهن كان شبابى أخا نعيم ونضره
ولى بها الدهر عنى ترى لها بعد كره
فالله يبقيك مولى يطيل فى السعد عمره
وقوله رحمه الله فى مضى عشر ساعات^(١) :

يا مالك الخير والخيلى التى حكمت له بعز على الأيام مقتبل
هذا الصباح وقد لاحت بشائره والليل ودعنا توديع مرثل
لله عشر من الساعات باهرة مضين لا عن قلى منا ولا ملل
كذا تمر ليالى العمر راحلة عنا ونحن مع الآمال فى شغل

(١) الأقوال الثلاثة فى نفح الطيب ج ٦ ص ٥١٦ .

نُـمـسـى ونـصـبـح فـى لـهـو نـسـر بـه جـهـلـا وذلـك يـدـنـيـنا مـن الأـجـل
والعـمـر يـمـضـى و لا نـدـرى فـوا أـسـفا عـلـيـه إذ مـر فـى الآثـام والزـلـل
يا لـيـت شـعـرى غـدا كـيـف الـخـلاص بـه و لم نـقـدم لـه شـيـئا مـن العـمـل
يا رب عـفـوك عـما قـد جـنـت يـدى فـلـيـس لى بـجـزاء الذـنـب مـن قـبـل
يا رب و انـصـر أـمـير المـسـلـمـيـن أبا حـمـو الرـضـا وأـنـلـه غـايـة الأـمـل
وأبـق فـى العـز والـتـمـكـيـن مـدـتـه وأـعـلـى دـولـتـه الغـرّاء عـلـى الدـول
ومـن المـوشـحـات الـتى خـوطـب بـها السـلـطـان أـبـو حـمـو رـحـمـه اللـه فـى مـولـد
سـنة سـبـع و سـتـيـن و سـبـع مـئـة، قـول طـيـيـب دـولـتـه أـبـى عـبـد اللـه مـحـمـد بـن أـبـى
جـمـعـة الشـهـيـر بـالتـلـالـسـى^(١) رـحـمـه اللـه تـعـالـى:

لى مـدـمـع هـتـان يـنـهـل مـثـل الدـر
قـد صـيـر الأـجـفـان ما إـن لـها مـن أـثر
حـق لـه يـجـرى دـما عـلى طـول الدـوام
مـذ جـد فـى السـيـر نـاس إـلى خـيـر الأـنام
وعـاقـنـى و زـرى يا صـاح عـن ذـلك المـقـام
وسـارت الأـظـعـان يـحـدى بـها فـى السـحـر
فـاسـتـبـشـر الرـكـبـان بـقـرب نـيـل الوـطـر
يا سـمـعـدـه مـن زار قـبـر النـبى المـصـطـفـى
مـحـمـد المـخـتـار قـطـب المـعـالـى والـوفـا

(١) فى سائر الأصول: «التلاليسى» والمثبت رواية المقرئ فى نفح الطيب ج ٧ ص ١٢٩.

الخلق طرا وكفى	فى مدحه قد حار
وشرحه والسير	فى محكم القرآن
على جميع البشر	فضله الرحمن
بالله إن جئت البقيع	يا حادى الركب
بلغ إلى الهادى الشفيع	تحية الصب
عن ذلك المغنى الرفيع	غربت بالمغرب
ينهضنى للسفر	وليس لى إمكان
الملك المظفر	إلا من السلطان
إلى المعالى كل حين	من لم يزل يسمو
المولى أمير المسلمين	ذاك أبو حمو
نلنا بها دنيا ودين	طاعته غنم
من عدله المشتهر	أظهر فى البلدان
للبدو ثم الحضر	وعم بالإحسان
تكل عنه الألسنة	قابله إسعاد
به غدت فى سلطنه	قبيل عبد الواد
يا ليتها ألف سنة	أيامه أعياد
بالمشرفى الذكر	ملك بنى زيان
ليس له من خبر	أحياء إذا قد كان

تاهت تلمسان بملكه على البلاد
صار لها شان وسعدها حلف ازدياد
قد ضل إنسان قال بها يشكو السهاد
ليل الهوى يقظان والحب ترب السهر
والصبر لى خوان والنوم من عيني برى

وكان هذا السلطان أبو حمو رحمه الله يقرض الشعر، ويحب أهله، وله رحمه الله تأليف حسن فى السياسة لخص فيه سلوان المطاع لابن ظفر وزاد عليه فوائد وأورد فيه جملة من نظمه وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بنى مرين وغيرهم وصنفه برسم ولى عهده أبى تاشفين وسماه «نظم السلوك فى سياسة الملوك».

وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب المذكور آنفا كثيرا ما يوجه إليه بالأمداح ومن أحسن ما وجه له قصيدة سينية فائقة وذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه فجعلها مقدمة بين يدى نجواه لتمهد له مثواه وتحصل له المستقر إذا ألبأه إلى الأمر إلى المفر فلم تساعده الأيام كما هو شأنها فى أكثر الأعلام وهى هذه^(١):

أطلعن فى سدف الفروع شموستها ضحك الظلام لها وكان عبوسا
وعطف قضبا للقدود نواعما بوئن أدواح النعيم غروسا
وعدلن عن جهر السلام مخافة الـ واشى فجئن بلفظه مهموسا
وسفرن من دهش الوداع وقومـ هـن إلى الترحل قد أناخوا العيسا

(١) المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ١٩٥.

وخلصن من خلل الحجال إشارة
 لم أنسها من وحشة والحي قد
 لا الملتقى من بعدها كذب ولا
 فوقفت وقفه هائم برحاؤه
 ودعوت عيني عاتبا وعيونها
 نافست يا عيني در دموعهم
 ما للحمى بعد الأجرة موحشا
 ولسر به حول الخميطة نافرا
 ولظله المورد غمر قلبه
 حيته فأجابني رجع الصدى
 ما إن يزيد على الإعادة صوته
 نضب المعين وقلص الظل الذي
 نتواعد الرجعى ونغتنم اللقا
 فإذا سألت فلا تسأل مخبرا
 عهدى به والدهر يتحف بالمنى
 والعيش غض الريع والدنيا قد اج
 أترى يعيد الدهر عهدا للصبا
 فترك كل حجالها مخلوسا
 زجر الحمول وآثر التغلisa
 عوج الركاب تسأم التخيسا^(١)
 وقفت عليه وحبست تحبisa
 بعصا النوى قد بجست تبجisa
 فعرضت درا للدموع نفيسا
 ولكم تراءى أهلا مأنوسا
 عمن يحس به وكان أنيسا
 لا يقتضى وردا ولا تعريسا
 لا فرق بينهما إذا ما قيسا
 حرفا فيشفى بالمزيد نيسا
 ظلنا وقوفا عنده وجلوسا
 وندير من شكوى الغرام كئوسا
 وإذا سمعت فلا تحس حبisa
 وقد اقتضت نعماء أن لا بوسا
 تليت بمغناه على عروسا
 درست مغانى الأئس فيه دروسا

(١) التخيس: أن تذلل الدابة وتراض بالركوب.

[أوطان أوطار تعوض أفاقها
 هيهات لا غنى لعل ولا عسى
 والدهر فى دست القضاء مدرس
 تفتن فى جمل الورى أبحاثه
 وسجية الإنسان ليس بناصل
 يغتر مهما ساعدت آماله
 فلو أن نفسا مكنت من رشدنا
 لم تستفز رسوخها النعمى ولا
 قل للزمان إليك عن متذمم
 فإذا استحر جلاده فأنا الذى اسـ
 وإذا طغا فرعونه فأنا الذى
 أنا ذا أبو مثواه من يحمى الحمى
 بحمى أبى حمو حططت ركابى
 أسد الهيجاء إذا خطا قدما سطا
 بدر الهدى يأبى الظلال ضياؤه
 جبل الوقار رسا وأشرف واعتلى
 من رونق البشر البهى عبوسا^(١)
 فى مثلها إلا لآية عيسى
 فإذا قضى يستأنف التدريس
 لا سيما فى باب نعم وبيسا
 من صبغها حتى يرى مرموسا
 فإذا عرا الخطب كان يئوسا
 يوما وقدسها الهدى تقديسا
 هلعت إذا كشرت إليها البوسا
 بضمار عز لم يكن ليخيسا^(٢)
 تغشيت من سرد اليقين لبوسا
 من ضره أذاه عذت بموسى
 ليثا ويعلم بالزئير الخيسا
 لما اختبرت الليث والعريسا
 فيخلف الأسد الهزبر فريسا
 أبدا فيجلو الظلمة الحنديسا
 وسما فطأ الجبال رءوسا

(١) ما بين الحاصرتين عن نفح الطيب ج ٦ ص ١٩٦ .

(٢) خاس: خفر العهد .

غيث النوال إذا الغمام حلوبة
 تلقاه يوم الأئس روضا ناعما
 كم غمرة جلى وكم خطب كفى
 كم حكمة أبدى وكم قصد هدى
 أعلى بنى زيان والفد الذى
 جمع الندى والباس والشيم العلا
 والحلم ليس يباين الخلق الرضا
 والسعد يغنى حكمه عن نصبة
 كم راض صعبا لا يراض معاصيا
 بلغ التى لا فوقها متمهلا
 يا خير من خفقت على سحابة
 وأجل من حملته صهوة سابح
 قسما بمن رفع السماء بغير ما
 ودحا البسيطة فوق لج مزبد
 حتى يهيب بأهله الوعد الذى
 ما أنت إلا ذخرك دهرى فى الصر
 لو ساومتها الأرض فيك بما حوت
 حلف البرور بها ألية صادق
 مَثَلْتُ بِأَيْدَى الْحَالِبِينَ بِسُوسَا
 وتراه بأسا فى الهيجاء بئيسا
 إن أوطأ الجرد العتاق وطيسا
 للسالكين أبان منه دريسا
 لبس الكمال فزين الملبوسا
 والسودد المتواتر القدموسا
 والعم ليس يعارض الناموسا
 تستخير التربيع والتسديسا
 كم خاض حربا لا يخاض ضروسا
 وعلا السها واستسفل البرجيسا
 للنصر تمطر أجش بجيسا
 إن كر ضعضع كره الكرديسا
 عمد ورفع فوقها إدريسا
 ما إن يزال على القرار حبيسا
 حشر الرئيس إليه والمرءوسا
 ون الحريز ممتعا محروسا
 لراك مستاما باب الرجل مبخوسا
 ويمين من عقد اليمين غموسا

من قاس ذاتك بالذوات فإنه
 لا تستوى الأعيان فضل مزية
 لعناية التخصيص سر غامض
 من أنكر الفضل الذى أوتيته
 من دان بالإخلاص فيك فعقده
 والمتمى العلوى عيصك لم تكن
 بيت البتول ومنتمى الشرف الذى
 أما سياستك التى أحكمتها
 فلو أن كسرى الفرس أبصر بعضها
 لو سار عدلك فى السنين لما اشتكت
 ولو الجوارى الخنس انتسبت إلى
 قدت الصعاب فكل صعب سامح
 تلقى الليوث وللقتام غمامة
 وكأنها تحت الدروع أراقم
 ما لابن مامة فى القديم وحاتم
 من جاء منهم مثل جودك كلما
 أنت الذى أفتك السفين وأهله

جهل الوزان وأخطأ التقيسا
 وطبيعة فطر الإله وسوسا
 من قبل ذرة الخلق خص نفوسا
 جحد العيان وأنكر المحسوسا
 لا يقبل التمويه والتلبيسا
 لترى دخيلا فى بنيه ديسا
 تحمى الملائك دوحه المغروسا
 فرميت بالتقصير أسطاليسا
 ما كان يطمع أن يعد سئوسا^(١)
 بخسا ولم يك بعضهن كبيسا
 أقوام عزك ما خنسن خنوسا
 لك بالقياد وكان قبل شموسا
 قدح الصفيح وميضها المقبوسا
 ينظرن من خلل المغافر شوسا
 ضرب الزمان بجودهم ناقوسا
 حسبوا المكارم كسوة أو كيسا
 إذ أوسعت سبل الخلاص طموسا

(١) يعد سئوسا، أى ذا سياسة.

أنت الذى أمددت ثغر الله بالصـدقات تبلس كرة إبليسا
وأعنت أندلس بكل سبيكة موسومة لا تعرف التدليسا
وشحته بالبر فى سبل الرضا والبر قارب قاعها القاموسا
إن لم تجر بها الخميس فطالما جهزت فيها النوال خميسا
وملأت أيديهم وقد كادت على حكم القضاء تشابه التفليسا
صدقت لآمال صنعة جابر وكفيتها التشميع والتشميسا
والحل والتقطير والتصعيد والتـ خمير والتصويل والتكليس^(١)
فسبكت من آمالها مالا ومن أوراقها ورقا وكن طروسا
بهتوا فلما استخبروا لم ينكروا وزنا ولا لونا ولا ملموسا
تدبير من قلب السطور سبائكا منها ومن طبع الحروف فلوسا
ونحوت نحو الفضل تعضد منه بالـمـسـمـوع ما ألفت منه مقيسا
وجبرت بعد الكسر قومك جاهدا تغنى العديم وتطلق المحبوسا
ونشرت راية عزهم من بعدما دال الزمان فسامها تنكيسا
أحكمت حيلة برئهم بلطافة قد أعجزت فى الطب جالينوسا
وفللت من حدّ الزمان وإنه أوحى وأمضى من غرار الموسى
وشحذت حدا كان قبل مثلما ونعشت جدًّا كان قبل تعيسا

(١) الحل: التحليل الكيميائي؛ والتقطير والتصعيد متشابهان. والتصويل: جعل الرواسب طافية وهو تال للتكليس.

لم ترج إلا الله جل جلاله
قدمت صباحا فاستضأت بنوره
ما أنت إلا فالح متيقن
ومتاجر جعل الأريكة صهوة
ما إن تباع أو تشارى واثقا
والعزم يفترع النجوم بناؤه
ومقام صبرك واتكالك مذكر
ومن ارتضاه الله وفق سعيه
ما ازددت بالتحميص إلا جدة
ولطالما طرق الخسوف أهله
ثم انجلت نسماؤها عن مشرق
خذها إليك على النوى سينية
إن طوولت بالدر من حول الطلى
لولاك ما أصغت لخطبة خاطب
قصدت سليمان الزمان وقاربت
لى فيك ود لم أكن من بعدما
كم لى بصحة عقده من شاهد
يقفو الشهادة باليمين وإنه

يقال شدة تكفى وجرح يوسى
ووجدت عند الشدة التنفيسا
بالنجاح تعمر ممرعا وييسا
عريضة والمتكا القربوسا
بالربح إلا المالك القدوسا
مهما أقام على التقى تأسيسا
بحديث الشبلى أو طاوسا
فرأى العظيم من الحظوظ خسيسا
ونضوت من خلع الزمان لبيسا
ولطالما اعترض الكسوف شموسا
للسعد ليس بحاذر تعنيسا
ترضى الطباق وتشكر التجنيسا
يوما تشكت حظها الموكوسا
ولعنست فى بيتها تعنيسا
فى الخطو تحسب نفسها بلقيسا
أعطيت صفقة عهده لأخيسا
لا يحذر التجريح والتدليسا
لمؤمن من أن يعد فسيسا^(١)

(١) الفيس: الضعيف.

لا يستقر قرار أفكارى إلى أن أستقر لدى علاك جليسا
وأرى تجاهلك مستقيم السير للـقصد الذى أعملته معكوسا
هى دين أيامى فان سمحت به لم يبق من شىء عليه يوسى
لا زال صنع الله مـجنوبا إلى مثواك يهدى البشر والتأنيسا
متتابع كتتابع الأيام لا يذر التعاقب جمعة وخميسا
فلو أنصفتك إيالة الملك التى رُضت الزمان وكان شريسا
قرنت بذكرك والدعاء لك الذى تختاره التسبيح والتقديسا
القلب أنت لها رئيس حياتها لم تعتبر مهما صلحت رئيسا
قال الحافظ أبو عبد الله التنسى، رحمه الله ورضى عنه: هذا ابن
الخطيب فى هذه السينة حذو أبى تمام فى قصيدته التى أولها^(١):

أقشيب ربعهم أراك دريسا تقرأ ضيوفك لوعة ورسيسا
واختلس كثيرا من ألفاظها ومعانيها. انتهى.

ووصل ابن الخطيب هذه السينة بنثر بارع يخاطب به السلطان أبا حمو
المذكور، ونصه^(٢):

«هذه القصيدة أبقي الله أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل
المجموع والثناء المسموع والملك المنصور الجموع نفثه من باح بسر هواه ولبى
دعوة الشوق العابث بلبه وقد ظفر بمن يهدى خبر جواه إلى محل هواه

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٠١.

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٠١.

ويختلس بعثت حيته إلى مشير أريحيته وهى بالنسبة إلى ما يعتقد من ذلك الكمال الشاذ عن الآمال عنوان من كتاب وذواق من أوقار ذات أقتاب وإلا فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه أو يكافئ إحسانها إحسانه أو يستقل بوصفها يراعه أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه ولا مكابرة بعد الاعتراف والبحر لا ينفذ بالاغتراف لا سيما وذاتكم اليوم والله يبقئها ومن المكارة يبقئها وفى معارج القرب من حضرة القدس يرقئها ياقوته اختارها واعتبرها ثم بلاها بالتحميص فى سبيل التخصيص واختبارها وسبيكة خلصها وسجرها، فخلصها بسجره من الشوب، وأبرزها من لُباب الذَّوْب^(١)؛ وقصرت عن هذا الأثمان، وسر بصدق دعواه البهرمان؛ ليفاضل بين الجهام والصيب، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...﴾ [الأنفال] فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدة وعرفكم بنفسه فى حال الشدة ثم فسح لكم بعد ذلك فى المدة لتعرفوه إذا دال الرُّخاء وهبت بعد تلك الزعازع الريح الرُّخاء وملاكم من التجارب وأوردكم من الطافه أعذب المشارب ونقلكم بين الزمان وإحلائه ولم يسلبكم إلا حقيرا عند أوليائه وأعادكم المعاد المطهر، وألبسكم من أثواب اختصاصه العلم المشهر فأنتم اليوم بعينه العناية بالإفصاح والكناية وقد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجنانية فإن كان الملك اليوم علما يدرس وقوانين فى قوة الحفظ تغرس وبضاعة برصد التجارب تحرس فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة وأصمعى شعوبه المنسوبة إلى ما حزتم من أشتات الكمال المربية على الآمال فالبيت علوى المنتسب والملك بين المورث والمكتسب والوجود يعترف به الوجود والدين يشهد به الركوع والسجود، والبأس تعرفه التهائم والنجود، والخلق يحسده الروض المجود، والشعر يغترف من عذب نير، ويصدق من قال بدى بأمير وختم بأمير وإن مملوكم حوم من بابكم على العذب البرود، فعاقه

(١) فى سائر الأصول: «وسبيكة خلصها وشحرها فخلصتها الشحيرة من الشوب وأبرزتها

من... إلخ» والعبارة قلقة، والمثبت رواية نفح الطيب ج ٦ ص ٢٠٢ وهو أولى.

الدهر عن الورد، واستقبل افقه ليحقق الرصد، ولكنه أخطأ القصد، ومن أخطأ الغرض أعاد، ورجا من الزمان الإسعاد، فربما خبي نصيب، أو كان مع الخواطي سهم مصيب، وكان يؤمل صحبة ركّاب الحجاز، فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز، وقطعت القواطع التي لم ينلها الحساب، ومنعت الموانع التي خلص منها إلى الفتنة الانتساب ومن طلب الأيام أن تجرى على اقتراحه، وجب العمل على اطراحه، فإنما هي البحر الزاخر، الذي لا يدرك منه الآخر، والرياح متغايرة والسفينة الحائرة، فتارة يتعذر من المرسى الصرف، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتد الطرف، هذا إن سالمها عطبها، وأعفى من الوقود حطبها. ولقد علم الله جل جلاله أن لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمام المطلوب، ممن يجبر كسر القلوب، فإنه مما انعقد على كماله الإجماع، وصح في عوالي معاليه السماع، وارتفعت في وجود مثاله الأطماع أخلاقا هذبها الكرم الوضاح، وسجية كلف بها الكمال الفضاح، وحرصا على الذكر الجميل، وما يتنافس فيه إلا من سمت هممه، وكرمت ذمه، وألفت الخلد رمه، إذ الوجود سراب، وما فوق التراب تراب، ولا يبقى إلا عمل راق، أو ذكر بالجميل يسطر في أوراق، حسبما قلت من قصيدة كتبها على ظهر [مكتوب]^(١) موضوع أشار به من كانت له طاعة فوفت بمقترحه استطاعة:

يمضى الزمان فكل فانٍ ذاهب	إلا جميل الذكر فهو الباقي ^(٢)
لم يبق من إيوان كسرى بعد ذا	ك الحفل إلا الذكر في الأوراق
هل كان للسفاح والمنصور والـ	مهدي من ذكر على الإطلاق
أو للرشيد وللأمين وصنوه	لولاه شبة يراعاة الوراق

(١) ما بين الحاصرتين تكملة عن نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٠٣.

رجع التراب إلى التراب بما اقتضت فى كل خلق حكمة الخلاق
إلا الثناء الخالد العطر الشذا يهدى حديث مكارم الأخلاق
والرغبة من مقامكم الرفيع الجنب، أن يمكنها من حسن المثاب؛
فتحظى بحلول ساحتها، ثم بلثم راحتها، ثم بالإصغاء، ولا مزيد للابتغاء،
إلى أن ترتفع الوساطة، وتغنى عن التركيب البساطة، وينسى الأثر بالعين،
ويحسن الدهر قضاء الدين، ونسأل الذى أغرى بها القريحة، ولم يجعل
الباعث إلا المحبة الصريحة، أن يبقى تلك المثابة زينا للزمان، وذخرا مكنوفا
باليمين، والأمان مظللا برحمة الرحمن بفضله وكرمه». انتهى.

ومن مقطوعاته، أى ابن الخطيب، البديعة فى مخاطبة هذا السلطان أبى
حمو صاحب تلمسان، قوله يشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس^(١):

لقد زار الجزيرة منك بحر يمد فليس تعرف منه جزرا
أعدت لها بعهدك عهد موسى سميك فهى تتلو منه ذكرا
أقمت جدارها وأفدت كترا ولو شئت اتخذت عليه أجرا
وقوله^(٢):

وقالوا الجزيرة قد صوحت فقلت غمام الندى تنتظر
إذا وكفت كف موسى بها غمام يعود الجنب الخضر
ومخاطبات الوزير ابن الخطيب للسلطان أبى حمو كثيرة جدا، ولنقتصر
منها على ما ذكرناه.

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٥٠٧.

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٥٠٨.

ومن نظم ابن الخطيب رحمه الله^(١):

يا إمام الهدى وأى إمام أوضح الحق بعد إخفاء رسمه
أنت عبد الحليم حلمك نرجو فالمسمى له نصيب من اسمه
وله يخاطب عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحياني أبا مالك ابن
سلطان إفريقية مودعا^(٢):

أبا مالك أنت نجل الملوك غيوث الندى وليوث النزال
ومثلك يرتاح للمكرمات وما لك بين الورى من مثال
عزیز بأنفسنا أن نرى ركابك مؤذنة بارتحال
وقد خبرت منك خلقا كريما أناف على درجات الكمال
وفازت لديك بساعات أنس كما زار فى الليل طيف الخيال
ولولا تعللنا أننا نزورك فوق بساط الجلال
ونبلغ فيك الذى نبتغى وذاك على الله سهل المنال
لما فترت أنفـس من أسى ولا برحت أدمع فى انهمال
تلقتك حيث احتلت السعود وكان لك الله فى كل حال

وتوفى أبو مالك المخاطب بهذا ببلد الجريد سنة خمس وسبع مئة .

وأبدع ما وقع لابن الخطيب لاميته التى أولها:

* الحق يعلو والأباطل تسفل *

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٠ .

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨١ .

قال ابن حجة فى شرح بديعته الذى سماه بتقديم أبى بكر ما نصه :
«ومما يشعر بالتهنئة والنصر على الأعداء براعة الاستهلال للعلامة إمام
المغرب ذى الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب وهى :

الحق يعلو والأباطل تسفل والله على أحكامه لا يسأل^(١)
فإنه قال : نظمت للسلطان أسعده الله تعالى وأنا بمدينة سلا لما انفصل
طالباً حقه بالأندلس ، قصيدة كان صنع الله براعة استهلالها ، ووجهت بها إليه
إلى رندة قبل الفتح ، ثم لما قدمت أنشدتها بين يديه بعد الفتح وفاء بنذرى
وسميتها : «المنح الغريب فى فتح القريب» منها قوله رحمه الله^(٢) :

وإذا استحالت حالة وتبدلت	فالله عز وجل لا يتبدل
واليسر بعد العسر موعود به	والصبر القريب موكل
والمستعد لما يؤمل ظافر	وكفاك شاهدا قيدوا وتوكلوا
أحمد والحمد منك سجية	بحليها دون الورى تتجمل
أما سعودك فهو دون منازع	عقد بأحكام القضاء مسجل
ولك السجايَا الغر والشيم التى	بغريبها يتمثل المتمقل
ولك الوقار إذا تزلزلت الربا	وهفت من الروع الهضاب المثل
عوذ كمالك ما استطعت فانه	قد تنقص الأشياء مما تكمل
تاب الزمان إليك مما قد جنى	والله يأمر بالمتاب ويقبل

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٧٨ .

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٧٨ .

إِنَّ كَانَ ماضٍ مِنْ زَمَانِكَ قَدْ مَضَى
 هَذَا بِذَلِكَ فَشَفَعَ الثَّانِي الَّذِي
 وَاللَّهِ قَدْ وَلَاكَ أَمْرَ عِبَادِهِ
 وَإِذَا تَغَمَّدَكَ الْإِلَهِ بِنَصْرِهِ
 وَظَعَنْتَ عَنْ أَوْطَانٍ مُلْكِكَ رَاكِبًا
 وَالْبَحْرَ قَدْ حَنِيتَ عَلَيْكَ ضَوْعَهُ
 وَلَكَ الْجَوَارِي الْمُنَشَّاتِ قَدْ اغْتَدَتْ
 جُوفَاءَ يَحْمِلُهَا وَمَنْ حَمَلَتْ بِهِ
 صَبَحَتْهُمْ غُرُرُ الْجِيَادِ كَأَنَّمَا
 مِنْ كُلِّ مَنْجَرَدٍ أَغْرَمَ مَجْلًا
 زَجَلَ الْجَنَاحُ إِذَا أَجْدَ لُغَارَةً
 جِيدَ كَمَا التَفَتَ الظُّلَمُ فَوْقَهُ
 وَمِنْهَا:

وَخَلِيجَ هِنْدٍ رَاقٍ حَسَنَ صِفَائِهِ
 غَرَقَتْ بِصَفْحَتِهِ الْمَنَالَ وَأَوْشَكَتْ
 فَالْصَّرْحُ مِنْهُ مَمْرَدٌ وَالصَّفْحُ مِنْهُ مُورِدٌ وَالشُّطُّ مِنْهُ مُصْنَدِلٌ
 وَبِكُلِّ أَزْرَقٍ إِنْ شَكَتِ الْحَاظِلَةُ
 مَتَأَوْدَ أَعْطَافِهِ فِي نَشْوَةٍ
 حَتَّى يَكَادَ يَعُومُ فِيهِ الصَّيْقَلُ
 تَبْغَى النِّجَاةَ فَأَوْثَقَتْهَا الْأَرْجُلُ
 مَرَّةَ الْعَيُونِ فَبِالْعَجَاجَةِ يَكْحَلُ
 مِمَّا يَعْلُ مِنَ الدِّمَاءِ وَيَنْهَلُ

عجبا له أن النجيع بطرفه رمد ولا يخفى عليه مقتل
 لله موقفك الذى وثباته وثباته مثل به يتمثل
 والنصل خط ومجال صحيفة والسمر تنقط والصوارم تشكل
 والبيض قد كسرت حروف جفونها وعوامل الأسل المثقف تعمل
 وهى طويلة وجميعها فرائد ولم أكثر منها لعلمى أن كلام لسان الدين
 ابن الخطيب غريب فى هذه البلاد. انتهى كلام ابن حجة رحمه الله.

ومن هذه بعد قوله «وطرف أكحل»:

فكأنما هو صورة فى هيكل من لطفه وكأنما هو هيكل
 ومنها بعد قوله: «والبيض قد كسرت» البيت قوله:

لله قومك عند مشتجر القنا إذ ثوب الداعى المهيب وأقبلوا
 قوم إذا لفح الهجير وجوهم حجبوا برايات الجهاد وظللوا
 ومن مقطوعات ابن الخطيب قوله لما أشرف على مراکش^(١):

ماذا أحدث عن بحر سبحت به من البحار فلا إثم ولا حرج
 دحاه مبتدع الأشياء مستويا ما إن به درك كلا ولا درج
 حتى ما المنار الفرد لاح لنا صحت بشرى يا مطايا جاءك الفرج
 قربت من عامر دارا ومنزلة والشاهد العدل هذا الطبيب والأرج

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨١.

وقال رحمه الله^(١):

كأنا بتامسنا نجوس خلالها وممدودها فى سيرنا ليس يقصر
مراكب فى البحر المحيط تخبطت ولا جهة تدرى والبر يبصر
قال ابن الخطيب^(٢): ولما قضى الله عز وجل بالإدالة، ورجعنا إلى
أوطاننا من العدو، واشتهر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة، والته
على السلطان والدولة، والتكبر على أعلى رتب الخدمة، وتطارحت على
السلطان فى استنجاز وعد الرحلة، ورغبت فى تبرئة الذمة، ونفرت عن
الأندلس بالجملة، خاطبنى يعنى أبا جعفر بن خاتمة، بعد صدر بلغ من حسن
الإشارة، وبراعة الاستهلال الغاية بقوله:

«وإلى هذا سيدى ومحل تعظيمى وإجلالى، أمتع الله تعالى بطول
بقائكم، وضاعف فى العز درجات ارتقائكم، فانه من الأمر الذى لم يغب
عن رأى العقول، ولا أختلف فيه أرباب المعقول؛ أنكم بهذه الجزيرة شمس
أفققها، وتاج مفرقها؛ ووساطة سلكها، وطراز ملكها؛ وقلادة نحرها، وفريدة
درها، وعقد جيدها المنصوص، وكمال زينها على العموم والمخصوص؛ ثم
أنتم مدار أفلاكها، وسر سياسة أملاكها؛ وترجمان بيانها، ولسان إحسانها،
وطيب مارستانها، والذى عليه إدارتها، وبه قوام إمارتها؛ فلديه يحل
المشكل، وإليه يلتجأ فى الأمر المعضل، فلا غرو أن تقيّد بكم الأسماع
والأبصار، وتحقق نحوكم الأذهان والأفكار؛ ويزجر عنكم السانح والبارح؛

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨١.

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٨.

ويستنبأ ما تطرف عنه العين وتخلج الجوارح؛ استقراء لمرامكم، واستطلاعاً لطالع اعتزامكم، واستكشافاً عن مرامى سهامكم؛ لا سيما مع إقامتكم على جناح خفوق، وظهوركم فى ملتصع بروق، واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق؛ حتى تستقر بكم الديار، ويلقى عصاه التسيار، ولها العذر فى ذلك إذ صدعها بفراقكم لم يندمل، وسرورها بلقائكم لم يكتمل؛ فلم يبر بعد جناحها المهيض، ولا جم مأوها المغيض، ولا تميزت من داجيها لياليها البيض؛ ولا استوى نهارها، ولا تألقت أنوارها؛ ولا اشتملت نعمائها؛ ونسيت غماؤها؛ بل هى كالناقة، والحديث العهد بالمكارة، تستشعر نفس العافية، وتتمسح منكم باليد الشافية؛ فبحنانكم عليها، وعظيم حرمتكم على من لديها؛ لا تشوبوا لها عذب المجاج بالأجاج، وتفطموها عما عودت من طيب المزاج؛ فما لدائها وحياة قربكم غير طبكم من علاج؛ وإنى ليخطر بخاطرى محبة فيكم وعناية بما يعينكم ما نال جانبكم صانه الله بهذا الوطن من الجفاء، ثم أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم الوفاء؛ وأنَّ الوطن إحدى الحواضن الأظار، التى يحق لها جميل الاحتفاء، وما يتعلق بكم من حرمة أولياء القرابة وأوداء الصفاء؛ فيغلب على ظنى أنكم لحسن العهد أنجح، وبحق نفسكم عن حق أوليائكم أسمح، والتى هى أعظم قيمة من فضائلكم أوهب وأسجح. وهب أنَّ الدرَّ لا يحتاج فى الإثبات، إلى شهادة النحور واللبات؛ والياقوت غنى المكان، عن مظاهرة القلادة والتيجان، أليس أنَّه أعلى للعيان، وابتعد عن مكابرة البرهان، تألقها فى تاج الملك أنوشروان؛ فالشمس وإنَّ كانت أم الأنوار، وجلاء الأبصار، مهما أغمى مكنها من الأفق قيل: أليل هو أم نهار؛ وكما فى علمكم ما فارق ذوو الأرحام، وأولو الأحلام؛ موطن استقرارهم، وأماكن قرارهم، إلا برغمهم واضطرارهم، واستبدال دار

خير من دارهم؛ ومتى توازن الأندلس بالمغرب، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب؟ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعباد، وما فوقه مرابط جهاد، ومعاقد ألوية في سبيل الله ومضارب أوتاد؛ ثم يَبْوَى ولده مَبْوَأَ أجداده، ويجمع له بين طارفه وتلاده، أعيد أنظاركم المسددة من رأى فائل، وسعى طويل لم يحل منه بطائل، فحسبكم من هذا الإياب السعيد، والعود الحميد» وهى طويلة.

قال ابن الخطيب: فأجبت به بقولى^(١):

لَمْ فى الهوى العذرى أو لا تلم فالعذل لا يدخل أسمى
شأنك تعنيفى وشأنى الهوى كل الهوى فى شأنه ساعى
أهلاً بتحفة القادم، وريحانة المنادم، وذكرى الهوى المتقادم؛ لا يصفر
الله مسراك، بما أسراك؛ لقد جبت إلى من همومى ليلاً، وجست رجلاً
وخيلاً، ووفيت من صاع الوفاء كيلاً، وظننت بى الأسف على ما فات
فأعملت الالتفات لكيلاً؛ فأقسم لو أن أمرى اليوم بيدى، أو كانت اللمة
السوداء من عُدَدِي؛ ما أفلت شراكى المنصوبة لأمثالك، حول المياه وبين
المسالك، ولا علمت ما هنالك؛ لكنك طرقت حمى كسعته الغارة الشعواء،
وغيرت ربه الأنواء؛ فخدم بعد ارتجاجه، وسكت أذنين دجاجه، وتلاعبت
الرياح الهوج فوق فجاجه، وطال عهده بالزمان الأول، وهل عند رسم دارس
من معول؛ وحيا الله ندبا الى زيارتى ندبك، وبآدابه الحكمة أدبك:

فكان وقد أفاد بك الأمانى كمن أهدى الشفاء إلى العليل

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٣٠.

وهى شيمة بوركت من شيمة، وهبة الله قبله من لدن المشيمة، ومن مثله فى صلة رعى، وفضل سعى، وقول ووعى؟

قسما بالكواكب الزهر ر والزهر عــــاتمه
إنما الفضل ملة ختمت بابن خاتمه
كسانى حلة فضلة وقد ذهب زمان التجمل، وحملنى شكره وكتدى واه
عن التحمل، ونظرنى بالعين الكليلة عن العيب فلا أجاد التأمل، واستطلع
طلع نثى^(١)، ووالى فى مبرك المعجزة حثى، إنما أشكو بثى:

* ولو ترك القطا ليلا لنا ما *^(٢)

وما حال^(٣) شمل وتده مفروق، وقاعدته فروق، وصلوع بنى أبيه
مسروق، وقلب قرحه من عضة الدهر دام، وجمرة حسرته ذات احتدام؛ هذا
وقد صارت الصغرى، التى كانت الكبرى؛ لمشيب لم يدع أن هجم لما نجم،
ثم تهلل عارضة وانسجم:

لا تجمعى هجرا علىَّ وغربةً فالهجر فى تلف الغريب سريع
نظرت فإذا الجانب ناب، والنفس فريسة ظفر وناب، والمال أكلة
انتهاب، والعمر رهن ذهاب، واليد صفر من كل اكتساب، وسوق المعاد
مترامية والله سريع الحساب:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الزمان^(٤)

(١) النث: ما يذيعه المرء من سر.

(٢) من أمثالهم، وصدره: «ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا» يريد أن وراء إثارة القطافى فى الليل
أمرًا رهيبًا.

(٣) نفح الطيب ج ٦ ص ٣١.

(٤) نفح الطيب ج ٦ ص ٣٢.

وهب العمر جديد، وظل الأمن مديد، ورأى الاغتباط بالوطن سديد،
فما الحجة لنفسى إذا مرت بمطارح جفوتها، وملاعب هفوتها؛ ومثاقف
قناتها، ومظاهر عزائها ومناتها ولود وزناد الكون غير صلود!

وإذا امرؤ لدغته أفعى مرة تركته حين يجر حبل يفرق
ثم إنَّ المرغب^(١) قد ذهب، والدهر قد استرجع ما وهب، والعارض قد
اشتهب؛ وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضة، وأسماؤه على الجوار مخفوضة،
والنية مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة، والتوبة بفضل الله عز
وجل منقودة، غير معترضة ولا منقودة، والمعاملة سامرية، ودروع الصبر
سابرية، والاقتصاد قد قرت العين بصحبته، والله قد عوض حب الدنيا
بمحبه؛ فإذا راجعها مثلى من بعد الفراق، وقد رقى لدغتها ألف راق؛
وجمعتنى بها الحجرة، فما الذى تكون الأجرة؟ جل شانى، وإنَّ رضى الوامق
وسخط الشانى؛ وإنى إلى الله مهاجر، وللعرض الأدنى هاجر، ولأظعان
السرى زاجر، لنجد إن شاء الله تعالى أو حاجر؛ لكن دعانى للهوى، إلى
هذا المولى المنعم هوى؛ خلعت نعلى الوجود وما خلعته، وشوقى أمرنى
فأطعته، وغالب صبرى والله فما استطعته، والحال أغلب، وعسى ألا يخيب
المطلب؛ فإن يسر رضاه فأمل كمل، وراحل احتمل، وحاد أشجى الناقة
والجمل؛ وإن كان خلاف ذلك فالزمان جم العوائق، والتسلم بمقامى لائق:

ما بين غمضة عين وانتباهتها يصرف الأمر من حال إلى حال
وأما تفضيله هذا الوطن على غيره، ليمن طيره، وعموم خيره؛ وبركة
جهاده، وعمران رباه ووهاده، بأشلاء عباده وزهاده؛ حتى لا يفضله إلا أحد
الحرمين، فحق برئ من المين؛ لكنى للحرمين جنحت، وفى جو الشوق

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٣٢.

إليهما سنحت؛ فقد أفضت إلى طريق قصدى محجته، ونصرنى والمنة لله
حجته؛ وقصد سيدى أسنى قصد توخاه الحمد والشكر، ومعروف عرف به
النكر؛ والآمال من فضل الله بعد تمار، والله يخلق ما يشاء ويختار؛ ودعاؤه
بظهر الغيب مدد، وعدة وعدد، وبره حالى الظعن والإقامة معتملى ومعتمد،
ومجال المعرفة بفضلله لا يحصره أمد. والسلام. انتهى.

وقال فى الإحاطة فى ترجمة السلطان أبى سالم ابن الحسن المرىنى، بعد
كلام كثير، ما نصه: «فلقد كان بقية البيت، وآخر القوم دماثة وحياء، وبعداً
عن الشر، وركونا للعافية، وأنشدت على قبره الذى ووريت به جثة بالقلة من
ظاهر المدينة، قصيدة أدت فيها بعض حقه، وهى:

بنى الدنيا بنى لمع السراب لدوا للموت وابنوا للخراب
انتهى المقصود منه.

ومن نظم ابن الخطيب فى الرغبة إلى الله تعالى:

إلهى بالبيت المقدس والمسعى وجمع إذا ما الخلق قد نزلوا جمعا
وبالموقف المشهود يا رب فى منى إذا ما أسال الناس من خوفك الدمعا
وبالمصطفى والصحب عجل إقالتى وأنجح دعائى فىك يا خير من يدعى
صدعت وأنت المستغاث جنابه أقل عثرتى يا مأملى واجبر الصدعا
وقال رحمه الله عقب الإياب من الرحلة المراكشية^(١):

أفادت وجهتى بنداك مالا قضى دينى وأصلح بعض حالى

(١) المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٥٠٨.

وَمُتَّعَتِ الْخَوَاطِرُ بِانْشِرَاحٍ وَأُطْرِفَتِ النُّوَاطِرُ بِاِكْتِحَالٍ
وَأَبَتْ خَفِيفَ ظَهْرٍ وَالْمَطَايَا بِجَاهَكَ تَشْتَكِي ثَقْلَ الرِّحَالِ
وَشَانِي لِلْمَعْلَمِ غَيْرِ شَانِي وَحَالِي بِالْمَكَارِمِ جَدِّ حَالٍ
فَحَبَّ عِلَاكَ إِيمَانِي وَعَقْدِي وَشَكَرَ نَدَاكَ دِينِي وَانْتِحَالِي
كَأَنَّ قَدْ صَحَّ لِلَّهِ انْقِطَاعِي بِتَأْمِيلِي جَنَابَكَ وَارْتِحَالِي
وَمَا يَبْقَى سِوَى فِعْلٍ جَمِيلٍ وَحَالِ الدَّهْرِ لَا تَبْقَى بِحَالٍ
وَكُلِّ بَدَايَةٍ فَلِإِلَى انْتِهَاءٍ وَكُلِّ إِقَامَةٍ فَلِإِلَى ارْتِحَالٍ
وَمَنْ سَامَ الزَّمَانَ دَوَامَ أَمْرٍ فَقَدْ وَقَفَ الرَّجَاءَ عَلَى الْمَحَالِ
وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الضَّرَاعَةِ إِلَى مَوْلَاهُ (١):

مَوْلَايَ إِنَّ أَذْنِبْتُ، يَنْكَرُ أَنْ يَرَى مِنْكَ الْكَمَالَ وَمَنَى النِّقْصَانَ؟
وَالْعَفْوُ عَنْ سَبَبِ الذُّنُوبِ مُسَبَّبٌ لَوْلَا الْجَنَائِدَةُ لَمْ يَكُنْ غُفْرَانٌ
وَقَالَ سَامَحَهُ اللَّهُ مِمَّا كَتَبَ فِي حَيْطَانِ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي بَنَاهَا السُّلْطَانُ أَبُو
الْحِجَّاجِ (٢):

أَلَا هَكَذَا تَبْنِي الْمَدَارِسَ لِلْعِلْمِ وَتَبْقَى عُهُودُ الْمَجْدِ ثَابِتَةً الرَّسْمِ
وَيَقْصِدُ وَجْهَ اللَّهِ بِالْعَمَلِ الرِّضَا وَتَجْنِي ثَمَارَ الْعِزِّ مِنْ شَجَرِ الْعِزْمِ
تَفَاخُرَ مِنِّي حُضْرَةُ الْمَلِكِ كَلِمَا تَقْدُمُ خَصْمَ فِي الْفَخَارِ إِلَى الْخِصْمِ
فَأَجْدَى إِذَا ضَنَّ الْغَمَامُ مِنَ الْحَيَا وَأَهْدَى إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ مِنَ النُّجْمِ

(١) المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٥٠٨.

(٢) المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٢.

فيا ظاعناً للعلم يطلب رحلة كفيت اعتراض البيد أو لجج اليم
 ببابى حط الرحل لا تنو وجهة فقد فزت فى حال الإقامة بالغنم
 فكم من شهاب فى سمائى ثاقب ومن هالة دارت على قمر تم
 يفيضون من نور مبين إلى هدى ومن حكمة تجلو القلوب إلى حكم
 جزى الله عنى يوسف خير ما جزى ملوك بنى نصر عن الدين والعلم
 وقال ابن الخطيب مررت يوماً مع شيخنا أبى البركات ببعض مسالك
 غرناطة، فأنشد من نظمه:

[غرناطة ما مثلها حضره الماء والبهجة والخضره
 واستجارنى رحمه الله، فقلت^(١)]:

سكانها قد أسكنوا جنة فهم يلقون بها نصره
 وكتب^(٢) رحمه الله عن سلطانه أبى عبد الله بن نصر يخاطب الضريح
 المقصود، والمنهل المورد، والمرعى المتجع، والخوان الذى يكفى الغرثى،
 ويمرض المرضى، ويقوت الزمنى، ويتعدهم إلى أهل الجدة زعموا والغنى،
 قبر ولى الله سيدى أبى العباس السبتي، نفعا الله به وجبر حالنا ببركاته
 النعم، ودفع عنا النقم:

يا ولى الإله أنت جواد وقصدنا إلى حماك المنيع
 راعنا الدهر بالخطوب فجئنا نرتجى من علاك الحسن الصنيع
 فمددنا لك الأكف نرجى عودة العز تحت شمل جميع

(١) ما بين الحاصرتين تكملة عن نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٢ .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١٠٠ .

قد جعلنا وسيلة تترك الزا كى وزلفى إلى العليم السميع
 كم غريب أسرى إليك فوافى برضاً عاجل وخير سريع
 يا ولى^(١) الله الذى جعل جاهه سبباً لقضاء الحاجات، ورفع الأزمات،
 وتصريفه باقياً بعد الملمات، وصدق نقل الحكايات ظهور الآيات؛ نفعى الله
 بنيتى فى بركة تترك، وأظهر على أثر توصل بك إلى ربك؛ مزق شملى؛
 وفرق بينى وبين أهلى؛ وتعدى على، وصرفت وجوه المكاييد إلى، حتى
 أخرجت من وطنى وبلدى، ومالى وولدى؛ ومحل جهادى، وحقى الذى
 صار لى طوعاً عن آبائى وأجدادى؛ عن بيعة لم يحل عقدها الدين، ولا
 ثبوت جريمة تشين؛ وأنا قد قرعت باب الله بتأميلك، فالتمس لى قبوله
 بقبولك؛ وردنى إلى وطنى على أفضل حال، وأظهر على كرامتك التى تشد
 إليها ظهور الرحال؛ فقد جعلت وسيلتى إليك رسول الحق؛ إلى جميع
 الخلق؛ والسلام عليك أيها الولى الكريم، الذى يأمن به الخائف ويتصف
 الغريم، ورحمة الله. [انتهى].

وقال سامحه الله فى التورية الطيبة، بالدواء المسمى بدم الأخوين، فى
 شأن سلطان الأندلس القائم عليهم وأخيه، وشأن ذلك الدواء النفع من
 الجراح^(٢):

بإسماعيل ثم أخيه قيس تأذن هم ليلى بانبللاج
 دم الأخوين داوى جرح قلبى وعالجنى وحسبك من علاج
 وقال مقتبسا فى غير ذلك:

يا من بأكناف فؤادى ربع قد ضاق بى فى حبك المتسع

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ١٠٠.

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ١٤٢.

ما فيك لى جدوى ولا أرعوى شح مطاع وهوى متّبع
وقال فى التورية بالطّب^(١):

إنى وإن كنت ذا اعتلال رث القرى بين الهزال
فى عارض التيس لى شفاء فكيف فى عارض الغزال
وقال يخاطب الحاجب الفقيه الخطيب، سيدى أبا عبد الله بن مرزوق،
وطغا على بيت المشاركة فى العذار^(٢):

أما والذى تبلى لديه السرائر لما كنت أرضى الخسف لولا الضرائر
غدوت لضميم ابن الريب فريسة أما ثار من قومى لنصرى ثائر
إذا التمس كفى لديه جرايتى كأنى جان أوبقته الجرائر
وما كان ظنى أن أنال جراية يحكم من جرائها فى جائر
متى جاد بالدينار أخضر زائفاً ودارته دارت عليها الدوائر
وقد أخرج التعنيت كيس مرارتى ورقت لبلواى النفوس الأخير
تذكرت يبتاً فى العذار لبعضهم له مثل بالحسن فى الأرض سائر:
«وما أخضر ذاك الخد نبثا وإنما لكثرة ما شقت عليه المرائر»
وجاه ابن مرزوق لدى ذخيرة وللشدة العظمى تعد الذخائر
ولو كان يدرى ما دهانى لساءه وأنكر ما صارت إليه المصاير

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٢.

(٢) المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٣.

وكان ابن الربيب هذا من خدام السلطان أبى سالم، وكانت جِراية ابن الخطيب وغيره ممن قدم من أعيان الأندلس على يده، فكان لا يوفى بحقوقهم، فاشتكى ابن الخطيب به إلى الحاجب ابن مرزوق بهذا النظم المذكور، وإلى الله ترجع الأمور.

وقال رحمه الله يخاطب أحد الشرفاء الكرام^(١):

أعيا اللقاء على إلا لمحة فى جملة لا تقبل التفصيلا
فجعلت باب عن يمينك نائباً أهديه عند زيارتى تقبيلاً
فإذا وجدتكَ نلت ما أملتَه أو لم أجِدكَ فقد شفيت غليلاً
وقال فى مخاطبة السلطان أبى سالم رحمه الله فى سبيل الشكر، عندما
خلصه من الورطة بشفاعته التى قدمنا ذكرها:

سمى خليل الله أحييت مهجتى وعاجلنى منك الصريخ على بعد
فإنَّ عشت أبلغ فيك نفسى عذرها وإنَّ لم أعش فالله يجزيك من بعدى
قال: وقلت فى التغزل، وما أبعد عنى فى الوقت، والحمد لله^(٢):

أصبح الخد منك جنة عدن مجتلى أعين وشم أنوفٍ
ظللتها من الجفون سيوف جنة الخلد تحت ظل السيوف
وخاطب صاحب الأشغال أبا عبد الله ابن القاسم بن أبى مدين يهنئه
بنقل الخطبة من رسالة^(٣):

(١) المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٣.

(٢) المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٤٧٢.

(٣) المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٢٠٥.

تعود الأمانى بعد انصراف ويعتدل الشئ بعد انحراف
 فإن كان دهرك يوماً جنى فقد جاء ذا خجل واعتراف
 طلع البشير أبقاك الله، بقبول الخلافة المرينية، والإمامة السنية، خصها
 الله بنيل الأمنية، على تلك الذات التى طابت أرومتها وزكت، وتأوّهت
 العلياء لتذكر عهدا وبكت، وكاد السرور ينقطع لولا أنها تركت منك الوارث
 الذى تركت؛ فلولوا العذر الذى تأكدت ضرورته، والمانع الذى ربما تقررت
 لديكوم صورته؛ لكنك أول مشافة بالهناء، ومصارف لهذا الاعتناء، الوثيق
 البناء، فنقول والحمد لله والثناء. وهى طويلة.

وقال يخاطب السلطان أبا سالم عند انقطاعه بضريح والده بشالة سلا،
 حيث مدفن ملوك بنى مرين^(١):

عن باب والدك الرضا لا أبرح	يأسو الزمان لأجل ذاك ويجرح
ضربت خيامى فى حماه فصيتى	تجنى الجميم ^(٢) به وبهمى تشرح
حتى يراعى وجهه فى وجهتى	بعناية تشفى الصدور وتشرح
أيسوغ عن مثواه سيرى خائباً	ومنابر الدنيا بذكرك تصدح
أنا فى حماه وأنت أبصر بالذى	يرضيه منك فوزن عقلك أرجح
فى مثلها سيف الحمية ينتضى	فى مثلها زند الحفيظة يقدح
وعسى الذى بدأ الجميل يعيده	وعسى الذى سد المذاهب يفتح

(١) المقرئ: نفح الطيب ج ٦ ص ٢٢.

(٢) تحرفت فى سائر الأصول إلى: «لحميم» بالحاء المهملة، وصوابه لدى المقرئ فى نفح
 الطيب ج ٦ ص ٢٢. والجميم - بالميم المعجمة - هو النبت الكثير، أى أنهم فى بسطة
 من العيش.

ومما كتب به إلى السلطان أبى سالم من مدينة سلا، بعد عودته من
مراكش^(١).

مولاي المرجو لإتمام الصنيعة وصلة النعمة وإحراز الفخر أبقاكم الله
تضرب بكم الأمثال في البر والرضا، وعلو الهمة ورعى الوسيلة.

مقبل موطئ قدمكم، المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابن الخطيب، من
الضريح المقدس بشالة، وقد حطّ رحل الرجاء في القبة المقدسة، وتيمم بالتربة
الزكية، وقعد بازاء لحد أبيكم ساعة إياه من الوجهة المباركة، وزيارة الربط
المقصودة، والترب المعظمة، وقد عزم ألا يبرح طوعاً من هذا الجوار الكريم،
والدخيل المرعى، حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا
المولى، العزيز على أهل الأرض ثم عليكم، والتماس شفاعته في أمر سهل
عليكم، لا يجر إنفاذ مال، ولا اقتحام خطر، إنما هو إعمال لسان، وخط
بنان، وصرف عزم، وإحراز فخر وأجر، وإطالة ذكر، وذلك أن العبد عرفكم
يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال، ما يحضر مما
يفتح الله فيه، ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال، ما يتلقى عنه من الجواب.
وقال لي صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم، سيدى الخطيب،
سنّى الله أمله، من سعادة مقامكم وطول عمركم: يا فلان أنت والحمد لله
ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين، وصدر عنكم من البشر والقبول
والإنعام ما صدر، جزاكم الله جزاء المحسنين. وقد تقدم تعريف مولاي بما
كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم، حسبما أداه من حضر ذلك
المشهد من خدامكم، والعبد الآن يعرض عليكم الجواب، وهو أنى لما فرغت
من مخاطبته بمراى من الملاء الكبير والجم الغفير أكبت على اللحد الكريم،

(١) انظر في ذلك: السلاوى: الاستقصا ج ٤ ص ٢٤.

داعياً ومخاطباً، وأصغيت بأذني نحو قبره، وجعل فؤادى يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله، فكأننى به يقول لى: قل لمولاك: يا ولدى، وقرة عيني، المخصوص برضاى وبرى، الذى ستر حريمى، ورد ملكى، وصان أهلى، وأكرم صنائعى، ووصل عملى، أسلم عليك، وأسأل الله أن يرضى عنك، ويُقبل عليك؛ الدنيا دار غرور، والآخرة خير لمن اتقى، وما الناس إلا هالك وابن هالك، ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضى العفو والمغفرة، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة، ومثلك من ذُكر فتذكر، وعرف فما أنكر؛ وهذا ابن الخطيب [قد]^(١) وقف على قبرى، وتهمم بى، وسبق الناس إلى رثائى، وأنشدنى ومجدنى، وبكأنى ودعا لى، وهنأنى بمصير أمرى إليك، وعفر وجهه فى تربى، وأملنى لما انقطعت منى آمال الناس، فلو كنت يا ولدى حياً لما وسعنى أن أعمل معه إلا ما يليق بى، وأن أستقل فيه الكثير، وأحتقر العظيم، لكن لما عجزت عن جزائه، وكلته إليك، وأحلت له يا حبيب قلبى عليك، وقد أخبرنى أنه سلب المال، كثير العيال، ضعيف الجسم، قد ظهر فى عدم نشاطه اثر السن، وأمل أن ينقطع بجوارى، ويستتر بدخلى وخدمتى، ويرد عليه حقه بحرمتى، ووجهى ووجوه من ضاجعنى من سلفى، ويعبد الله تحت حرمتك وحرمتى، وقد كنت تشوفت إلى استخدامه فى الحياة، حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة، وخطيبنا العظيم المزية القديم القربة، أبو عبد الله ابن مرزوق فسله يذكرك، واستخبره يخبرك، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمى بعد الممات، إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله ورحمته التى وسعت كل شىء، وله يا ولدى ولد نجيب يخدم ببابك، وينوب عنه فى ملازمة بيت كتابك وقد استقر بدارك قراره، وتعين بأمرك

(١) التكملة عن السلاوى.

مرتبته ودفنائه، فيكون الشيخ خديم الشيخ، والشاب خديم الشاب، هذه رغبتى منك، وحاجتى إليك. واعلم أن هذا الحديث لا بد أن يذكر ويتحدث به فى الدنيا، وبين أيدي الملوك والكبراء، فاعمل ما يبقى لك فخره، ويتخلد ذكره، وقد أقام مجاوراً ضريحى، تالياً كتاب الله علىّ، منتظراً ما يصله منك. ويقرؤه علىّ، من السعى فى خلاص ماله، والاحتجاج بهذه الوسيلة فى جبره، وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة، فالله الله يا إبراهيم، اعمل ما يسمع عنى وعنك فيه، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال». [انتهى]^(١).

والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمة سلفه، منتظر منك قضاء حاجته، ولتعلموا وتحققوا إنى لو ارتكبت الجرائم، ورزأت الأموال، وسفكت الدماء، وأخذت حسائف الملوك الأعزة ممن وراء النهر من التتر، وخلف البحر من الروم، ووراء الصحراء من الحبشة، وأمکنهم الله منى من غير عهد، بعد أن بلغهم تذمى بهذا الدخيل، ومقامى بين القبور الكريمة، ما وسع أحداً منهم من حيث الحياء والحشمة من الأموات والأحياء، وإيجاب الحقوق، التى لا يغفلها الكبار للكبار، إلاّ الجود الذى لا يتعقبه البخل، والعفو الذى لا تفسده المؤاخدة، فضلاً عن سلطان الأندلس، أسعده الله بمواليتكم، فهو فاضل، وابن ملوك أفاضل، وحوله أكياس، ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم، لا سيما مولاي والدكم، الذى أتوسل به إليكم وإليهم، فقد يتبنى مولاي أبا الحجاج، ويشمله بكنفه، وصارخه بنفسه، وأمده بأمواله، ثم صير الله ملكه إليكم، وأنتم من أنتم ذاتاً وقبلاً، فقد قرت يا مولاي عين العبد بما رأت فى هذا الوطن المراكشى، من وفور حشودكم،

(١) التكملة عن السلاوى.

وكثرة جنودكم، وترادف أموالكم وعددكم، زادكم الله من فضله، ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم، وأعرضتم عن ذلك الوطن، استولت عليه يد عدوه، وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام، الذين خضعت لهم التيجان وتعلقت بثوب الملك الصالح، والد الملوك [الكرام]^(١)، مولاى والدكم وشهرة حرمة شالة معروفة حاش لله أن يضيعها أهل الأندلس، وما ترسل إليهم قط بها إلا الآن، وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة، وأملى منكم أن يتعين من بين أيديكم خديم، بكتاب كريم، يتضمن الشفاعة فى رد ما أخذ لى، ويخبر بمشواى على قبر والدكم، ويقرر ما لزمكم بسبب هذا الترامى، من الضرورة المهمة، والوظيفة الكبيرة، عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا، وتطلبون منهم عادة المكارمة بحل هذه العقدة ومن المعلوم أنى لو طلبت بهذه الوسائل من طيب مالهم ما وسعهم بالنظر العقلى إلا حفظ هذا الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن، فالحياء والحشمة يأبيان العذر عن هذا فى كل ملة ونحلة، وإذا تم هذا الغرض، ولا شك فى إتمامه بالله، تقع صدقتكم على القبر الكريم بى، وتعينونى لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقده، ومدح النبى ﷺ ليلة المولد فى جواره، وبين يديه، وهو غرض غريب مناسب لبركم به، إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم، وأعود داعيا مثنيا، مستدعيا للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب، وأتعوض من ذمتى بالأندلس ذمة بهذا الرباط المبارك، يرثها ذريتى وقد ساومت فى شىء من ذلك، منتظراً ثمنه مما يباع بالأندلس بشفاعتكم، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم فى مثل هذا، أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء، والله ما طلبته، لكنهم أسرى وأفضل وانقطاعى أيضاً لوالدكم مما لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه، وهأنا أرقب

(١) التكملة عن السلاوى.

جوابكم بما لى عندكم من القبول، ويسعنى مجدكم فى الطلب، وخروج
الرسول لاقتضاء هذا الغرض، والله يطلع من مولاي على ما يليق به.
والسلام.

وكتبه فى الحادى عشر من رجب عام واحد وستين وسبع مئة.

وفى مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة^(١):

مولاي هأنا فى جوار أبيكا	فابذل من البر المقدر فيكا
أسمعه ما يرضيه من تحت الثرى	والله يسمعك الذى يرضيكا
واجعل رضاه إذا نهدت كتيبة	تهدى إليك النصر أو تهديكا
واجبر لجبرى قلبه تنل المنى	وتطالع الفتح المبين وشيكا
فهو الذى سن البرور بأمه	وأبيه فاشرع شرعه لبنيكا
وابعث رسولك منذرا ومحذرا	وبما تؤمل نيله يأتيكا
قد هز عزمك كل قطر نازح	وأخاف مملوكا به ومليكا
فإذا سموت إلى مرام شاسع	فغضونه ثمر المنى تجنيكا
ضمنت رجال الله منك مطالبى	لما جعلتك فى الثواب شريكا
فلئن كفيت وجوها فى مقصدى	ورعيتها بركاتها تكفيكا
وإذا قضيت حوائجى وأريتنى	أملى فربك ما أردت يريكا
واشدد على قولى يدا فهو الذى	برهانه لا يقبل التشكيكا

(١) السلاوى: الاستقصا ج ٤ ص ٢٨.

لكن رأيت جناب شالة مغنما يضىفى علىّ العز فى نادىكا
وفروض حقه لا تفوت فوقتها باق إذا استجزيته يجزيكا
ووعدتنى وتكرر الوعد الذى أبت المكارم أن يكون أفىكا
أضفى عليك الله ستر عناية من كل محذور الطروّ يقىكا
ببقائك الدنيا تحاط وأهلها فالله جل جلاله يبقىكا
ولمّا وصل هذا السلطان أبا سالم رحمه الله راجعه بما نصه بعد البسملة
والصلاة^(١):

من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب
العالمين، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين، [أبى الحسن
ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين]^(٢) أبى سعيد ابن
ملانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، يوسف بن يعقوب بن
عبد الحق، أيد الله أمره، وأعز نصره، إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى،
الأعز الأحظى، الأوجه الأنوه، الصدر الأحفل، المصنف البليغ، الأعراف
الأكمل، أبى عبد الله ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى، الوزير الأرفع الأنجد،
الأصيل الأكمل، المرحوم المبرور أبى محمد بن الخطيب، وصل الله عزته،
ووالى نعمته.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد حمد الله تعالى، والصلاة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الكريم المصطفى، والرضا عن آله
وصحبه أعلام الإسلام، وأئمة الرشد والهدى، وصلة الدعاء لهذا الأمر العلى
العزیز المنصور المستعین بالنصر الأعز والفتح الأسنى.

(١) السلاوى ج ٤، ص ٢٩، ونفح الطيب ج ٦ ص ١٣.

(٢) التكملة عن السلاوى.

فإننا كتبناه إليكم، كتب الله لكم بلوغ الأمل، ونُجِّح القول والعمل، من منزلنا الأسعد، بضفة وادى ملوية يُمْنه الله، وصنع الله جميل، ومنه جزيل، والحمد لله، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل، والعناية المتكفلة برعى الوسائل، ذلكم لما تميزتم به من التمسك بالجناب العلى المولوى العلوى، جدد الله عليه ملابس غفرانه، وسقاه غيوث رحمته وحنانه، وبما أهديتم إلينا، من التقرب لدينا، بخدمة ثراه الطاهر، والاشتمال بمطارف حرمة السامية المظاهر، وإلى هذا وصل الله حظوتكم، ووالى رفعتكم، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده، المقابل بالإسعاف المستعذب ورده، فوقفنا على ما نصّه، واستوفينا ما شرّحه وقصّه، فأثرنا تلتطفكم فى التوسل بأكبر الوسائل إلينا، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا، وفى الحين عينا لكمال مطلبكم، وتماّم مأربكم، والتوجه بخطابنا فى حقكم، والاعتماد بوفقكم، خديمينا أبا البقاء بن تاشكورت، وأبا زكريا بن فرقاجة، أنجدهما الله وتولاهما وأمّس تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم، بعد التأكيد عليهما فيه، وشرح العمل الذى يوفيه، فكونوا على علم من ذلكم، وابسطوا له جملة آمالكم وإنّا لنرجو ثواب الله فى جبر أحوالكم، وبرء اعتلالكم، والله سبحانه يصل مبرتكم، ويتولى تكرمتكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتب فى الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبعمائة.

فراجعه ابن الخطيب بما نصّه^(١):

مولاي خليفة الله بحق وكبير ملوك الأرض عن حجة، ومعدن الشفقة والرحمة، ببرهان وحكمة، أبقاكم الله عالى الدرجة فى المنعمين، وافر الحظ

(١) السلاوى ج ٤ ص ٣٠. ونفح الطيب ج ٦ ص ١٤.

عند جزاء المحسنين، وأراكم ثمرة بر أبيكم فى البنين، وصنع لكم فى عدوكم الصنع الذى لا يقف عند معتاد، وأذاق العذاب الأليم من أراد فى مثابتكم بإلحاد.

عبدكم الذى ملكتم رقه، وآويتم غربته، وسترتم أهله وولده، وأسنيتم رزقه، وجبرتم قلبه، يقبل موطئ الأخصص الكريم من رجلكم الطاهرة، المستوجبة بفضل الله لموقف النصر، الفارعة هضبة العز، المعملة الخطو فى مجال السعد ومسير الحظ، ابن الخطيب من شالة التى تؤكد بملككم الرضى احترامها، وتجدد برعكم عهدا، واستبشر بملككم دفينها، وأشرق بحسناتكم نورها، وقد ورد على العبد الجواب المولوى، البر الرحيم، المنعم المحسن، بما يليق بالملك الأصيل، والقدر الرفيع، والهمة السامية، والعزة القعساء، من رعى الدخيل، والنصرة للذمام، والاهتزاز لبر الأب الكريم، فثاب الرجاء، وانبعث الأمل، وقوى العضد، وزار اللطف، فالحمد لله الذى أجرى الخير على يدكم الكريمة، وأعانكم على رعى ذمام الصالحين، المتوسل إليكم أولا بقبورهم ومتعبداتهم، وتراب أجدادهم، ثم بقبر مولاى ومولاكم ومولى الخلق أجمعين، الذى تسبب فى وجودكم، واختصكم بحبه، وغمركم بلطفه وحنانه، وعلمكم آداب الشريعة، وأورثكم ملك الدنيا، وهياتكم دعوته بالاستقامة إلى ملك الآخرة، بعد طول المدى، وانفساح البقاء، وفى علومكم المقدسة ما تضمنت الحكايات عن العرب من النصرة عن طائر داست أفراخه ناقة فى جوار رئيس منهم، وما انتهى إليه الامتعاض لذلك، مما أهينت فيه الأنفس، وهلك الأموال، وقصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا، فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولا إلى حماكم بالأهل والوالد عن حسنة تبرعتم بها، وصدقة حملتكم الحرية على بذلها، ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق

عليكم، دافع العين، خافق القلب، دامى القرحة، يتغطى بردائه، ويستجير بعليائه، كَأْنى تراميت عليه فى الحياة أمام الذعر الذى يذهل العقل، ويحجب عن التمييز، بقصر داره، ومضجع رقادته، ما من يوم إلا وأجهر بعد التلاوة: يا ليعقوب يا المرين نسأل الله ألاّ يقطع عني معروفكم، ولا يسلبني عنايتكم، ويستعملني ما بقيت فى خدمتكم، ويتقبل دعائى فيكم، ولحين وصول الجواب الكريم، نهضت إلى القبر المقدس، ووضعت به بإزائه، وقلت: يا مولاي، يا كبير الملوك، وخليفة الله، وبركة بنى مرين، صاحب الشهرة والذكر فى المشرق والمغرب، عبدك المنقطع إليك المترامى بين يدى قبرك، المتوسل إلى الله ثم إلى ولدك بك، ابن الخطيب، وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه، من رعى وجهك، [والتقرب إلى الله برعيك]^(١)، والاشتهار فى مشرق الدنيا ومغربها ببرّك، وأنتم من أنتم من إذا صنع صنعةكملها وإذا بدأ منة تممها، وإذا أسدى يدا أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة، وأنا تحت ذيل حرمتك، وظل دخيلك، حتى يتم أملى، ويخلص قصدى، وتحف نعمتك بى، ويطمئن إلى مأمنك قلبى.

ثم قلت للطلبة: أيّها السادة بينى وبينكم تلاوة كتاب الله منذ أيام، ومناسبة النّحلة، وأخوة التّألف بهذا الرباط المقدس، والسكنى بين أظهركم، فأمنّوا على دعائى بإخلاص من قلوبكم، واندفعت فى الدعاء والتوسل الذى نرجو أن يتقبله الله ولا يضيعه، وخاطب مولاه شاكرًا لنعمته، مشيدًا بصنيعته، مسرورًا بقبوله، وشأنه من التعلق والتطّارح شأنه، حتى يكمل القصد، ويتم الغرض، معمور الوقت بخدمة يرفعها، ودعاء يردده والله المستعان.

(١) التكملة لدى السلاوى ج ٤ ص ٣١.

وفى يوم الخميس سابع عشر من شعبان، من العام المؤرخ، ورد كتاب
فتح تلمسان، فأصدر ابن الخطيب إلى باب السلطان أبى سالم ما نصه:

مولاي فتاح الأقطار والأمصار، فائدة الزمان والأعصار، أثير هبات الله
الآمنة من الاعتصار، قدوة الأيدي والأبصار، ناصر الحق عند قعود الأنصار،
وهى طويلة انظرها فى الريحانة وبعدها قصيدة بديعة مطلعها^(١):

أطاع لسانى فى مديحك إحسانى وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان
ومن مخاطباته للحاجب ابن مرزوق^(٢):

سيدى، بل مالكى، بل شافعى، ومتشلى من الهفوة، ورافعى
وعاصمى عند تجويد حروف الصنائع، ونافعى الذى بجاهه أجزلت المنازل
قراى، وفضلت أولاي، والمنة لله أخراى، وأصبحت وقول الحسن^(٣) هجيراًى:

علقت بحبل من حبال محمد أمنت به من طارق الحدثان
تغطيت من دهرى بظل جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام ما اسمى ما درت وأين مكاني ما عرفن مكاني
وصلت مكناسة، حرسها الله تعالى، تحت غيث حذاني حذو نذاك،
وسحائب لولا الخصال المبرة قلت يداك، وكأن الوطن لاغتباطه بجوارى، وما
رآه من انتياب زوارى، وأوعز إلى بهت يقطع الطريق، وأطلق يده على
التغريق، وأشراق القوافل مع كثرة الماء بالريق، فلم يسع إلاّ المقام أياما،
قعودا فى البر وقياما، واختيارا لضروب الأئس واعتياما، ورأيت بلدة معارفها
أعلام، وهواؤها برد سلام، ومحاسنها تعمل فيها ألسنة وأقلام، فحيا الله

(١) أوردتها المقرئ فى نفح الطيب ج ٥ ص ٣٢ بأكملها.

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٠٤.

(٣) يعنى أبا نواس، والأبيات فى ديوانه: ٩٧.

سیدی، فلکم من فضل أفاد، وأنس أحياء وقد باد، وحفظ منه على الأيام
الذخر والعتاد، كما ملّكه زمام الكمال فاقتاد، وأنا أُنطّارح عليه في صلة
تفقده، وموالاته يده، بأن يسهمني في فرض مخاطباته مهما خاطب، معتبرا
من هذه الجهات، ويصحبني من مناصحته بكتّوس مسرة، يعمل فيها هاك
وهات فالعز بعزه معقود، والسعد بوجوده موجود، ومنهل السرور بسرور
مورود، والله عز وجل يبقيه ببقاء الدهر، ويجعل حبه وظيفة السر، وحمده
وظيفة الجهر، ويحفظ على الأيام من زمنه زين الدهر، ويصل لنا تحت إيلاته
العام بالعام والشهر بالشهر، آمين آمين . انتهى .

وقال رحمه الله :

حضرت يوما بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه،
لغرض الرسالة، وجرى ذكر بعض أعدائه، فقلت ما اعتقده في اطراء ذلك
العدو وما عرفته من فضله، وأنكر على بعض الحاضرين، ممن لا يحطب إلاّ
في جبل السلطان فصرفت وجهي وقلت: أيدكم الله! تحقير عدو السلطان بين
يديه ليس من السياسة في شيء، بل غير ذلك أحق وأولى، فإن كان السلطان
غالبا عدوه كان قد غلب غير حقير وهو الأولى بفخره، وجلالة قدره وإن
غلبه العدو لم يغلبه حقير فيكون أشد للحسرة وأوكد للفضيحة . فوافق رحمه
الله على ذلك واستحسنه وشكر عليه وخجل المعترض . انتهى .

ومن نظمه رحمه الله :

مكناسة جمعت بها زمر العدا	فمدى بريداً فيه ألف بريد
من واصل للصوم لا لرياضة	أو مدمن للجوع غير مريد
فإذا سلكت طريقها متصوفا	فابن السلوك بها على التجريد

ولما دخل رحمه الله مدينة آنفاً^(١)، ومر منها على دار عظيمة تنسب إلى والى جبايتها «عبو» من بنى الترجمان قارون قومه، وغنى صنفه قال^(٢):

قد مررنا بدار «عبو» الوالى وهى ثكلى تشكو صروف الليالى
أقصدت ربها الحوادث لما رشقته بصائبات نبال
كان بالأمس واليا مستطيلا وهو اليوم ما له من وال
ومن نظمه رحمه الله فى الشيخ ابن بطان الصنهاجى^(٣):

لله درك يا بن بطان فمما لشهير جودك فى البسيطة جاحد
إن كان فى الدنيا كريم واحد يزن الجميع فأت ذاك الواحد
أجريت فضلك جعفرأ يحيا به ما كان من مجد فذكرك خالد
فالقوم منك تجمعوا فى مفرد ولد كما شاء العلاء ووالد
وهى الليالى لا تزال صروفها يشقى بموقعها الكريم الماجد
وبمستعين الله يصلح منك ما قد كان أفسد الزمان الفاسد
وقال رحمه الله وقد انتابه البرغوث^(٤):

زحفت إلى ركائب البرغوث نم الظلام بركبها المحشوث
بالحبة السوداء قابل مقدمى لله أى قرى أعد خبيث

(١) فى المطبوع: «آنفى» والمثبت لدى المقرئ فى نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٣. وآنفاً: هى الدار البيضاء الحديثة فى المغرب.

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٤.

(٣) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٤.

(٤) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٤.

كسحت بهن ذباب سرح تجلدى ليلا فحبل الصبر جد رثيث
 إن صابرت نفسى أذاه تعبّدت أو صحت منه أنفت من تحنيثي
 جيشان من ليل وبرغوث فهل جيش الصباح لصرختي بمغيث
 ومن نظمه رحمه الله فى عثمان بن يحيى بن عمر بن روح^(١):

أسمى ذى النورين وجهك فى الوغى شمس الضحى حلت بليث عرين
 إن تفخر بمربين أرض العدو الـ قصوى فإنك أنت فخر مرين
 وقال يخاطب الوالى محمد بن حسون بن أبى العلاء، وصدر بها
 رسالة^(٢):

لم يبق لى جود الولاية حاجة فى الأمن أو فى الجاه أو فى المال
 بعد اللقاء أو لو الفضائل بغيتى وأريت هذا القصد شرط كمال
 أجملته وتشوفت لبيانه همم فكنت مفسر الإجمال
 وخصصت بالإلغاء غيرك غيره وجعلت ذكرك شاهد الأعمال
 أنسيت يا بن العلا قشب الملا وتركت أهل الأرض فى أسمال
 إن دوّن الفضلاء فضلا معلما فلقد أتيت عليه بالإكمال
 تشنى عليك رعية آمالها فى أن تفوز يداك بالآمال
 أرعيتها هملا فلم يطرق لها بمنيع سورك طارق الإهمال
 من كنت واليه تولته العلا ومن اطّرحت فما له من والى

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٥.

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٥.

وقال رحمه الله عند وقوفه على مراكش، واعتباره بما صار إليه أمرها^(١):

بلد قد غزاه صرف الليالى	وأباح المصون منه مبيع
فالذى خر من بناءه قتيل	والذى خر منه بعض جريح
وكان الذى يزور طبيب	قد تأتى له بها التشريح
أعجبت منه أربع ورسوم	كان قدما بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المغانى	وجمال أخفاه ذاك الضريح
وملوك تعبّدوا الدهر لما	أصبح الدهر وهو عبد صريح
دوخوا نازح البسيط حتى	قال ما شاء ذابل وصفيح
حيث شبت لهم من البأس نار	ثم هبت لهم من النصر ريح
أثر يندب المؤثر لما	طال بعد الدو منه النزوح
ساكن الدار روحها كيف يبقى	جسد بعد ما تولى الروح

وقال يخاطب عميد مراكش المتميز بالرأى والسياسة والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجافى عن مال الجباية، عامر لن محمد بن على بن الهتاتى:

تقول لى الأظعان والشوق فى الحشى	له الحكم يمضى بين ناه وآمر
إذا جبل التوحيد أصبحت فارعا	فخيم قرير العين فى دار عامر
وزر تربة المعلوم إن مزارها	هو الحج يفضى نحوه كل ضامر

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٨٥.

ستلقى بمثوى عامر بن محمد ثغور الأمانى من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوه من سعد وجهة ولله ما تلقاه من يمن طائر
وتستعمل الأمثال فى الدهر منكما بخير مزور أو بأغبط زائر

أقول: عامر بن محمد هذا هو قريع هنتاة وكانت له مع أبى الحسن
المرينى فى الوفاء أحاديث صححت عند أبى عنان وغيره متاته، ولم يزل فى
رياسته مدة أبى عنان ومن بعده من ملوك بنى مرين إلى زمن أبى فارس عبد
العزیز ابن أبى الحسن فنازله بجنوده، وحاصره بمعتقله حتى استولى عليه
وقتله .

وقد ساق أمره ابن خلدون واستوفاه، ومنعنى من الإتيان به ما حصل
من التطويل فى هذه الترجمة، وقد أشار إليه ابن الأحمر فى «نثر فرائد
الجمان» عند ما ذكر الشريف الشبوکی ونصه:

«صاحبنا الفقيه محمد بن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف يكنى
أبا عبد الله ويعرف بالشوكى، رأيت وصحبته، ونسبته حسبما نقلته من خطه
على متن كتاب، وأخبرنى هو به وسمعتة أيضاً بفاس من بعض الناس وهو
محمد بن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف بن عمران بن عبد الرحيم
ابن نوح بن شعيب بن على بن أبى محمد بن حيان بن فضل بن طاهر بن
مطهر بن حمود بن زياد بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى
الله عنه، ويعرف بالشبوکی. وشبوكة: قرية بينها وبين مدينة فاس ثلاثة
أميال؛ وأخبرنى أن جده عبد الرحيم أتى من المشرق إلى المغرب، واستوطن
بشبوكة وهو شريف ويوسف أبوه كان رحمه الله جميل الوجه جدا شاعرا
مجيدا فقيها وبرز عدلا فى سماط شهود فاس واستخدمه أمير المؤمنين المتوكل

على الله أبو عنان المرينى شاهداً فى دار صناعته، وأحمد والد يوسف كان فقيها صوفيا، ومحمد والد أحمد كان فقيها صالحا، ويوسف والد محمد كان فقيها عالما صالحا مكاشفا مجاب الدعوة، من أهل الطبقة العليا فى الصلاح، وأبو عبد الله كتب الوثيقة بشهود فاس.

حاله أكرمه الله:

هو فارس القريض، وحامل لوائه الطويل العريض، وله وجه وسيم، وحياء جسيم، وسمو همته لم يبلغ إنسان، ولم يسمع بمثلها فى سالف الأزمان، ويؤثر عزة نفسه على هواه، ويختار مهيع السمو على ما سواه، وأنشدنى لنفسه يمدح أمير المؤمنين أبا فارس عبد العزيز المرينى بعد قتل لوزيره المتغلب على أمره، عمر بن عبد الله بن على اليبانى وحرضه على قتال الشيخ أبى ثابت عامر بن محمد بن على الهنتاتى صاحب جبل هنتاتة، من حوز مراکش حين خرج عليه به، بالسلطان المعتمد على الله أبى الفضل محمد بن أخى السلطان عبد العزيز هذا:

أبان فى حبه ما قال عاذله	دمع جرى فوق صفح الخد هامله
فبات من وطأة التفريق ذا وجل	يستنجد الصبر عونا وهو خاذله
صب إذا ما بدا بالرقمتين له	وميض برق الحمى هاجت بلابله
يبكى لمنزل أنس بان أهله	وظاعن عنه عنه قد شطت منازل
يا حسن عصر بهم قضيته زمنا	رقت حواشيه إذ رقت أصائله
كأن صوب دموعى بعد بعدهم	سيب المليك إذا وافاه سائله
عبد العزيز الذى عزت بدولته	مراتب الحق والتاحت دلائله

وأصبح الملك فى أمن وفى دعة
عادت بعيد لنا نضارته
كالروض باكره طل على ظمأ
هو الإمام الذى من أمَّ ساحته
ومن تخلف جهلا عن إجابته
قل للذى عنه أفضته جرائمه
زر حضرة الملك الميمون طالعه
فطبعه الصفح والمعروف شيمته
أبلغ جميع العدا أن سوف يشملهم
هذا المليك أتاهم فى كتائبه
بكل خرق طويل الباع متئد
وجحفل فيه سمر الخط مشرعة
سيعلم الغمر عقبى ما جناه إذا
وحاط بالجلل البحر المحيط ولا
فانهض إليهم أمير المؤمنين فقد
من ذا ينزل جيشا أنت قائده
إلا ترى المارق الرعيد حين عتا
ظن الضنين بأن يسمو ويعلو فى
فغادرته الصعاد الزرق منجدلا
دنياه تضحك من أحواله عجبا
فليهن دين الهدى من بعد مدته

من الذى كان غالته غوائله
فعاد يافعا واشتد كاهله
وجاده بعد ذلك الطل وابله
جادت عليه بجدواها أنامله
سارت إليه على علم صواوله
وعقلته عن العليا معاقله
تحظ بما أنت فى دنياك آمله
والحلم والصون والتقوى شمائله
من الطُّبى كل ماضى الحد فاصله
لنسخ آجالهم تنضى رواحله
مقصر عمر من تلقى مناصله
قد حجبت أنجم الشعرى قساطله
كلت مواضيه وانفضت كلاكله
حت فوق أرؤسهم منه جداوله
أعطيت كل المنى فيما تحاوله
يوم الكريمة أو من ذا يناضله
وأضمر المكر صادته حبائله
دنيا سمت وعلت فيها بواطله
فوق الصعيد تناديه جنادله
به وفى الحى تبكيه أرامله
أن أنت يا ذا المحيا الطلق كافله

ينتصب قط فى الدنيا لواء علا إلا ومن آل عبد الحق حامله
 مولاي مولاي دم ما عشت مصطحبا علا وفخرا عزا لا تزايله
 إن سار جيشك فالتأييد يقدمه النصر عاجله يقفوه آجله
 انتهى كلام ابن الأحمر.

وأقارب هذا الشريف الشبوكى لم يزالوا إلى الآن ولهم مصاهرة مع
 ولينا الفقيه المحدث الحاج الرحال البركة، القدوة الصالح الناصح، أبى عبد
 الله سيدى محمد بن الولي الصالح سيدى أبى بكر بن محمد صاحب
 الدلاء^(١)، أبقى الله علاهم وأعانهم على ما أولاهم.
 ولنرجع إلى ابن الخطيب فنقول:

وقال رحمه الله^(٢) وقد شاهد بجبل هتاتة محل وفاة السلطان أبى
 الحسن المرينى، حيث أصابه طارق الأجل، الذى فصل الخطه، وأصمت
 الدعوة، ورفع المنازعة، وعائنه مرفها عن الابتذال بالسكنى، مفترشا
 بالحصباء، مقصوداً بالابتهال والدعاء، فلم يبرح يوم زيارة محل وفاته أن
 قال^(٣):

يا حسنهما من أربع وديار أضحت لباغى الأمن دار قرار

(١) فى متن المطبوع: «الدلاء» وبهامشه: «كذا وردت هذه الكلمة فى الأصلين ولم نفهم المراد
 منها، ولم نعرش على مرجع آخر لهذا الكلام المنقول عن ابن الأحمر، لنعارض به هذا
 النص».

قلت: فى متن نفح الطيب ج ٢ ص ٤٧٩: «... سيدى محمد بن أبى بكر الدلائى»
 وبحواشيه: نسبة إلى زاوية الدلاء، وهى زاوية أسسها أبو بكر بن محمد المجاطى، وكان
 لها دور كبير فى تاريخ المغرب سياسيا ودينيا وعلميا، وقد وضع هذا الدور الأستاذ
 محمد حجى فى كتابه: «الزاوية الدلائية» الرباط: ١٩٦٤؛ ومحمد بن أبى بكر المذكور
 هنا هو من أعظم شيوخها، وكان عالماً بالتفسير والحديث والكلام (انظر الاستقصا ٦:
 ٩٦ والزاوية الدلائية: ٧٦) وقد كان للمقرى علاقة وثيقة بالزاوية الدلائية إذ أنه أقام مدة
 فيها ودرس الحديث على محمد بن أبى بكر»..

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٢١٧.

(٣) نفح الطيب ج ٦ ص ٢١٧.

وجبال عز لا تذلل أنوفها
ومقر توحيد وأس خلافة
ما كنت أحسب أن أنهار الندى
ما كنت أحسب أن أنوار الحجا
مَجَّت جوانبها البرود وإن تكن
هدت بناها سبيل وفائها
لما توعدّها على المجد العدا
عمرت بِجِلَّةٍ عامر وأعزها
فرسا رهان أحرزا قصب الندى
وَرِثًا عن الندب الكبير أبيهما
وكذا الفروع تطول وهى شبيهة
أزرت وجوه الصيد من هتاتة
لله أى قبيلة تركت لها
نصرت أمير المؤمنين وملكه
وارت عليا عندما ذهب الردى
تخاذل الجيش اللهم وأصبح الـ
كفرت صنائعه فيمم دارها
وأقام بين ظهورها لا يتقى
فكأنها الأنصار لما أُنْسَتْ
لما غدا لحظا وهم أجفانه

إلا لعز الواحد القهار
آثارها تنبى عن الأخبار
تجرى بها جملة الأنهار
تلتاح فى قنن وفى أحجار
شبت بها الأعداء جذوة نار
فكأنها صرعى بغير عقار
رضيت بعيث النار لا بالعار
عبد العزيز بمرهف بتار
والبأس فى طلق وفى مضمار
محض الوفاء ورفعة المقدار
بالأصل فى ورق وفى أثمار
فى جوها بمطالع الأقمار
المنظراء دعوى الفخر يوم فخر
قد أسلمته عزائم الأنصار
والروح بالأسماع والأبصار
أبطال بين تقاعد وفرار
مستظهرها منها بعز جوار
وقع الردى وقد ارتقى بشار
فيما تقدم غربة المختار
نابت شفاهم عن الأشفار

حتى دعاه الله بين بيوتهم
 لو كان يمنع من قضاء الله ما
 قد كان يأمل أن يكافئ بعض ما
 ما كان يقنعه لو امتد المدى
 فيعيد ذلك الماء ذائب فضة
 حتى تفوز على النوى أوطانها
 حتى يلوح على وجوه وجوههم
 ويسوغ الأمل القصى كرامها
 ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجى
 أو أن يتوج أو يقلد هامها
 حق على المولى ابنه إيثار ما
 فلمثلها ذخر الجزاء ومثله
 وهو الذى يقضى الديون وبره
 حتى تحج محلة رفعوا بها
 فيصير منها البيت بيتا ثانيا
 تغنى قلوب القوم عن هدى به
 حييت من دار تكفل سعيها الـ
 وضفت عليك من الإله عناية
 فأجاب ممتثلا لأمر البارى
 خلصت إليه نوافذ الأقدار
 أولوه لولا قاطع الأعمار
 إلا القيام بحقها من دار
 ويعيد ذاك الترب ذوب نضار
 من ملكه بحلائل الأوطار
 أثر العناية ساطع الأنوار
 من غير ما ثنيا ولا استعصار
 عن درهم فيهم ولا دينار
 ونحورها بأهله ودرارى
 بذلوه من نصر ومن إيثار
 من لا يضيع صنائع الأحرار
 يرضيه فى علن وفى إسرار
 علم الوفاء لأعين النظار
 للطائفين إليه أى بدار
 ودموعهم تكفى لرمى جمار
 محمود بالزلفى وعقبى الدار
 ما كَرَّ ليل فيك إثر نهار

وقال رحمه الله، حين زار بخارج أغمات قبر المعتمد بالله أبى القاسم ابن عباد، أمير حمص وقرطبة والجزيرة، وما إلى ذلك الصقع الغربى، ونصه كلامه الذى رتبته فى ذلك أنه قال:

وقفت على قبر المعتمد بالله بمدينة أغمات، فى حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية، باعثها لقاء الصالحين، ومشاهدة الآثار عام واحد وستين وسبع مئة، وهو بمقبرة أغمات، فى نشز من الأرض، قد حفت به سدره، وإلى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك، وعليهما هيئة التغرب، ومعانة الخمول من بعد الملك، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما، فأنشدت فى الحال^(١):

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات	رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا	ويا سراج الليالى المدلهمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه	إلى حياتى لجادت فيه أبياتى
أناف قبرك فى هضب يميزه	فتتحيه حفيات التحيات
كرمت حيا وميتا واشتهرت علا	فأنت سلطان أحياء وأموات
مارئ مثلك فى ماض ومعتقدى	أن لا يرى الدهر فى حال ولا آتى

وقال رحمه الله مخاطبا أحمد بن يوسف حفيد الولى الصالح سيدى أبى محمد صالح النائم فى ظل صيته رحمهم الله:

يا حفيد الولى يا وارث الفخ	ر الذى نال مقال وحال
لك يا أحمد بن يوسف جينا	كل قفر يعنى أكف الرحال

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٩٥.

ولما خرج رحمه الله من آسفَى سار إلى منزل ينسب لأبى خدو؛ فيه
رجل من بنى المنسوب إليه، اسمه يعقوب، قال فى نُفاضة الجراب، فألطف
وأجزل وأنس فى الليل، وطلبنى بتذكرة تثبت عندى معرفته، فكتبت له:

نزلنا على يعقوب نجل أبى خدو فعرفنا الفضل الذى ما له حدثنى
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى فلم يبق لحم لم ننله ولا زبد
يحق علينا أن نقوم بحقه ويلقاه منا البر والشكر والحمد
وقال يخاطب السلطان:

أنت للمسلمين خير عماد وملاذ وأى حرز حريز
لو رأى ما شرعت للخلق فيه عمر الفاضل ابن عبد العزيز
لجرى ملكك المبارك خيرا وقصى بالشفوف والتبريز
فاشكر الله ما استطعت بفعل وبقول مطول أو وجيز
كل ملك يرى بصحبة أهل الـ علم قد باء بالمحل العزيز
فإذا ما ظفرت منهم بإكسيه ر ملأت البلاد من إيريز
والبرايا تبيد والملك يفنى أين كسرى الملوك مع أبرويز

وقال: أنشدت ابنى عبد الله وقد وصل لزيارتى من الباب السلطانى
حيث جرايته ووظيفته وانجر حديثما فقد بغرناطة فى شجون الكلام:

يا بنى عبد الإله احتسابا عن أثاث ومنزل وعقار
كيف يأسى على خسارة جزء من يرى الكل فى سبيل الخسار
هدف لا تنى سهام الليالى عن سباق تجاهه وبدار

واحد طائش وثمان مصيب ليس ينجى منها اشتمال حذار
غير ذى الدار صرف الهم فيها فمناخ الرحيل ليس بدار
وقال: أنشدته وأمرته بحفظه، والتأدب به، واللهج بحكمته:

إذا ذهبت بيمينك لا تضيع زمانك فى البكاء على المصيبه
ويسراك اغتنم فالقوس ترمى وما تدرى أرشقتها قريبه
وما بغريبة نوب الليالى ولكن النجاة هى الغريبه
وقال رحمه الله:

يأهل هذا القطر ساعده القطر بليت فدلونى لمن يرفع الأمر
تشاغل بالدينيا ونمت مفرطا وفى شغلى أو نومتى سرق العمر
وقال رحمه الله:

مالى أذهب نفسى فى مطالبها والنفس تأنف تهذيبى وتهذى بى
إذا استعنت على دهرى بتجربة تأبى المقادير تجريبى وتجرى بى
وقال رحمه الله موريا حين أكل مشرف الدار القابض، أى أخذ ماله:

مشرف دار الملك ما باله متفخ الجوف شكا نافضا
فقيل لى ليس به علة لكنه قد أكل القابضا
وقال رحمه الله:

يا نفس لا تصغى إلى سلوة كم أخلف الموعد عرقوب
وأنت يا قلبى وصاك إبـ راهيم بالحزن ويعقوب

قال: وقلت فى رأس الغادر بالدولة حين عرض على:

فى غير حفظ الله من هامة هام بها الشيطان فى كل واد
ما تركت حمدا ولا رحمة فى فم إنسان ولا فى فؤاد
وقال رحمه الله:

يا كوكب الحسن يا معناه يا قمره يا روضه المتناهى الربيع يا ثمره
أمرتني بسلو عنك ممتنع مأمور حسنك لما يقض ما أمره
وقال رحمه الله فى السعيد أبى بكر ابن السلطان أبى عنان:

أميرا كأن قمير الدجى أفاض الضياء على صفحتيه
تملاً قلبى من حبه غداة نظرت بعينى إليه
فلا بسط الدهر كف الردى لذاك الشخيص وذاك الوجيه

وقال عندما انصرف عنه ابنه إلى مدينة فاس، لإقامة رسمه من الخدمة

قال: وأشجاني انصرافه لوقوع قرحه على قرح، والمستعان الله:

بان اليوم الخميس قرة عينى حسبى الله أى موقف بين
لو جنى موقف النوى حين حى حان يوم الوداع والله حينى
ضايقنى صروف هذى الليالى وأطالت همى وأولت بدينى
وطن نازح وشمل شتيت كيف يبقى معذب بين ذين؟
يا الهى أدرك بلطفك ضعفى إن ما أشتكيه ليس بهين

قال: وخاطبت السيادة الخطيبية مع طيفور طعام:

تعلم طيفورى خلال سميّه وإن كان منسوباً إلى غير بسطام
وجاء فقير الوقت لابس خرقة فليس براص غير صحبة صوام
فديتك لا تردده عنك مخيباً ودرسه يا مولاي قصة بلعام

قال: وكتبت إلى السيادة الخطيبية ووصل ولدها إلى سلا، ومنعني عن
لقائه عذر من مرض، وكان نزوله بزاوية النساك:

صدني عن لقاء فجلك عذر يمنع الجسم عن تمام العباده
واختصرت القرى لأن حظ رحلا فى محل الغنى ودار الزهاده
ولو أنى احتفلت لم يعن الدهر رولا نلت بعض بعض أراده
وعلى كل حالة فقصورى عادة إذ قبورك العذر عاده
لا عدمت الرضا من الله والحسد نى كما نص وحيه والزيادة

وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبى الحسن بشالة، لاستنهاض عزيمته
فى قضاء غرضه^(١):

برئت لله من حولى ومن حيلى إن نام عنى وكَيِّ فهو خير ولى
أصبحت مالى من عطف أوّمله من غيره فى مهمات ولا بدل
ما كنت أحسب أن أرمى بقاصية للهجر أقطع فيها جانب الأمل
من بعد ما خلصت نحوى الشفاعة ما بين الفلا والدجى والبيض والأسل
إن كنت لست بأهل للذى طمحت إليه نفسى وأهوى نحوه أملى

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٩٧.

فكيف يلغى ولا ترعى وسيلته
من بعد ما اشتهرت حالى به وسرت
والرسل تترى ولا تخفى نتائجها
ولا ليلى من صبح أطالعه
لو أننى يا بن مرزوق عقدت يدى
لكان ركبى قد أفضى إلى فرج
ألممت بالعتب لم أحذر مواقعه
ولست أجحد ما خولت من نعم
ولست أياس من وعد وعدت به

وقال رحمه الله يخاطب السلطان أبا الحجاج (١):

أمولاي إنَّ الشعر ديوان حكمة
وقد وجد المختار فى الحفل منصتا
وفيما رواه الناقلون وأثبتوا
وأن عليا قدس الله جمعهم
بأن أبا بكر خليفته الرضا
لهم فى ضروب القول إذ هم فحوله
وفاض على أهل القريض نوالهم
وأنت أحق الناس أن تفعل التى

يفيد الغنى والعز والجاه من كانا
له وحباً كعباً عليه وحسانا
بذلك ديوانا صحيحاً فديوانا
وكرمنا بالقرب منهم وحيانا
وفاروق الأدنى إليه وعثمانا
خطاب وشعر يستقران تبياناً
فروض روض القول سحا وتهتاناً
بها فعل المختار ديناً وإيماناً

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٩٧.

فما زلت تهدى فى البرية هديه وتفضى بما يرضيه سرا وإعلانا
وإن قيل قدر المرء ما هو محسن فصنعة نظم القول أرفعه شانا
وقال رحمه الله فى فن التورية^(١):
بنفسى حبيب فى ثنياه «بارق» ولكنها للواردين عذاب
إذا كان لى منه الوصل «حاجر» فمعى «عقيق» بالجفون مذاب
وقال^(٢):
عذبت قلبى بالهوى فقيامه فى نار هجرى دائما وقعوده
ولقد عهدت القلب وهو موحد فعلام يقضى فى العذاب خلوده
وقال فى التجنيس^(٣):
دعوتك للود الذى جنباته تداعت مبانيها وهمت بأن تهى
وقلت لعهد الوصل والقرب بعدما تنأى أسلو عن حياتى وأنت هى
ومن شام من جو الشيبة بارقا ولم تنهه عنه النهى كيف ينتهى؟
وقال أيضا^(٤):
ناديت دمعى إذ جد الرحيل بهم والقلب من فرق التوديع قد وجبا
سقطت يا دمع من عينى غداة نأى عنى الحبيب ولم تقض الذى وجبا

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٩٨ .

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٩٨ .

(٣) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٩٨ .

(٤) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٩٨ .

وقال موريا:

كتبت بدمع عيني صفح خدى وقد منع الكرى هجر الخليل
وراب الحاضرين فقلت هذا كتاب العين ينسب للخليل
وتذكرت بهذا قول الشيخ أبى حيان:

سبق الدمع بالمسير المطايا إذ نوى من أحب عنى نقله
وأجاد السطور فى صفحة الخد ولم لا يجيد وهو ابن مقله
والبيت الثانى أردت، ولكن ابن الخطيب قد قصد تورية أخرى لم
يقصدها أبو حيان، وكلاهما قد أحسن فى توريته.

وقال ابن الخطيب:

ولما رأت عزمى حثيثاً على السرى وقد رابها صبرى على موقف البين
أت بصحاح الجوهري دموعها فعارضت من دمعى بمختصر العين
وقال أيضاً:

بحق ما بيننا يا ساكنى القصبه ردوا على حياتى فهى مغتصبه
ماذا جنيتم على قلبى ببينكم وأنتم الأهل والأحباب والعصبه
وقال عفا الله عنه:

مضجعى فيك عن قتادة يروى وروى عن أبى الزناد فـؤادى
وكذا النوم شاعر فيك أمسى من دموعى يهيم فى كل وادى

وقال رحمه الله^(١):

حين ساروا عني وقد خنقتني عَبَرَاتٍ قد أعربت عن ولوعي
صَحْتُ من ينصر الغريب فلما لم أجد ناصرا بلغت دموعي
وقال عفا الله عنه^(٢):

قال لي والدموع تنهل سحبا في عراض^(٣) من الخدود محول
بك ما بي فقلت مولاي عافا لك المعافى من عبرتي ونحولي
أنا جفني القريح يروى عن الأعمش والجفن منك عن مكحول
وقال، وقد جلس السلطان في يوم شديد البرد للسلام^(٤):

جلس المولى لتسليم الورى ولفصل البرد في الجو احتكام
فإذا ما سألوا عن يومنا قلت هذا اليوم برد وسلام
وقال رحمه الله تعالى^(٥):

بأبى بدر غـ زانى مستبيحا سرح صدرى
فأنا اليوم شهيد الـ حب من غـ زوة بدر

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٥٠١ .

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٥٠١ .

(٣) تحرف في المطبوع إلى: «عراض» بالضاد المعجمة وصوابه لدى المؤلف في نفح الطيب .

(٤) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٧٠ .

(٥) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٧٠ .

وقال (١):

أشكوا لمبسمه الحريق وقد حمى عنى لماه المشتهى ورحيقه
يا ريقه حيرتنى ومطلتنى ما أنت إلا بارد يا ريقه
وقال فيمن ركب البحر وماد (٢):

ركب السفينة واستقل بأفقها فكأنما ركب الهلال الفرقد
وشكو إليه بميده فأجبتهم لا غرو أن ماد القضيب الأملد
وقال أيضاً:

يا مالكى بخلال تهدى إلى الفكر حيره
أضرمتم قلبى نارا يا مالك بن نويرة
وقال عندما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجها إلى الأندلس
لطلب حقه:

ولما حثت السير والله حاكم لملكك فى الدنيا بعز وفى الأخرى
حكى فرس الشطرنج طرفك لا يرى ينقل من بيضاء إلا إلى حمرا
وقال رحمه الله تعالى:

تعجلت وخط الشيب فى زمن الصبا لخوضى غمار الهم فى طلب المجد
فهما رأيتم شيبة فى مفارقي فلا تنكروها إنها شيبة الحمد

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٥٠١.

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٧٠.

وقال رضى الله عنه :

يا من تقلد للعلاء سلوكا والفضل أضحى نهجه سلوكا
كاتبتنى متفضلا فملكتنى لا زلت منك مكاتبا مملوكا
وقال عفا الله عنه :

أجاد يراع الحسن خط عذاره وأودعه السر المصون الذى يدرى
ولم يفتقر فيه لختم وطابع فمبسمه أغناه عن طابع السر
وقال فى رجل حلف وأقسم أنه ذو مال وأمانة، وطلب من السلطان
الخدمة :

حلفت لهم بأنك ذو يسار وذو ثقة وبر فى اليمين
ليستندوا إليك بحفظ مال فتأكل باليسار وباليمين
وقال فى الفخر :

ما ضرنى أن لم أكن متقدما فالسبق يعرف آخر المضمار
ولئن غدا ربع البلاغة بلقعا فلرب كنز فى أساس جدار
وقال فى مديح السلطان أبى الحجاج :

فى مصر قلبى من خزائن يوسف حب وعير مدائحى تمتاره
حليت شعرى باسمه فكأنه فى كل قطر حله ديناره
وقال يخاطب ابنه السلطان أبا عبد الله :

قالوا لخدمته دعاك محمد فكرتها وزهدت فى التنويه
فأجبتهم أنا والمهيمن كاره فى خدمة المولى محب فيه

ومن قوله فى غرناطة^(١):

أحييك يا معنى الكمال بواجب وأقطع فى أوصافك الغر أوقاتى
تقسم منك الترب قومى وجيرتى ففى الظهر أحيائى وفى البطن أمواتى
وقال فى غرض ينحو به نحو المشاركة:

رموا بالسلو حليف الغرام وأدمعه كالحيا الهاطل
أعوذ بعزك يا سيدى لذلى من دعوة الباطل
وقال أيضا:

يا ليل طلت ولم تجد بتبسم وأريتنى خلق العبوس النادم
هلا رحمت تغربى وتفرقى لله ما أقساك يا بن الخادم
وقال فى سكين الأضاحى للسلطان أبى الحجاج رحمه الله:

لى الفضل أن شاهدتنى واختبرتنى على كل مصقول الغرارين مرهف
كفانى فخرا أن ترانى قائما بسنة إبراهيم فى كف يوسف
وقال فى مروحة سلطانية:

كأنى قوس الشمس عند طلوعها وقد قدمت من قلبها نسمة الفجر
وإلا كما هبت بمحتم الوغى بنصر ولكن من بنود بنى نصر
وقال يخاطب شيخه ابن الجياب:

بين السهام وبين كتبك نسبة فيها يصاب من العدو المقتل

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٥٠٣ .

وإذا أردت لها زيادة نسبة هذى وهذى فى الكنانة تجعل
وقال يتغزل وفيه معنى غريب :

إن اللحاظ هى السيوف حقيقة ومن استراب فحجتى تكفيه
لم يدع غمد السيف جفنا باطلا إلا لشبه اللحظ يغمد فيه
قيل أحسن منه قول غيره :

إنَّ العيون النجل أمضى موقعا من كل هندی وكل يمان
فضل العيون على السيوف بأنها قتلت ولم تخرج من الأجفان
وأصل ما قاله ابن الخطيب قول الآخر :

بين السيوف وعينيه مشاركة من أجلها قيل للأعماد أجفان
وقال ابن الخطيب أيضاً فى البراغيث^(١) :

بتنا نظارح هم القحط ليلتنا وأيد السهد والكرب البراغيثا
وكان يحمد ما كنا نكابده من المشقة لو أن البراغيثا
وقال خالد البلوى صاحب الرحلة وقد استكثر من سرقة كتاب «البرق
الشامى» للعماد الأصبهاني :

خليلى إن يلف اجتماع بخالد فقولاً له قولاً ولن تعدوا الحقا
سرت العماد الأصبهاني برقة وكيف ترى فى شاعر سرق البرقا؟

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٧٤ .

وقال فى المنجاة :

تأمل فى المنجان منقطعا
والله لو كان وادى الرمل ينجده
يجرى وقدره عمرا منك متتها
ما كان كامله إلا وقد ذهبها
وقال :

أقول لعاذلى لما نهانى
علمت بأنه مر التجنى
وقد وجد المقالة إذ جفانى
وفاتك أنه حلو اللسان
وقال فى غرض صوفى :

لا تنكروا أن كنت قد أحببتكم
طوعا وكرها ما ترون فلانى
أو أننى استولى على هواكم
طففت الوجود فما وجدت سواكم
وقال يمدح وفيه تورية :

وإن نظرت إلى لآلاء غُـرته
ونسب إليه الحافظ أبو على التنسى رحمه الله ، قصيدة يخرج منها أكثر
من ثلاث مئة بيت ، ونسبها غير التنسى إلى بعض المشاركة ، فالله أعلم ،
وهى :

داء ثوى بفؤادى شَفَّه سقم
بأضلعى لهب تذكو شرارته
لمحتتى من دواعى الهم والكمـد
من الضنى فى محل الروح من جسدى
وحرقتى وبلائى فيه بالرصد
مع العنا قد رثى لى فيه ذو الحسد
أصل الهوى ملبسى وجدا به عدم
لمهجتى من رشا بالحسن منفرد

تبعى وجه من تزهو نضارته إذا انثنى قاتلى عمدا بلا قود
مهدى الجوى مولع بالهجر منتقم ما حيلتى قد كوى قلبى مع الكبد
لمصرعى معتد تحلو مرارته يا قومنا آخذ نحو الردى بيدى
قلبى كوى ملك فى النفس محتكم لقصتى فهو سؤلى وهو معتمدى
مروعى قمر تسبى إشارته إذا رنا ساطع الأنوار فى البلد
هد القوى حسن كالبدر مبتسم لفتتى موهن عند النوى جلدى
مودعى النار قد شبت زيارته لما جنى مورثى وجدا مع الأبد
قلت: وعندى أنها بعيدة من نفس ابن الخطيب مع أن الحافظ التنسى
نسبها له، وغيره لبعض المشاركة، وذكر التنسى أنه يخرج منها ثلاث مئة بيت
ونيف ستون بيتا والله ولى التوفيق.

ثم وقفت بعد هذا على كراسة من بعض تأليف الصفدى بخطه، عبر
فيها أنها لبعض المشاركة، وأورد القطعة مع تقديم وتأخير، فأردت أن أذكره
إتماما للفائدة ونصه:

صالح بن أحمد بن عثمان صلاح الدين القواس الشاعر الخلاطى ثم
البلعبكى توفى سنة ثلاث وعشرين وسبع مائة، كان رجلاً خيراً متواضعاً
صحب الفقراء، وسافر الكثير، وكان يعبر الرؤيا، قال الصفدى: أنشدنى من
لفظه الشيخ الحافظ الذهبى قال: أنشدنى المذكور قصيدته السائرة ذات الأوزان
وهى:

داء ثوى بفؤادى شفه سقم لمحتتى من دواعى الهم والكمند
بأضلعى لهب تذكو شرارته من الضنى فى محل الروح من جسدى

يوم النوى ظل النوى فى قلبى به ألم
 توجعى من جوى شبت حرارته
 أصل الهوى ملبسى وجدا به عدم
 تتبعى وجه من تزهو نضارته
 هد القوى حسن كالبدر مبتسم
 مروعى قمر تسبى إشارته
 مهدي الجوى مولع بالهجر منتقم
 لمصرعى معتد تخلو مرارته
 قلبى كوى ملك فى النفس محتم
 مولعى النار قد شطت زيارته
 قال الصفدى: قلت: هذه القصيدة تقرأ على ثلاث مئة وستين وجها.

وقال فى المشيب:

أنى لمثلئى بالهوى من بعدما
 لبس البياض وحل ذروة منبر
 للوخط بالفودين أى دبيب
 منى ووالى الوعظ فعل خطيب
 وكتب ببعض الحيطان لما أجاز بسبته:

أقمنا برهة ثم ارتحلنا
 وكل بداية فإلى انتهاء
 كذلك الدهر حالا بعد حال
 وكل إقامة فإلى ارتحال
 ومن سام الزمان دوام أمر
 فقد وقف الرجاء على المحال

وقد قدمنا بعض هذه المقطوعات على غير هذا الوجه .

وقال مما يكتب فى طاق الماء بباب القبة :

أنا طاق تزهو بى الأيام	تعبت فى بدائعى الأفهام
وتبديت للنواظر محرا	بأ كَأَن الإناء فى إمام
واقف للصلاة حتى إذا ما	جئت للشراب حان منى السلام

وقال فى ذلك أيضاً :

يا صانعى الله ما أحكمته	فلأنت بين العالمين رئيس
أحكمت تاجى يوم صغت رقوشه	فصبت إليه مفارق ورءوس
وأقمت فى محرابه فكأنه	مجلى إناء الماء فيه عروس

وكتب إليه شيخه ابن الجياب بقوله :

أيا كتابى إذا ما جئت مالقة	دار المكارم من ثنى ووحدان
فلا تسلم على ربع بذى سلم	بها وسلم على الربع لسلمان

فأجابه ابن الخطيب بقوله :

يا ليت شعرى هل يقضى تألفنا	ويثنى الشوق عن غاياته الثانى
أو هل يحن على نفسى معذبها	أو هل يرق لقلبى قلبى الثانى

وقال رحمه الله :

عد عن كيت وكيت	ما عليها غير ميت
كيف ترجى حالة البق	يا لمصباح وزيت

وقال رحمه الله :

والله ما جان على ماله أو جاهد من ذاد عن عرضه
والناس فى خير وفى ضده هم شهداء الله فى أرضه
وقال رحمه الله : ومما قلته من الموشحات التى انفرد باختراعها
الأندلسيون وطمس الآن رسمها :

رب ليل ظفرت بالبدر ونجوم السماء لم تدر

حفظ الله ليلنا ورعى

أى شمل من الهوى جمعا

غفل الدهر والرقيب معا

ليت نهر النهار لم يجر حكم الله لى على الفجر

علل النفس يا أخوا العرب

بحيث أحلى من الضرب

فى هوى من وصاله أربى

كلما مر ذكر من تدرى قلت يا برده على صدرى

صاح لا تهتم بأمر غد

وأجز صرفها يدا بيد

بين نهر وبلبل غرد

وغصون تيد من سكر أعلنت يا غمام بالشكر

يا مرادى ومنتهى أملى
هاتها عسجدية الحلل
حلت الشمس منزل الحمل
وينود الربيع فى نشر
والصبا عنبرية النشر
غرة الصبح هذه وضحت
وقيان الغصون قد صدحت
وكأن الصبا إذا نفحت
وهفا طيبها عن الحصر
مدحة فى علا بنى نصر
هم ملوك الورى بلا ثنيا
مهدوا الدين زينوا الدنيا
وحمى الله منهم العليا
بالإمام المرفع الخطر
والغمام المبارك القطر
إنما يوسف إمام هدى
حاز فى المعلومات كل مدى
قل لدهر بملكه سعدا
افتخر جملة على الدهر
كافتخار الربيع بالزهر
يا عماد العلا والمجد
أطلع العيد طالع السعد
ووفى الفتح فيه بالوعد

وتجلت فيه على القصر غرر من طلائع النصر

فتنهأ من حسنه البهج

بحياة النفوس والمهج

واستمعها ودع مقال شجى

قسما بالهوى لذى حجر ما ليل المشوق من فجر

ومن بديع موشحاته رحمه الله قوله :

كم ليوم الفراق من غصه فى فؤاد العميد

نرفع الأمر فيه والقصة للمولى الحميد

رحل الركب يقطع البيدا بسفين النياق

كل وجناء تتلع الجيـدا وتبـذ الرفاق

حسبت ليلة اللقا عيدا فهى ذات اشتياق

صائمات لا تقبل الرخصة قبل فطر وعيد

فهى مذ أملتة مختصة بجهاد جهيد

ومنها وهو آخرها :

يا إمام العلا والفخر ذا السنا المبـهج

هاكها لا عدمت فى الدهر آمـلا يرتجى

عارضت قول بائع التمر بمقـال شج

غربوك الجمال يا حفصة من مكان بعيد

من سـجلماسة ومن قفـصة وبلاد الجـريد

ومن بديع نظمه رحمه الله في مدح المصطفى ﷺ هذه القصيدة المشهورة

وهي:

سل ما لسلمى بنار الهجر تكوينى	وحبها فى الحشى من قبل تكوينى
وفى معناها تمنيت المنى فغدا	تغلبى كئيبا ببلواه يناعينى
وفى قباب قبا قامت لنا بقبا	طرازها مذهب فى حسن تزيين
لما انثنت فى الحلى تزهو بيهجتها	وبالغزالة تزرى والسراحين
لما تفننت فى أفنان قامتها	تفنت بفنون الصد تفينى
ويحسب الصب يسلىنى محبتها	هيهات لو أن جم النار يصلىنى
النار فى كبدى والشوق يقلبنى	والقرب ينشرنى والبعد يطوينى
وركن صبرى تخلى فى الغرام وقد	تمكن الحب فى أى تمكين
وقد رأيت مسيرى عز مطلبه	والطرف والظرف يبكىنى ويكونى
حالى لرفع الضم منجزم	بالكسر عل برشف الضم تحيينى
يا صاح عج بالحمى وانزل بهم سحرًا	وانظر لعجب أثلاث البساتين
وفوق سفح عقيق الدمع عج لترى	جآذر الحى بين الخرد العين
ومل على أثلاث ألبان منعطفًا	وحى سلعا وسل عن حال مسكين
ثم أت جزعًا وجز عن حى كاظمة	واقراً السلام على خير النبيين
محمد المصطفى المختار من ظهرت	آياته فتسلى كل محزون
من خصه الله بالقرآن معجزة	ما نالها مرسل قد جاء بالدين
ومن شهاب بدا من نوره رجمت	شهب الدياجى رجوما للشياطين

وفوق راحته صم الحصى نطقت
وهو الذى اختاره البارى وأرسله
إنَّ سار فى الرمل لم يظهر أثر
كأنَّ بالرمل ما بالصخر من جلد
وفى الصحيحين أنَّ الجذع حن له
وقد سمعنا بأن الطير خاطبه
والظبى والضب جاءا يشهدان بأن
فكيف أحسن مدحا فى محاسنه
أقبل الأرض إجلالا لهيبته
وقد أقول ابن حمدان أتى
يا أكرم الخلق من عرب ومن عجم
إنى أتيتك فاقبلنى بىدى
وقد مدحتك فارحمنى وجد فعسى
وكن شفيعى من النيران يا أملئ
صلى عليك إله العرش ما صدحت
صلى عليك إله العرش ما غردت
صلى عليك إله العرش ما وفدت
صلى عليك إله العرش ما هطلت
صلى عليك إله العرش ما ضحكت

والماء من كفه يزرى بجيحون
برا رءوفاً رحيماً بالمساكين
وإنَّ علا الصخر كالطين
شوقا وبالصخر ما بالرمل من لين
والعذق أنَّ إليه أى تأنين
فى منطق مفصح من غير تلكين
لا شىء أعظم من طه ويسين
لكن لى قبولا منه يكفينى
وألثم الترب عل الوصل يحيينى
منديا بفؤاد منه محزون
وأحسن الناس من حسن وتزيين
ومن لهيب لظى وسجين
من هول يوم اللقاء والحشر تنجينى
ولعل أحظى بأجر غير ممنون
قُمرية فوق أفنان الرياحين
حمائم فوق أغصان البساتين
نويقة لحمى الأطلال تبرينى
مدامع السحب أو عين المحبين
مباسم الزهر فى ثغر الأفانين

وَأَلْفُ أَلْفِ صَلَاةٍ لَا نَفَادَ لَهَا مضروبة في ثمان ألف تسعين
عليك يا خير خلق الله قاطبة وألف ألف سلام في ثمانين
وَأَلْكُ الْغَرِّ وَالْأَصْحَابِ كُلِّهِمْ وتابعيهم ليوم الحشر والدين
ما عطر الروض في الأسحار صبا وفاح نشر خزامى منه نسرين
وما شدا منشد صب لفرط جوى سل ما لسلمى بنار الهجر تكويني
وقال رحمه الله :

لبسنا فلم نبل الزمان وأبلانا يتابع أخرانا على الغى أولانا
ونغتر بالآمال والعمر ينقضى فما كان بالرجعى إلى الله أولانا
وماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسى فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانا
جزينا صنيع الله شر جزائه فلم نرُع ما من سابق الفضل أولانا
فيا رب عاملنا بما أنت أهله من العفو واجبر صدعنا أنت مولانا
انتهى .

ولنقتصر من نظمه على هذا القدر، فانه طويل عريض، وإنما أطلت
النفس في ترجمة ابن الخطيب، رحمه الله، علما منى بأن الذين رغبوا في
تأليف هذا الموضوع، لهم تشوف إلى أنباء ابن الخطيب، وكلامه وجلية أحواله
ليست عندهم، وإنما يحفظون بعض نظمه ونشره، ولا يدرون ابتداء أمره
وانتهاءه، وقد حكى غير واحد أنه رىء رحمه الله بعد موته، فقليل له : ما
فعل الله بك؟ فقال: غفر لى بسبب بيتين، وهما:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكون لم تفتح له أغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعد ما أثنى على أخلاقك الخلاق
وقد رأيت على هذين البيتين تخميسا لا بأس به، لأبي عبد الله بن
جابر الغساني المكناسي، رحمه الله، وهو:

يا سائر لضريح خير العالم ينتهي إليه مقال صب هائم
بالله ناد وقل مقالة عالم يا مصطفى من قبل نشأة آدم
والكون لم تفتح له إغلاق
بثناك قد شهدت ملائكة السما والله قد صلى عليك وسلمما
يا مجتبي ومعظماً ومكرماً أيروم مخلوق ثناءك بعد ما
أثنى على أخلاقك الخلاق
انتهى .

وأولاد ابن الخطيب رحمه الله ثلاثة: عبد الله، ومحمد، وعلي.
وكلهم حدث عن أبيه وعن ابن الجياب، وعلي منهم هو صاحب السلطان
أحمد المريني الملقب بالمستنصر.

وحكى أنه حضر معه في بستان، سح فيه ماء المذاكرة الهتان؛ وقد أبدى
الأصيل شواهد الاصفرار، وأزمع النهار لما قدم الليل على الفرار؛ فقال
المستنصر لما لأن جانبه، وسالت بين سرحان البستان جداوله ومذانبه:

يا فاسِ إِنِّي وَآيِمُ اللهُ ذُو شَغْفٍ فى كل ربع له معناه يسببى
وقد أنست بقرب منك يا أُملى ونظرة فيكم بالأنس تحيى
فأجابه على بن الخطيب بقوله العذب المصيب:

لا أوحش الله ربعا أنت زائر يا بهجة الملك والدنيا مع الدين
يا أحمد الحمد أبقاك الإله لنا فخر الملوك وسلطان السلاطين
وأما عبد الله فقد كتب بالعدوتين، عن ملوك الحضرتين. وأما محمد
فقد نال حظًا من التصوف، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوف.

ولا بد أن نلم بوصية ابن الخطيب، رحمه الله، لأولاده المذكورين، لما
فيها من الحكم والوصايا النافعة لمن عمل بها، وهى^(١):

الحمد لله الذى لا يروعه الحمام المرقوب، إذا شم نجمه المثقوب، ولا
يبيغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب، ملهم الهدى الذى تطمئن
به القلوب، وموضح السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة الصريحة فى قسم
الوجوب، لا سيما للولى المحبوب، والولد المنسوب، القائل فى كتابه المعجز
الأسلوب، ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ...﴾ [البقرة]، ﴿وَوَصَّى بِهَا
إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ...﴾ [البقرة]؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا
محمد رسول الله أكرم من زُرَّتْ على نوره جيوب الغيوب، وأشرف من خلعت
عليه حلل المهابة والعصمة، فلا تقتحمه العيون ولا تصمه العيوب، والرضا
عن آله وأصحابه الثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب، والأمل
المسلوب، والافتداء الموصل للمرغوب، والعز والأمن من اللغوب.

(١) أوردها المقرئ فى نفح الطيب بتمامها ج٧ ص ٣٩١ - ٤٠٦.

وبعد، فإننى لما علانى المشيب بغمته، وقادنى الكبر فى رمته، وادكرت الشباب بعد أمته لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت؛ وتأكد وجوب نصحى لمن لزمنى رعيه، وتعلق بسعوى سعيه، وأملى أن تتعدى إلى ثمرات استقامته، وأنا رهين فوات، وفى برزخ أموات، ويأمن العثور فى الطريق التى اقتضت عثارى، إن سلك وعسى ألا يكون ذلك على آثارى: فقلت أخاطب الثلاثة الولد؛ وثمرات الخلد بعد الضراعة إلى الله فى توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجمع تفريقهم؛ وأن يمن على فيهم بحسن الخلف، والتلافى من قبل التلف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدى السلف؛ فهو ولى ذلك، والهادى إلى خير المسالك.

اعلموا هداكم من بأنواره يهتدى الضلال، وبرضاه ترفع الأغلال، وبالتماس قربه يحصل الكمال؛ إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها. الشمال؛ أنى مودكم وإن سالمنى الردى، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عدا مما بدا؛ فكيف وأدوات السفر تجمع، ومنادى الرحيل يسمع؛ ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر، وعاجلة مقتصر، ورتيمة تعقد فى خنصر، ونصيحة تكون نشيدة واعٍ ومبصر، تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدى، وتوضح لكم فى الشفقة والحنو قصدى، حسبما تضمن وعد الله من قبل وعدى، فهى أربكم الذى لا يتغير وقفه، ولا ينالكم المكروه ما رف عليكم سقفه، وكأنى بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ؛ وبنشاطكم قد كسل، واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل، لا بل [السام]^(١) من كل حذب قد نسل، والمعاد للحد ولا تسل؛ فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم آباء عسكر مجر، وغدا شيوخ مضيعة وهجر؛ والقبور فاغرة،

(١) التكملة عن نفح الطيب ٣٩٣/٧ والسام - بتخفيف الميم - الموت.

[والنفوس عن المألوفات صاغرة] (١)؛ والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها آخرة؛ والحازم من لم يتعظ به فى أمر، وقال: بيدى لا بيد عمرو، فاقتنوها من وصية فى النصح قصية؛ وخصوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوها زادا إذا انتقلوا؛ وحسبى وحسبكم الله الذى لم يخلق الخلق هملا، ولكن ليلوهم أيهم أحسن عملا؛ ولا رضى الدنيا منزلا، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلا؛ ولتلقنوا تلقينا، وتعلموا علما يقينا؛ أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبى، ويفترش التراب جنبى؛ ويسح إنسكابى، وترهول عن المصلى ركابى؛ أحرص منى على سعادة إليكم تجلب، أو غاية كمال بسبيكم ترتاد وتطلب؛ حتى لا يكون فى الدين والدنيا أورف منكم ظلا، ولا أشرف محلا، ولا أغبط نهلا وعلا؛ وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تُصيخوا إلى قولى الآذان، وتلمحوا صبح نصحى فقد بان، وسأعيد عليكم وصية لقمان:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾، ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان].

وأعيد وصية خليل الله وإسرائيل عليه حسبما محكم تنزيله: ﴿... يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة]. والدين الذى ارتضاه واصطفاه، وأكمله ووفاه، وقرره مصطفىاه، من قبل أن يتوفاه، إذا أعمل فيه افتقاد، فهو عمل واعتقاد، وكلاهما مقرر، ومستمد من عقل أو نقل محرر؛

(١) التكملة عن نفح الطيب ج ٧ ص ٣٩٣.

والعقل متقدم، وبناءؤه مع رفض أخيه متهدم، فالله واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، تنزهه عن المكان والزمان، وسبق وجوده وجود الأكوان، خالق الخلق وما يعملون، والذي لا يسأل عن شيء وهم يسألون، الحى العليم المدبر القدير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أرسل الرسل رحمة لتدعو العباد إلى النجاة من الشقاء، وتوجه الحجة فى مصيرهم إلى دار البقاء، مؤيدة بالمعجزات التى لا تتصف أنوارها بالاختفاء، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء، ثم ختم ديوانهم بنى ملتنا المرعية للهمل، الشاهدة على الملل، فتلخصت الطاعة، وتبينت له الإمرة المطاعة، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة، ثم إن الله قبضه إذ كان بشرا، وترك دينه يضم من الأمة نشرا، فمن اتبعه لحق به، ومن حاد عنه تورط فى منتسبه، وكانت نجاته على قدر سببه.

روى عنه عليه السلام أنه قال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا بعدى: كتاب الله وستى فعضوا عليهما بالنواجذ».

فاعلموا يا بنى بوصية من ناصح جاهد، ومشفق شفقة والد؛ واستشعروا حبه الذى توفرت دواعيه، وعوا مرشد هدية فيافوز واعيه، وصلوا السبب بسببه، وآمنوا بكل ما جاء به مجملا [أو مفصلا] ^(١) على حسبه، وأوجبوا التجلة لصحبه، الذين اختارهم الله لصحبته، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته، واشملوهم بالتوقير، وفضلوا منهم أولى الفضل الشهير، وتبرءوا من العصبية التى لم يدعكم إليها داع، ولاتع التشاجر بينهم أذن واع، فهو عنوان السداد، وعلامة سلامة الاعتقاد، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملة، وأئمتها الجلة، فهم صقلة نصولهم، وفروع ناشئة على أصولهم، وورثتهم وورثة رسولهم، واعلموا أنى قطعت فى البحث

(١) التكملة عن نفح الطيب ج ٧ ص ٣٩٥.

زمانى، وجعلت النظر شانى، منذ برانى الله وأنشانى، مع نبل يعترف به
 الشانى، وإدراك يسلمه العقل الإنسانى، فلم أجد خابط ورق، ولا مصيب
 عرق، ولا نازع خطام، ولا متكلف فطام، ولا مقتحم بحر طام، إلاّ وغايته
 التى يقصدها قد فضلتها الشريعة وسبققتها، وفرعت ثنيتها وارقتتها، فعليكم
 بالتزام جادتها السابلة، ومصاحبة رفقتها الكافلة، والاهتداء بأقمارها غير
 الآفلة والله يقول وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ
 فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران]، وقد علت شرائعه وراع الشكوك
 فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين، وابدلوا دون النفوس فعل المهتدين، فلن ينفع
 متاع بعد الخلود فى النار أبد الأبدى، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله
 أصدق الواعدين، ومتاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين،
 اللهم قد بلغت، فأنت خير الشاهدين، فاحذروا المعاطب التى توجب فى
 الشقاء الخلود، وتستدعى شوه الوجوه، ونضج الجلود، واستعيذوا برضا الله
 من سخطه واربتوا بنفوسكم عن غمطه، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد
 خدع أسلافكم، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل اثلافكم، واقنعوا منه
 بما تيسر، ولا تأسوا على ما فات وتعذر، فإنما هى دجنة ينسخها المصباح،
 وصفقة يتعقبها الخسار والرباح، ودونكم عقيدة الإيمان، فشدوا بالنواجذ
 عليها، وكفكفوا الشبه أن تدنو إليها، واعلموا أن الإخلال بشيء، من ذلك
 خرق لا يرفؤه عمل، وكل ما سوى الراعى همل، وما بعد الرأس فى صلاح
 الجسم أمل، وتمسكوا بكتاب الله حفظا وتلاوة، واجعلوا حمله على حمل
 التكليف علاوة، وتفكروا فى آياته ومعانيه، وامثلوا أوامره وانتهوا عن
 نواهيه، ولا تتأولوه ولا تغلوا فيه، وأشربوا قلوبكم حب من أنزل على قلبه،
 وأكثر من بواعث حبه، وصونوا شعائر الله صون المحترم، واحفظوا القواعد
 التى ينبى عليها الإسلام حتى لا ينخرم.

الله الله فى الصلاة ذريعة التجارة، وخاصة الملة، وحاقنة الدم وغنى المستأجر المستخدم، وأم العبادة، وحافضة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة، والناهية عن الفحشاء والمنكر مهما عرض الشيطان عرضهما، ووطأ للنفس الأمارة سماءها وأرضهما، والوسيلة إلى بَلّ الجوانح ببرود الذكر، وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر، وضابطة حسن العشرة من الجار، وداعية المسألة من الفجار، والواسمة بسمه السلامة والشاهدة للعبد برفع الملامة، وغاسول الطبع إذا شأنه طبع، والخير الذى كل خير له تبع، فاصبروا النفس على وظائفها بين إبداء وإعادة، فالخير عادة، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية، [وتؤثروا على العلية الدنية]^(١)؛ فإن أوقاتها المعينة بالانفلات تنبس، والفلك بها من أجلكم لا يحبس، وإذا قرنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل، والحكم الذى لا غيره الغدو والأصيل، والوظائف بعد أدائها لا تفوت، وأين حق من يموت، من حق الحى الذى لا يموت؟ وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها، فبالإتقان تفاضلت الأعمال، وبالمراعاة استحق الكمال، ولا شكر مع الإهمال، ولا ربح مع إضاعة رأس المال، وثابروا عليها فى الجماعات، وبيوت الطاعات، فهو أرفع للامام، وأظهر لشرائع الإسلام، وأبر بإقامة الفرض، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض.

والطهارة التى هى فى تحصيلها سبب موصل، لمشروطها محصل، فاستوفوها، والأعضاء نظفوها، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها، والحجول والغرر فأطيلوها، والنيات فى كل ذلك فلا تهملوها، فالبناء بأساسه، والسيف برئاسه. واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور، وذكر مجهور وغير مجهور، تستغرق الأوقات، وتنازع شتى الخواطر المفترقات، فلا

(١) التكملة عن نفح الطيب ج ٧ ص ٣٩٧.

يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال، وكان فى درجة الرجولة ذا انتقال، واستعاض صداه بصقال، وإن تراخى تقهقر الباع، وسرقتة الطباع، وكان لما سواها أضيع فشمّل الضياع.

والزكاة أختها الحبيبة، ولدتها القرية، مفتاح السماحة بالعرض الزائل، وشكران المسئول على الضد من درجة السائل، وحق الله فى مال من أغناه، لمن أجهده فى المعاش وعناه، من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه، ولا علة القدر الذى يخفيه، وما لم ينله حظ فلا خير فيه، فاسمحوا بتفرقتها للحاضر لإخراجها، واختيار عرضها ونتاجها، واسحيوا من الله أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل، وخالفوا الشيطان كلما عدل، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون، ولا تدرون أين تسلكون، فوهب وأقدر، وأورد بفضله وأصدر، ليرتب بكرمه الوسائل، أو يقيم الحجج والدلائل، فابتغوا إليه الوسيلة بماله، واغتنموا رضاه ببعض نواله.

وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زلفى، المحبوضة لمن يعلم السر وأخفى، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام ببر القيام، والاجتهاد وإيثار السهاد على المهاد، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه [المرعية، ولواحقه]^(١) الشرعية، فبذلك تحسن الوجوه وتحصل النفوس من الرقة على ما ترجوه، وتهذب الطباع، ويمتد فى ميدان الوسائل إلى الله الباع.

والحج - مع الاستطاعة - الركن الواجب، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب، وقد بين رسول الله ﷺ قدره فيما فرض عن ربه وسنه وقال: ليس له جزاء عن الله إلا الجنة.

(١) التكملة عن نفع الطيب ج ٧ ص ٣٩٩.

ويلحق بذلك الجهاد فى سبيل الله وإن كانت لكم قوة عليه، وغنى لديه، فكونوا ممن يسمع نفيه ويطيعه، وإن عجزتم فأطيعوا من يستطيعه.

هذه عمدة الإسلام وفروضة، ونقود مهره وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناوئكم ظاهرين، وتلقوا الله لا مبدلين ولا مغيرين، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين.

واعلموا أن بالعلم تستكمل وظائف هذه الألقاب، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب، فعليكم بالعلم النافع، دليلاً بين يدي الشافع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصل إلى اللباب، والله عز وجل يقول: ﴿... هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر]. والعلم وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المنيقة، وشرطه الخشية لله والخيفة، وخاصة الملاء الأعلى، وصفة الله فى كتبه التى تتلى، والسبيل فى الآخرة إلى السعادة، وفى الدنيا إلى التجلى عادة، والذخر الذى قليله يشف وينفع، وكثيره يعلى ويرفع؛ لا يغصبه الغاصب، ولا يسلبه العدو المناصب، ولا يبتزه الدهر إذا مال، ولا يستأثر به البحر إذا هال، من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله، وقليل وإن جم ماله، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم، وتخطى حسابكم، فالتمسوه لبنىكم، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم، واحملوهم على جمعه ودرسه، واجعلوا طباعهم ثرى لغرسه، واستهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه، وسهر يهجر له الجفن كراه، تعقدوا لهم ولاية عز لا تعزل، وتحلوهم مثابة رفعة لا يحط فارعها ولا يستنزل، واختاروا من العلوم التى ينفقها الوقت، ما لا يناله فى غيره المقت، وخير العلوم علوم الشريعة، وما نجم بمنابها المريعة من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها، ولا يضايق ثمرات المعاد محصولها، فإنما هى آلات لغير، وأسباب إلى خير منها وخير،

فمن كان قابلا منها لازدياد، وألفى فهمه ذا انقياد، فليخص تجويد القرآن بتقديمه، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه، ثم الشروع فى أصول الفقه، فهو العلم العظيم المنة المهدى كنوز الكتاب والسنة، ثم المسائل المنقولة، عن العلماء الجلة، والتدرب فى طرق النظر وتصحيح الأدلة، وهذه هى الغاية القصوى فى الملة، ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى وتقاعد عن التى هى أسمى، فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه، وإياكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكا، ورأيا ركيكا، ولا يثمر فى العاجلة إلا اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسمة الصغار وخمول الأقدار، والخسف من بعد الإبدار، وجادة الشريعة أعرق فى الاعتدال، وأوفق من قطع العمر فى الجدال، هذا ابن رشد قاضى المصر ومفتيه، وملتمس الرشد ومؤتية، عادت عليه بالسخطة الشنيعة، وهو إمام الشريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها، والتورط فى ازدحامها، ولا تخلطوا سامكم بحامها، إلا ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فلاحه، وعلاج يرجى على النفس والجسم براحة، وما سوى ذلك فمحجور، وضرم مسجور، وممقوت مهجور.

وأمرؤا بالمعروف أمرأ رفيقا، وانهاؤا على المنكر نهيا حريا بالاعتدال حقيقا، واغبطوا من كان سنة الغفلات مفيقا، واجتنبوا ما تنهون عنه حتى لا تسلكوا منه طريقا، وأطيعوا أمر من ولاه الله من أموركم أمرأ، ولا تقربوا من الفتنة جمرا، ولا تدخلوا فى الخلاف زيدا وعمرأ.

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين، وأهم ما أضرى عليه الآباء السنة البنين، وأكرم منسوب إلى مذهبه، ومن أكثر من شىء عرف به. وإياكم

والكذب فهو العورة التى لا توارى، والسوءة التى لا يرتاب فى عارها ولا يتمارى، وأقل عقوبات الكذاب، بين يدي ما أعد الله له من العذاب، ألا يقبل صدقه إذا صدق، ولا يعول عليه إن كان بالحق قد نطق.

وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم، وفى وجه الديانة كُلُوم، ومن الشريعة التى لا يعذر بجهلها، أداء الأمانات إلى أهلها، وحافظوا على الحشمة والصيانة، ولا تجزوا من أقرضكم دين الخيانة، ولا توجدوا للغدر قبولا، ولا تقروا عليه طبعاً مجبولا، وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسئولا، ولا تستأثروا بكنز ولا خزن، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين فى سهل ولا حزن، ولا تبخسوا الناس أشياءهم فى كيل أو وزن والله الله أن تعينوا فى سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقاليم، واعلموا أن الإنسان فى فسحة ممتدة، وسبيل الله غير منسدة، ما لم ينبذ إلى الله بأمانة، ويغمس فى الدم الحرام بيده أو لسانه، قال الله فى كتابه الذى هدى به سننا قويمًا وجلّى من الجهل والضلال ليلا بهيما: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

واجتناب الزنا وما يتعلق به من أخلاق من كرم طباعه، وامتمد فى سبيل السعادة باعه، ولو لم تتلق نور الذى لم يهد شعاعه، فالخلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت عليه غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يزنى بأهله؟ والله قد أعد للزانى عذابا وبيلا، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء].

والخمر أم الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر، والله لم يجعله الله فى الحياة شرطا، والمحرم قد أغنى عنه بالخلال الذى سوغ وأعطى، وقد تركها فى الجاهلية أقوام لم يرضوا لعقولهم الفساد، ولا لنفوسهم بالمضرة فى مرضاة

الأجساد، والله جعلها رجسا محرما على العباد، وقرنها بالأنصاب والأزلام في مباينة السداد.

ولا تقربوا الربا فإنه من مناهى الدين، والله تعالى يقول: ﴿...وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]. وقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ [البقرة: ٢٧٩] في الكتاب المبين. ولا تأكلوا مال أحد [بغير حق يبيحه]^(١) وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه، والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه، ولا يكل اختياره إلا للثقة من خدمه، ولا تلجئوا إلى المتشابه إلا عند عدمه، فهو في السلوك إلى الله أصل مشروط، والمحافظ عليه مغبوط.

وإياكم والظلم، فالظلم ممقوت بكل لسان، مجاهر لله بصريح العصيان، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان، والنميمة فساد وشتات، لا يبقى عليه متات، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة قتات». واطرحوا الحسد فما ساد حسود، وإياكم والغيبة فباب الخير عنها مسدود، والبخل فما رثى البخل وهو مودود، وإياكم وما يعتذر منه فموقف الخزي لا تستقال عثراتها، ومظنات الفضائح لا تؤمن غمراتها، وتفقدوا أنفسكم مع الساعات، وأفشوا السلام في الطرق والجماعات، ورقوا على ذوى الزمانات والعاهات، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في البضاعات، وعولوا عليه وحده في الشدائد، واذكروا المساكين إذا نصبت الموائد، وتقربوا إليهم باليسير من ماله، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله، وارعوا حقوق الجار، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار وتعاهدوا أولى الأرحام، والوشائج البادية الالتحام، واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر، وتفسد السر والجهر، والرشا فإنها تحط الأقدار، وتستدعى المذلة والصغار، ولا

(١) تكملة عن نفع الطيب ج ٧ ص ٤٠٢.

تسامحوا فى لعبة قَمَر، ولا تشاركوا أولى البطالة فى أمر، وصونوا المواعد من الإخلاف، والأيمان من حنث الأوغاد والأجلاف، وحقوق الله من الازدراء والاستخفاف، ولا تلهجوا بالآمال العجاف، ولا تكلّفوا بالكهانة والإرجاف، واجعلوا العمر بين معاش ومعاد، وخصوصية وابتدعاد، واعلموا أن الله بمرصاد، وأن الخلق بين زرع وحصاد، وأقلوا بغير الحالة الباقية الهموم، واحذروا القواطع عن السعادة كما تحذر السموم، واعلموا أن الخير أو الشر فى الدنيا محال أن يدوم، وقابلوا بالصبر أذية المؤذين، ولا تقارضوا مقالات الظالمين، فالله لمن بُغى عليه خير الناصرين، ولا تستعظموا حوادث الأيام كلما نزلت، ولا تضجعوا للأمراض إذا أعضلت، فكل منقرض حقير، وكل منقض وإن طال فقصير، وانتظروا الفرج، وانتشقوا من جناب الله الأرج، وأوسعوا بالرجاء الجوانح، [واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح]^(١)، وتضرعوا إلى الله بالدعاء، واجتئوا إليه فى البأساء والضراء، وقابلوا نعم الله بالشكر الذى يقيد منها الشارد، ويعذب الموارد، وأسهموا منها للمساكين، وأفضلوا عليهم، وعينوا الحظوظ منها لديهم، فمن الآثار: «يا عائشة أحسنى جوار نعم الله فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم». ولا تطغكم النعم فتقصروا فى شكرها، وتلفكم الجهالة بكسرها، وتوهموها أن سعيكم جليها، وجدكم حليها، فالله خير الرازقين، والعاقبة للمتقين، ولا فعل إلاّ لله إذا نظر بعين اليقين. والله لا تنسوا الفضل بينكم، ولا تذهبوا بذهابه زينكم، وليلتزم كل منكم لأخيه، ما يشد به تواخيه، بما أمكنه من إخلاص وبر، ومراعاة فى علانية وسر، وللإنسان مزية لا تجهل، وحق لا يهمل، وأظهروا التعاضد والتناصر، وصلوا التعاهد والتزاور، ترغموا بذلك الأعداء، وتستكثروا الأوداء، ولا تنافسوا فى الحظوظ السخيفة، ولا تهاوشوا تهارش السباع على الجيفة، واعلموا أن المعروف يكدر

(١) التكملة عن نفح الطيب ج ٧ ص ٤٠٣.

بالامتنان، وطاعة النساء شر ما أفسد بين الإخوان، فإذا أسديتم معروفا فلا تذكروه، وإذا برز قبح فاستروه، وإذا أعظم النساء أمرا فاحقروه، والله الله لا تنسوا مقارضة سجلى، وبروا أهل مودتى من أجلى، ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد، الذى لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلك أجمع فى العقار فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار، وساعيا لنفسه إن تغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار، ومعوقا عن الانتقال، أمام النوب الثقال، وإذا كان رزق العبد على المولى، فالإجمال فى الطلب أولى، وازهدوا جهدكم فى مصاحبة أهل الدنيا، فخيرها لا يقوم بشرها، ونفعها لا يفى بضرها، وأعقاب من تقدم شاهدة، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة، ومن بلى منكم بها فليستظهر بسعة الاحتمال، والتقلل من المال، ويحذر معادة الرجال، ومزلات الإذلال، وفساد الخيال، ومداخلة العيال، وإفشاء الأسرار، وسكر الاغترار، وليصن الديانة، ويؤثر الصمت ويلزم الأمانة، ويسر من رضا الله على أوضح الطرق، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق، وليقف فى التماس أسباب الجلال، وسمو القدر ورفعة الحال دون الكمال، فما بعد الكمال غير النقصان، والزعازع تسالم اللدن اللطيف من الأغصان. وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلابا، واستظهارا على الحظوظ وغلابا، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داع إلى الفضح والعار، ومن امتحن منكم بها اختيار، أو جبر عليها إكراها وإيثار، فليتلق وظائفها بسعة صدره، وليبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحنة، وهى بين إخطاء سعادة، وإخلال بعبادة، وتوقع عزل، وإدالة رخاء بأزل، وبيع جد من الدنيا بهزل، ومزلة قدم، واستتباع ندم، ومآل العمر كله فوت ومعاد، واقتراب من الله وابتعاد، جعلكم الله ممن نفعه بالتصبير والتنبيه ومن لا ينقطع بسببه عمل أبيه.

هذه أسعدكم الله وصيتى التى أصدرتها، وتجارتي التى لربحكم أدرتها، فتلقوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها، وبقدر ما أمضيت من فروعها، واستغشيت من دروعها، اقتنيت من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة، وبقدر ما أضعتم من لآليها النفيسة القيم استكثرتم، من بواعث الندم، ومهما سئتم إطالتها، واستغزرتهم مقالتها، فاعلموا أن تقوى الله فذلكة الحساب، وضابط هذا الباب، كان الله خليفتي عليكم فى كل حال، فالدنيا مناخ ارتحال، وتأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء دار البقاء جعلها الله من وراء خطة النجاة، ونفق بضائعها المزجاة، بلطائفها المرتجاة، والسلام عليكم من حبيبكم المودع، والله يلاّمه حيث شاء من شمل متصدع؛ والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ورحمة الله وبركاته.

انتهت الوصية، وهى غريبة فى معناها.

قلت: ولأجل ذلك كان شيخنا الفقيه الإمام القاضى العلامة سيدى عبد الواحد الوانشرى رحمه الله، كثيرا ما يدخل منها فى خطبه، على ما لا يخفى على من طالعها، وإلى الله ترجع الأمور.

وإذ بلغنا فى ترجمة ابن الخطيب إلى هذا الحد الذى يستطيل الناظر فيه، وهو والله يتمم التعريف بابن الخطيب ولا يوفيه، فلنذكر القاضى النباهى والكاتب ابن زَمْرَك، اللذين كان لهما مع ابن الخطيب أول الأمر مصافاة ومُتات، ثم استحالت إلى ما علمت من العداوة ذات البتات.

انتهى الجزء الأول من أزهار الرياض فى أخبار عياض ويليهِ الجزء الثانى، وأوله: أخبار القاضى النباهى.

أهم مراجع التحقيق

- الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب، مكتبة الخانجي، القاهرة ٢٠٠١م.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى، الدار البيضاء ١٩٩٧م.
- تاريخ ابن خلدون، طبعة بولاق ١٢٨٤هـ.
- الكتيبة الكامنة للسان الدين بن الخطيب، بيروت ١٩٦٣م.
- المعجم فى أصحاب الصدفى مصورة عن طبعة أوروبا، الثقافة الدينية بالقاهرة ٢٠٠٠م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ، بيروت ١٩٦٨م.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتي، الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م.
- وفيات الأعيان لابن خلكان، دار صادر بيروت ١٩٨٣م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة التحقيق	٥
مقدمة المؤلف	٧
روضة الورد فى أولية هذا الإمام الفرد	٢٣
نسب عياض	٢٣
عند الوادى آشى	٢٣
عند ابن الأبار	٢٣
عند ابن خاتمة	٢٣
عند ابن الملجوم	٢٣
نزوله بدار ابن الغرديس	٢٤
عند ولده محمد	٢٤
عند ابن خلكان	٢٤
عند ابن خاتمة أيضاً	٢٥
شئء عن ابن خلكان وابن خلدون	٢٥
الكلام فى ضبط اليحصبى	٢٦
محمد بن عياض يخبر عن موطن أجداده	٢٦
شئء عن سبتة	٢٧
وصف ابن الخطيب لسبتة	٢٩
الشريف أبو العباس وحفاوته بابن الخطيب	٣٠
شعر لابن الخطيب فى بليونش	٣١

٣٢	شعر لعياض فيها أيضاً
٣٢	وصف ابن حيان لها
٣٢	شعر للمنصفى فيها أيضاً
٣٢	شعر الكميلي فيها
٣٣	شعر المنصفى فيها
٣٤	مثل من كرم الشريف أبى العباس
٣٤	ثناء أبى الحسن النباهى على الشريف وشىء عنه
٣٤	شعر للشريف
٣٥	حفاوة أبى عنان بالشريف أبى العباس ومنزلته فى سبته
٣٦	وصف أحد كتاب الشريف له
٣٦	داوة أبى عنان وشعر مكتوب عليها
٣٧	رجع إلى ذكر الشريف
٣٧	شىء من كرم الشريف وشعره
٣٧	أشراف سبته
٣٧	دخل الشريف من مضرب الميناء وما كان ينفقه فيه
٣٩	حفاوة ملوك بنى مرين
٤٠	سبب تعريف المؤلف بهذا الشريف
٤١	استيلاء العدو على سبته
٤١	رثاء طليطلة
٤١	قصيدة الرندى فى رثاء الأندلس

- ٤٤ ابن عاصم وبعض ما جاء فى كتابه عن انحلال أمر الأندلس
- ٤٧ ذكر غرناطة
- ٤٨ تقرىظ لابن عاصم على كتاب الإحاطة
- ٥٠ نبذة من كتاب الروض لابن عاصم عن ابن يوسف
- ٥٠ مثال من حرص ابن الخطيب على العوائد
- ٥١ اضطراب أمر الأندلس بالخروج على القواعد
- ٥٢ وصف البكرى للأندلس
- ٥٢ وصف ابن الخطيب للأندلس
- ٥٢ أبو يوسف المرينى ودن جانجه ومثل من عز الإسلام
- ٥٣ تعقيب لابن الخطيب على قصة أبى يوسف
- ٥٤ بعض ما كتب فى استنهاض الهمم ضد النصارى
- ٥٤ لابن زمرك
- ٥٤ لابن الخطيب
- ٥٦ سقوط غرناطة فى يد العدو والخلاف فى تاريخ ذلك
- ٥٧ خروج أمير الحمراء ابن أبى الحسن إلى فاس
- ٥٧ وفاته وشىء عنه وعن عقبه
- ٥٨ حال المسلمين بعده بالأندلس
- ٥٨ رسالة فى ذكر ما جرى للمسلمين فى الأندلس
- ٦٠ تنكيل طاغية قشتالة وأرغون بالمسلمين
- ٦٠ بعض من خرج من علماء الأندلس

٦١	كتاب ابن الأحمر لصاحب فاس
٨٢	أبو عبد الله العربي وشيء من نظمه
٨٣	قصيدة الدقون في ندب الجزيرة
٨٨	مما كتبه بعض أهل الجزيرة إلى بايزيد
٩٤	بلاغة أهل الأندلس
٩٥	مقامة الفقيه عمر: تسريح النصال إلى مقاتل الفصال
١٠١	شيء من نظمه
١٠١	مقامة في أمر الوباء
١٠٧	بعض مقطعاته
١٠٨	تعريف بالشران
١٠٨	شيء من نظمه
١٠٩	طريقة لابن جماعة وقد تولى الشران مكانه
١٠٩	شعر للشران يعاتب ابن جماعة على إهمال دعوته إلى إعدار
١١٠	قصيدته اللامية
١١٩	بعض شعر له
١٢٠	تعريف بالرئيس ابن عاصم
١٢٢	قصيدة له تلد بتتين فموشحتين في مدح السلطان أبي الحجاج
١٢٨	البت الأولى
١٢٩	الموشحة الأولى
١٣١	البت الثانية

١٣٢	الموشحة الثانية
١٣٤	موازنة بين ابن عاصم وصاحب عنوان الشرف الوافى
١٣٤	مختار من كتابه جنة الرضى
١٤٥	شئ من كلام ابن عاصم عن ابن فتوح
١٤٦	منشور سلطانى بتولى ابن عاصم القضاء
١٥٣	تخميس لابن عاصم
١٥٩	تعريف بابن الخطيب
١٥٩	أوليته ونسبه
١٦٠	نشأته وشيوخه
١٦٢	مؤلفاته
١٦٣	رأى ابن الأحمر فيه
١٦٤	توليه الكتابة
١٦٤	كلام لابن الصباغ عنه وعن قوة بديته
١٦٥	أيام ابن الخطيب مع السلطان أبى عبد الله
١٦٦	تفصيل لنكبة السلطان أبى عبد الله وذهابه إلى فاس
١٦٨	قصيدة ابن الخطيب بين يدى السلطان أبى سالم يستصرخه لمولاه
١٧٢	انصراف السلطان أبى عبد الله إلى الأندلس
١٧٣	خبر هذه القصة كما رواها ابن خلدون
١٧٥	شئ عن أحوال ابن الخطيب كما رواها ابن خلدون
١٨٢	كتاب القاضى أبى الحسن إلى ابن الخطيب

١٩٨	نكبتة ووفاته
٢٠٠	شعر له في محبسه ييكى نفسه
٢٠٠	تخميس لبعض بنى الصباغ
٢٠٣	شعر ابن الخطيب
٢٠٥	قصيدة لابن الخطيب في المولد النبوى
٢٠٦	قصيدة لأبى زكريا بن خلدون يحاكى بها قصيدة ابن الخطيب
٢١٠	وصف ليالى مولد النبى أيام السلطان أبى حمو
٢١٣	شعر لأبى زكريا بن خلدون فى المنجاة
٢١٥	موشحة للتلايسى يخاطب بها أبو حمو
٢١٧	شئ عن السلطان أبى حمو
٢١٧	قصيدة ابن الخطيب للسلطان أبو حمو يستعيز به
٢٢٤	نثر له أيضاً وصل به القصيدة
٢٢٧	بعض مقطوعات لابن الخطيب فى السلطان أبى حمو
٢٢٨	شعر له يودع به عبد الواحد ابن سلطان إفريقية
٢٢٩	من قصيدة المنح الغريب له
٢٣١	من مقطوعات له لما أشرف على مراکش
٢٣٢	كتاب ابن خاتمة إلى ابن الخطيب
٢٣٤	رد ابن الخطيب على كتاب ابن خاتمة
٢٣٧	من رثاء السلطان أبى سالم
٢٣٧	شعر له فى الرغبة إلى الله

الموضوع

الصفحة

- ٢٣٧ شعر له بعد عودته من الرحلة المراكشية
- ٢٣٨ وله فى مدرسة
- ٢٣٩ وله فى غرناطة
- ٢٣٩ وله يخاطب قبر الولى السبتي
- ٢٤٠ وله يورى بدم الأخوين
- ٢٤٠ وله فى اقتباس
- ٢٤١ شعر له فى التورية بالطب
- ٢٤١ وقال يخاطب ابن مرزوق
- ٢٤٢ شعر له فى مخاطبة أحد الشرفاء
- ٢٤٢ وقال يشكر السلطان أبا سالم على تخليصه إياه
- ٢٤٢ وله فى التغزل
- ٢٤٢ من رسالة فى تهنئة ابن أبى مدين بتقلد الخطبة
- ٢٤٣ رسالته إلى السلطان أبى سالم مستعيناً به
- ٢٤٩ رد السلطان أبى سالم على ابن الخطيب
- ٢٥١ رد ابن الخطيب على السلطان أبى سالم شاكراً
- ٢٥٣ تهنئة للسلطان أبى سالم بفتح تلمسان
- ٢٥٣ من مخاطباته لابن مرزوق
- ٢٥٤ شىء من صراحة ابن لاختيب فى مجلس السلطان أبى عنان
- ٢٥٤ شعر له فى مكناسة
- ٢٥٥ شعر له فى مدينة أنفا

٢٥٥	شعر له فى ابن بطان
٢٥٥	شعر له فى البرغوث
٢٥٦	شعر له فى ابن روح
٢٥٦	شعر له صدر به رسالته إلى ابن حسون
٢٥٧	شعر له فى ندب مراکش بعد الموحدين
٢٥٧	شعر له يخاطب به عامر الهنتاتى
٢٥٨	تعريف بعامر الهنتاتى
٢٥٨	شئ عن الشريف الشبوكى
٢٥٩	شعر للشبوكى فى مدح أبى فارس والتحريض على الهنتاتى
٢٦١	شعر لابن الخطيب على قبر السلطان أبى الحسن المرينى
٢٦٤	شعر لابن الخطيب على قبر المعتمد
٢٦٤	شعر له فى مخاطبة ابن يوسف
٢٦٥	وله فى مخاطبة السلطان
٢٦٥	وله فى مخاطبة ابنه وقد وصل لزيارته
٢٦٦	بعض مقطوعات له
٢٦٦	وله فى مشرف الدار حين أكل القابض
٢٦٧	وله فى رأس الغادر بالدولة
٢٦٧	وله فى الغزل
٢٦٧	شعر له فى السعيد أبى بكر
٢٦٧	وله فى توديع ابنه لما انصرف عنه إلى فاس

الصفحة

الموضوع

٢٦٨	وله فى السيادة الخطيية
٢٦٩	وله فى مخاطبة السلطان أبى الحجاج
٢٧٠	وله فى التورية
٢٧٠	وله فى التجنيس
٢٧١	وله فى التورية أيضاً
٢٧١	بعض شعر له
٢٧٢	وله فى جلوس السلطان فى يوم برد للسلام
٢٧٢	وله فى الغزل
٢٧٣	أبيات له فى المحسنات البديعية
٢٧٥	وله فى سكن الأضحى
٢٧٥	وله فى مروحة سلطانية
٢٧٥	وله يخاطب ابن الجياب
٢٧٦	وله فى الغزل
٢٧٦	وله فى البراغيث أيضاً
٢٧٦	وله فى خالد البلوى
٢٧٧	وله فى المنجاة
٢٧٧	وله فى الغزل
٢٧٧	وله فى التصوف
٢٧٧	وله فى المديح موريا
٢٧٧	شعر له يشك أنه للمشاركة

الصفحة

الموضوع

٢٧٩	وله فى المشيب
٢٧٩	وله وقد أجاز بسببة
٢٨٠	وله فى طاق الماء
٢٨٠	بين ابن الجياب وابن الخطيب
٢٨٠	بعض أبيات له
٢٨١	موشحة له فى مدح السلطان يوسف أبى الحجاج
٢٨٤	وله فى مدح النبى ﷺ
٢٨٦	وله فى الرجوع إلى الله
٢٨٧	تخميس للغسانى على بيتين لابن الخطيب
٢٨٧	أولاد ابن الخطيب
٢٨٧	على بن الخطيب والمستنصر فى بستان
٢٨٨	شئ عن عبد الله ومحمد ابنى الخطيب
٢٨٨	وصية ابن الخطيب لأولاده